٥

﴿ ترجمة المؤلف ﴾

هو ابو عثمان عمرو بن محبوب الكناني الليثي المعروف بالجاحظ البصري
العالم المشهور صاحب التصانيف في كل فن له مقالة جليلة في أصول الدين
واليه تنسب الفرقة المعروفة بالجاحظية من المعتزلة وهو تلميذ أبي اسحاق
ابراهيم بن سيار المعروف بالنظام المتكلم المشهور . وكان قد أوتي بسطة في
لسانه وبيانا عذبا في خطابه ومجالا واسعا في فنونه وتصانيفه كثيرة
(ومن) أحسنها وأمتعها كتاب الحيوان فلقد جمع فيه كل غريبة * ومن أنفعها
وأجمعها كتاب البيان والتبيين الذى جمع فيه من صنوف البيان وغرر
الاحاديث وعيون الخطب وبديع الفقر وكلام النساك ومواعظ الزهاد
وغير ذلك مالا يستغني عنه شاعر أو كاتب أو خطيب فى سلاسة ألفاظ
وحسن تنسيق ورشاقة معان وبداعة تمييق * ومن غرر مؤلفاته كتاب
سلوة الحريف بمناظرات الربيع والخريف وهو كتاب جليل مفيد في بابه
ومن أنفعها وأحسنها أيضا مجموعة رسائل غزيرة الفوائد وبديعة الفرائد
فى مواضيع شتى كلها نتف وملح وحكم طبع بعضها في مدينة ليدن بالبلاد
الاوروبية وقد وفق الآن لاعادة طبعه ثانيا وطبع مالم يطبع منها بمطبعة
التقدم الغراء احدي المطابع المصرية حضرة الهمام الأمثل الحاج محمد
افندي الساسى المغربي صاحب الايادى البيضاء في طبع الكتب النافعة
المفيدة * وله غير ذلك مما يحول دون استقصائه قصد الاختصار
(وكان) الجاحظ مع كثرة فضائله وغزارة مادته مشوه الخلق جداً منذ

لما أحضره المتوكل ليعلم أولاده استبشع منظره فأمر له بعشرة آلاف درهم وصرفه * وانما لقب بالجاحظ لان عينيه كانتا جاحظتين من جحظت عينه تنع خرجت مقلته أو عظمت وكان يقال له أيضا الحدقي لذلك ﴿ ومن غريب أخباره ﴾ ما حكي عن بعض البرامكة أنه قال كنت تقلدت السند فأقمت بها ما شاء الله ثم اتصل بي أني صرفت عنها وكنت قد كسبت بها ثين ألف دينار فخشيت أن يفجأني الصارف فيسمع بمكان المال فيطمع فصغته عشرة آلاف إهليلجة في كل إهليلجة ثلاثة مثاقيل ولم يمكث ارف أن أتى فركبت البحر وانحدرت الى البصرة فخبرت أن الجاحظ بها وأنه عليل بالفالج فأحببت أن أراه قبل وفاته فصرت اليه فأفضيت الى باب دار لطيف فقرعته فخرجت إليّ خادم صفراء فقالت من أنت قلت رجل غريب وأحب ان أسرّ بالنظر الى الشيخ فبلغته الخادم ماقلت فسمعته ل له وماتصنع بشق مائل ولعاب سائل ولون حائل فلقت للجارية من الوصول اليه فلما بلغته قال هـذا رجل قد اجتاز بالبصرة وسمع بعلتي فقال أحب أن أراه قبل موته فأقول قد رأيت الجاحظ ثم أذن لي فدخلت وسلمت عليه فردّ ردا جميلا وقال من تكون أعزك الله فانتسبت له فقال رحم الله تعالى أسلافك وآباءك السمحاء الاجواد فلقد كانت أزمانهم رياض الازمنة ولقد انجبر بهم خلق كثير فسقيا لهم ورعيا فدعوت له وقلت أنا أسألك أن تنشدني شيئا من شعرك فأنشدني

لئن قدّمت قبلي رجال فطالما * مشيت على رسلي فكنت المقدما
ولكنّ هذا الدهر تأتي صروفه * فتبرم منقوضا وتنقض مبرما

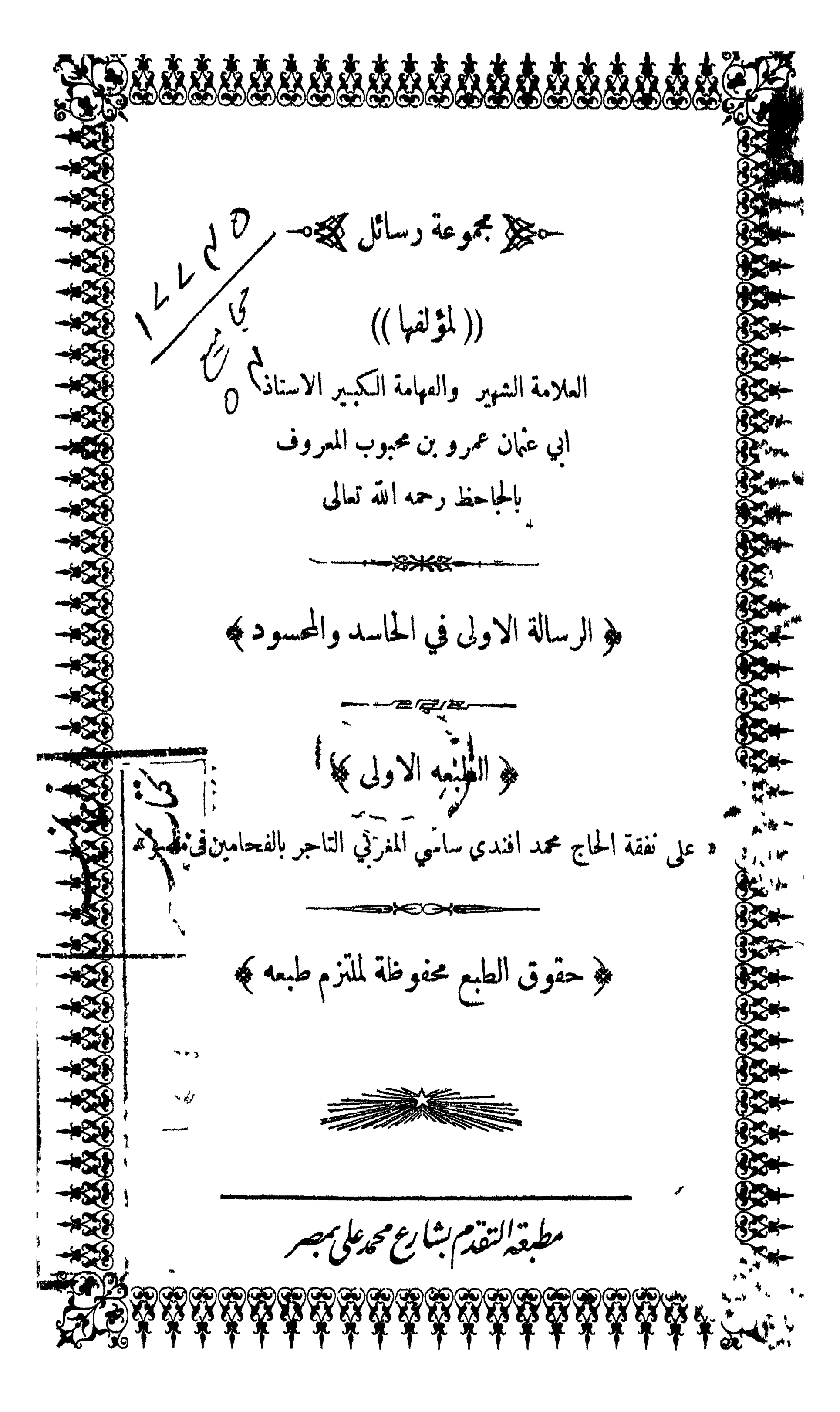
ثم نهضت فلما قاربت الدهليز قال يافتى أرأيت مفلوجا ينفعه الاهليلج قلت لا قال فان الاهليلج الذي معك ينفعني فابعث لى منه فقلت نعم وخرجت متعجبا من وقوعه على خبري مع كتماني له وبعثت له مائة إهليلجة * وقال أبو الحسن البرمكي وقد أنشدني الجاحظ

وكان لنا أصدقاء مضوا * تفانوا جميعا وما خلدوا

تساقوا جميعا كؤس المنون * فمات الصديق ومات العدو

(وكان) الجاحظ في أواخر عمره قد أصابه الفالج فكان يطلي نصفه الايمن بالصندل والكافور لشدة حرارته والنصف الايسر لو قرض بالمقاريض لما أحس به من خدره وشدة برده. وكان يقول في مرضه اصطلحت على جسدى الاضداد ان اكلت باردا أخذ برجلي وإن اكلت حارا أخذ برأسي وكان يقول أيضاً أنا من جانبي الايسر مفلوج فلو قرض بالمقاريض ماعلمت به ومن جانبي الايسر منقرس فلو مرّ به الذباب لألمت

(وكانت) وفاته في شهر المحرم سنة خمس وخمسين ومائتين بالبصرة بسبب وقوع مجلدات العلم عليه وهو ضعيف وقد نيف على تسعين سنة رحمه الله تعالى (وبحر) بفتح الباء الموحدة وسكون الحاء وبعدها راء (ومحبوب) بفتح الميم وسكون الحاء المهملة وضم الباء الموحدة (والكناني) بكسر الكاف (والليثي) بفتح اللام وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها ثاء مثلثة نسبة الي ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة بن خزيمة اه ملخصا من ابن خلكان مع بعض زيادة من مواضع أخري



مجموعة رسائل

((لمؤلفها))

العلامة الشهير والفهامة الكبير الاستاذ

ابي عثمان عمرو بن محبوب المعروف

بالجاحظ رحمه الله تعالى

الرسالة الاولى في الحاسد والمحسود

الطبعه الاولى

على نفقة الحاج محمد افندي ساسي المغربي التاجر بالفحامين في مصر

مطبعة التقدم بشارع محمد علي بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين * والصلاة والسلام على سيد الانبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين * أما بعد * فهذه رسائل العلامة أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ الكناني البصري رحمه الله تعالى

الرسالة الاولي في الحاسد والمحسود

كتب رحمه الله تعالى في جواب من سأله عن الحسد

وهب الله لك السلامة . وأدام لك الكرامة . ورزقك الاستقامة . ودفع عنك الندامة . كتبتَ إليّ أكرمك الله تسألني عن الحسدِ ماهو . ومن أين هو . وما دلائله وأفعاله . وكيف تفرّقت أمورُه وأحوالُه . وبمَ يعرف ظاهرُه ومكتومه . ولمَ صار في العلماء . أكثرَ منه في الجهلاء . ولمَ كثُرَ في الأقرباء . وقلّ منه في البعداء . وكيف دبّ في الصالحين أكثرَ منه في الفاسقين . وكيف خصّ به الجيران . من جميع الأوطان .

الحسدُ أبقاكَ الله داءٌ ينهك الجسد . ويفسد الأوَد . علاجه عسر . وصاحبه ضَجِر . وهو بابٌ غامضٌ وأمرٌ متعذر . فما ظهر منه فلا يداوَى . وما بَطَنَ منه فمداويه في عناءٍ . ولذلك قال النبيّ صلى الله عليه وسلم دبّ اليكم داءُ الأُمم من قبلكم الحسدُ والبغضاءُ (وقال لجلسائه أيُّ الناس أقلُّ غفلةً فقال بعضهم صاحب ليلٍ إنما همه ان [illegible]

فقال انه لكذا وليس كذاك . وقال بعضهم المسافر إنما همه أن يقطع سفره فقال انه لكذا وليس كذاك . فقالوا له فأخبرنا بأقلّ الناس غفلة فقال الحاسدُ إنما همه أن ينزع الله منك النعمة التي أعطاكها فلا يغفل أبداً

﴿ويروى﴾ عن الحسن أنه قال الحسد أسرع في الدين من النار في الحطب اليابس * وما أُتى المحسود من حاسد إلا من قبل فضل الله تعالى اليه ونعمته عليه قال الله تبارك وتعالى (أم يحسدُون الناس على ما آتاهمُ الله من فضله فقد آتينا آلَ ابراهيمَ الكتابَ والحكمةَ وآتيناهم ملكاً عظيما) والحسد عقيد الكفر وحليف الباطل وضدُّ الحقّ وحَرْب البيان . وقد ذمَّ الله تعالى أهل الكتاب فقال (ودَّ كثيرٌ من أهل الكتاب لو يَرُدُّونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ماتبيَّن لهم الحقُّ) فمنه تتولَّد العداوة وهو سبب كلّ قطيعة ومنتج كلّ وَحشة ومفرّق كلّ جماعة وقاطع كلّ رَحم بين الأقرباء . ومحدث التفرق بين القرناء . وملقح الشرِّ بين الخلطاء . يكمن في الصدر كمون النار في الحجر . ولو لم يدخل رحمكَ الله على الحاسد بعد تراكم الهموم على قلبه واستمكان الحزن في جوفه وكثرة مضضه ووسواس ضميره وتنغيص عمره وكدر نفسه ونكَد لذاذة معاشه . إلا استصغاره لنعمة الله تعالي عنده . وسخطه على سيده بما أفاده الله عبده . وتمنيه عليه أن يرجع في هبته إياه . وأن لا يرزق أحداً سواه . لكان عند ذوي العقول مرحوما . وكان عندهم في القياس مظلوما وقد قال بعض الاعراب ما رأيتُ ظالماً أشبه بمظلوم من الحاسد . نفسٌ دائم ، وقلبٌ هائم . وحزنٌ لازم . والحاسد مخذولٌ ومأزور . والمحسود محبوب

ومنصور . والحاسد مهموم ومهجور . والمحسود مغشيّ ومزور * والحسد رحمك الله أول خطيئة ظهرت في السموات . وأوّل معصية حدثت في الأرض . خصّ به أفضل الملائكة [1] فعصى ربه وقايسه بخلقه واستكبر عليه وقال خلقتني من نار وخلقته من طين فلعنه وجعله ابليساً وأنزله من جواره وشوّه خلقه تشويهاً . فموّه على أنبيائه تمويهاً . نسي عزم ربه فواقع الخطيئة فأرتدع المحسود فتاب عليه وهدى . ومضى الحاسد اللعين على حسده فشقي وغوى * وأما في الأرض فابنا آدم حيث قتل أحدهما أخاه . فعصى ربه وأثكل أباه . وبالحسد طوّعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين . لقد حمله الحسد على غاية القسوة وبلغ به أقصى حدود العقوق وإذ ألقى عليه الحجر شادخاً . فأصبح عليه نادماً صارخاً * فمن شأن الحاسد ان كان المحسود غنياً توبيخه على المال وقال جمعه حراما . ومنعه أثاماً . وألب عليه [2] محاويج أقاربه وتركهم له خصماء وأعانهم في الباطن . وحمل المحسود على قطيعتهم في الظاهر وقال له كفروا معروفك . وأظهروا في الناس ذمك . فليس أمثالهم يوصّلون . فانهم لا يشكرون . وإن وجد له خصماء أعانه عليه ظلماء . فان كان ممن يعاشره فاستشاره غشه أو تفضل عليه بمعروف كفره أو دعاه الى نصره خذله . أو حضر مدحه ذمه . وإن سئل عنه همزه أو كانت عنده

---

(١) (قوله افضل الملائكة) هذا يقتضي ان ابليس منهم وليس كذلك بل هو جني كان مغموراً بين اظهر الألوف من الملائكة فلذا استثني منهم في قوله تعالى فسجدوا الا ابليس استثناء متصلا كما في الكشاف اهـ مصححه (٢) ألب كمنع وضميره المستتر يعود على الحاسد ومعناه جمعهم على المحسود الغني بالظلم والعداوة اهـ

شهادة كتمها . وان كانت منه اليه زلةٌ عظمها وقال انه يحب أن يعاد ولا يعود . ويرى عليه العقود * وان كان المحسود عالما قال مبتدع . ولرأيه متبع . حاطب ليل . ومتبع نيل .. ما يدرى ما حمل . قد ترك العمل . وأقبل على الحيل . وقد أقبل بوجوه الناس اليه . وما أحمقهم إذا مالوا عليه . فقبحه الله من عالم ما أعظم بليتّه . وأقلّ رعيتّه . وأسوأ طِعمته[1] وان كان المحسود ذا دينٍ قال متصنّعٌ يغزو ليوصى اليه . ويحجُّ ليثنى عليه . ويقرأ في المسجد ليزوّجه جاره ابنته . ويحضر الجنائز لتعرف شهرته * وما لقيتَ حاسداً قط الا تبيَّن لك مكتومه بتغيير لونه . وتخويص عينه[2] واخفاء سلامه والاعراض عنك والاقبال على غيرك . والاستثقال لحديثك . والخلاف لرأيك . ولذلك قال القائل

طال على الحاسد أحزانه * فاُصفرّ من كثرة أحزانه
دعه فقد أشعلت فى جوفه * ما هاج منه حرّ نيرانه
العيب أشهى عنده لذّة * من لذّة المال لخزانه
فارم على غاربه حبله * تسلم من كثرة بهتانه

(وكان) عبد الله بن ابى قبل نفاقه نسيج وحده لجودة رأيه وبعد همته . ونبل شيمته . وانقياد العشيرة له بالسيادة والسعادة . واذعانهم له بالرياسة . وما استوجب ذلك الا بعدما استجمع له لبُّه . وتبيَّن لهم عقله . وافتقدوا منه جهله . ورأوه لذلك أهلاً . لما أطاق له حملاً . فلما بعث الله نبيَّه صلى الله

(١) الطعمة بكسر الطاء السيرة فى الاكل والمراد هنا الاعم (٢) التخويص الغض من البصر مع تحديق العين كانه يقوم قدحا اه

عليه وسلم وقدم المدينة ورأى هو عزّ رسول الله صلى الله عليه وسلم شمخ بأنفه فحسده فهدم اسلامه وأظهر نفاقه . وما صار منافقاً حتى صار حسوداً فحمق بعد اللبّ . وجهل بعد العقل . وتبوّأ النار بعد الجنة . ولقد خطب النبيُّ صلى الله عليه وسلم بالمدينة فشكاه الى الأنصار فقالوا يارسول الله لا تلمه فقد كنا عقدنا له الخرز[1] قبل قدومك لنتوّجه * ولو سلم المخذول قلبه من الحسد لكان من الاسلام بمكان . ومن السودد فى ارتفاع . فوضعه الله بحسده واظهار نفاقه * ولما قال النبي صلى الله عليه وسلم لا حسد الا فى اثنتين رجل آتاه الله مالاً فهو ينفق منه ورجل آتاه الله قرآنا فهو يقوم به في آناء الليل والنهار كان ماسواهما مذموماً وصاحبه عليه مقلياً * وربما نتج الحسد الكبر فيبلغ صاحبه في المقت غايته . وفي البغض من جميع الخلق نهايته . فلا يمرُّ بملاٍ الا مضغوه . ولا يذكر في مجلس الا سبّوه . وأشهد أنه في ملكوت السماء أشدُّ مقتاً لأنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال أنتم شهداء الله في الارض فما رأى المسلمون حسناً كان عند الله حسنا وما رآه المسلمون قبيحاً سيئاً فهو عند الله سيئٌ (وقال) بعضهم اني أشتري اللحم فأخفيه من جيراني مخافة أن يحسدوني وذلك أنّ الجيران رحمك الله طلائع عليك . وعيونهم نواظر اليك . فعسى كنت بينهم معدماً فأيسرت . فبذلت وأعطيت . وكسوت وأطعمت . وكانوا في مثل حالك فاتضعوا فسلبوا النعمة وألبستها أنت فعظمت عليهم بلية الحسد . وصاروا منه في

---

(١) جمع خرزة وهى الجوهرة وكان من عادة الملوك انهم يضعونها فى تيجانهم اذا ملكوا وكلما مضى عام زادوا خرزة لنعلم سنو ملكهم

تنغيص آخر الأبد * ولولا أنّ المحسود بنصر الله اياه مستورٌ وبصنعه محجوب لم يأت عليه يومٌ الا كان مقهوراً . ولا بات ليلةً الا كان عن منافعه مقصوراً . ولم يمس الا وماله مسلوب . ودمه مصبوبٌ . مهراق مسفوك . وعرضه بالضرب منهوك (وقال) مالك بن دينار تقبل شهادة القراء في كل شيء الا بعضهم على بعض فاني وجدتهم أشدّ تحاسداً من التيوس تشدّ النعجة فيهبُّ عليها هذا التّيس مرة وهذا التّيس مرّة * وضرر الحسود الى صديقه أكثر منه الى عدوّه . والى خليطه أظهر منه الى مفارقه . والى قريبه أسرع منه الى بعيده ﴿ وذكر ﴾ حميدٌ الطويل أنه سأل الحسن البصري رضي الله تعالى عنه فقال يا أبا سعيد هل يحسد المؤمن فقال أنسيت لا أبا لك إخوة يوسف المؤمن يُحسد ولكن مالم يظهر بلسانه ويده ﴿ وأقول ﴾ ماخالط الحسد قلباً الا لم يمكنه ضبطه . ولا قدر على تشحينه وكتمانه . حتي يتمرّد عليه في ظهوره واعلانه . فيستعبده ويستعمله ويستنطقه لقهره عليه . ولهو أغلب على صاحبه من السيد على عبده . ومن السلطان على رعيته ومن الرجل على زوجته . ومن الآسر على أسيره (وكان) ابن الزبير بالصبر موصوفا . وبالدهاء معروفا . وبالعقل موسوما . وبالمداراة منهوما[1] فأظهر بلسانه حسداً كان أضبّ عليه[2] لما طالت في قلبه طائلته حتى أظهروا عليه مع صبره على المكاره وحمله نفسه على حتفها وقلة اكتراثه والتفاته الى أحجار المجانيق التي كانت تمر عليه فتذهب بطائفة من قومه ما يلتفت اليها (حدثنا) عن عليّ بن مسهر عن الاعمش عن طلح بن حباب عن سعيد

---

(١) أي مولعا بها (٢) في القاموس وأضب فلانا لزمه فلم يفارقه وعليه أمسكه اه

ابن جبير أنه قال قدت ابن عباس حتى أدخلته على ابن الزبير فقال له ابن الزبير أنت الذي تؤنبني قال نعم لأني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ليس بمؤمن من بات شبعان وجاره طاو فقال له ابن الزبير قلت ذاك وأتبعه بقول يدل على حسد كان ابن عباس من شره معصوماً . وكان ذاك بما في قلبه لبني هاشم مهزوماً . وكانت وخزة ثقيلة فلم يبدها له وفروع بني هاشم حول الحرم باسقة . وعروق دوحاتهم بين أطباقها راسية . ومجالس بني هاشم من أعاليها غامرة . وبحورها بأرزاق العباد زاخرة . وأنجمها بالهدى زاهرة . فلما تجلت البطحاء من صناديدها استقبله بما أكمن في نفسه . والحاسد لا يغفل عن فرصته . الى أن يأتي الموت على رمته . وما استقبل ابن عباس بذلك الا لما رأى عمر قدمه على أهل القدم ونظر اليه وقد أطاف به الحرم . فأوسعهم حكماً . وتعقبوا منه رأياً وفهماً . وأشبعهم علما ولحما (ويروى) عن ابن سيرين انه قال ما رأيت أكثر علما ولحما من منزل ابن عباس ﴿ وأما ﴾ أنا فحقاً أقول لو ملكت عقوبة الحاسد لم أعاقبه بأكثر مما عاقبه الله به بالزامه الهموم قلبه وتسليطها عليه فزاده الله حسداً . وأقامه عليه أبداً . وكيف يصبر من استكنَّ الحسد في قلبه على أمانيه ولقد كان إخوة يوسف علماء حلماء . ولدهم الأنبياء . فلم يغفلوا عما قدح في قلوبهم من الحسد ليوسف صلى الله عليه وسلم حتى أعطوا أباهم المواثيق المؤكدة والعهود المقلدة والايمان المغلظة أنهم له حافظون وهو شقيقهم وبضعة منهم فخانوا العهود ووثبوا عليه بالظلم فألقوه في غيابة الجب وجاؤا على قميصه بدم كذب فبظلمهم يوسف ظلموا أباهم طمعا أن يخلو لهم وجه أبيهم ويتفردوا بحبه وظنوا

أنّ الايام تسليه. وحبه لهم من بعده عنه يلهيه. فأسالوا عبرته. وأحرقوا قلبه. وكيف لا تقرّ عيون المحسودين بعد يوسف وقد ملكه الله خزائن الارض بصبره على أذى حساده ومقاصته اياهم بالعفو والمكافاة. وحسن العشرة والمؤاخاة. وبعد امكانه منهم لما أتوه ممتارين. ووفدوا عليه خائفين. وهم له منكرون فأحسن رفدهم وأكرم قراهم فأقروا له لما عرفوا بالاذعان وسألوه بعد ذلك الغفران. وخروا له سجداً. لما قدموا عليه وفداً * فاذا أحسست رحمك الله من صديقك بالحسد فأقلل ما استطعت من مخالطته. فانه أعون الاشياء لك على مسالمته. وحصن سرك منه تسلم من شذى شزه[1]. وعوائق ضره. وإياك والرغبة فى مشاورته. فتمكن نفسك من سهام مشاررته. ولا يغرنك خدع ملقه[2] وبيان ذلقه. فان ذلك من حبائل ثقفه[3] فان أحببت أن تعرف آية مصداقه فدس له من يهجنك عنده ويذمك بحضرته فانه سيظهر لك من تشبيبه[4] لك ما أنت به جاهل. ومن خلاف المودة ما أنت عنه غافل. ولهو ألج فى حسده لك من الذباب وأسرع في تمزيقك من السيل الى الحدور * وما أحبّ أن تكون عن حاسدك غبياً. ولا عن فهمك بما في ضميره نسياً. الا أن تكون للذلّ محتملاً. وعلى الدناءة مشتملاً. ولأخلاق الكرام مجانبا. وعن محمود شيمهم ذاهبا. أو تكون بك اليه حاجة قد صيرتك لسهام الرماة هدفا. وعرضك لمن أرادك غرضا. ولو نلت بذلك كنوز قارون لم يكن ذلك مما بذلت

(١) الشذى كالاذى وزنا ومعني (٢) الملق محركا ان يعطى بلسانه ما ليس فى قلبه (٣) الثقف بحركات الحذق والفطانة (٤) اى تعريضه لك بالمحبة

عوضا * وقد قيل على وجه الدهر الحرة تجوع ولا تأكل بثدييها . وربما كان الحاسد المصطنع اليه المعروف أكفر له وأشد اجتهادا وأكثر تصغيراً لذلك من أعدائه (وكان) الحسن بن هانيء يرتع على مائدة اسماعيل الهاشمي وكان من المطعمين للطعام المسرفين فعارض الحسنَ بْنَ هانيء يوما بعض أصحابه فقال له من أين فقال من عند اسماعيل فقال له ما أطعمكم فقال أطعمنا دماغ كلب في قحف خنزير . فلم يكن منه هذا القول الا على وجه الحسد ولم يسلم منه مع كثرة أُنسه به وكثرة سيبه اليه حتى احتشد واحتفل في الذمّ له والتهجين لطعامه (ولولا) شدة ورع ابن سيرين وصدق لهجته لم يكن قوله فيما قال وأخبر عن نفسه من أُطراح الحسد عن قلبه مرويا عنه وعند ذوي العقول معجبا حيث قال ما حسدت أحداً على شيء ان كان من أهل الجنة فما حسدي لرجل من أهل الجنة وان كان من أهل النار فما حسدي لمن يصير الى النار * ومتى رأيت حاسداً يصوّب لك رأيا وان كنت مصيبا . أو يرشدك الى صواب وان كنت مخطئا . أو نصح لك في غيبه عنك . أو قصر من عيبه لك . هو الكلب الكلب . والنمر الحرب(١) والسمّ القشب . والفحل القطم(٢) . والسيل العرم . ان ملك قتل وسبى . وان ملك عصى وبغى . حياتك موته وثبوره . وموتك عرسه وسروره . يصدق عليك كل شاهد زور . ويكذب فيك كل عدل مرضي . لا يحب من الناس الا من يبغضك . ولا يبغض من الناس الا من يحبك . عدوك بطانته . وصديقك

---

(١) الحرب من حرب كفرح كلب واشتد غضبه (٢) القطم وزان كتف الكثير العض

علاوته[1] وانك ربما غالطت فى أمره . لما يظهر لك من بره * ولو كنت تعرف الجليل من الرأى والدقيق من المعنى وكنت في مذاهبك فطنا نقابا . ولم تكن فى عيب مَن أوضح لك عيبه مرتابا . لاستغنيت بالرمز عن الاشارة . وبالاشارة عن الكلام . وبالسر عن الجهر . وبالخفض عن الرفع وبالاختصار عن التطويل . وبالجمل عن التفصيل . وأرحتنا من طلب التحصيل . ولكن أخاف أن قلبك لصديقك غير مستقيم . كما ان ضمير قلبك غير سليم . انك غير سالم منه وان رفعت القذى عن لحيته . وسويت عليه ثوبه فوق منكبه . ولبست ثوب الاستكانة عند رؤيته . واغتفرت له الزلة بعد زلته . واستحسنت كل ما يقبح من شيمته . وصدقته على كذبه . وأعنته على فجره * فما هذا العناء . وما هذا الداء العياء . كأنك لم تقرأ المعوذة ولم تسمع مخاطبة الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم فى التقدمة اليه بالاستعاذة من شر حاسد اذا حسد . أتطلب ويحك أثراً بعد عين . أو عطراً بعد عروس . أو تريد أن تجتني عنبا من شوك أو تلتمس حلب لبن من حائل إنك إذاً لاعيا من باقل . وأحمق من الضبع إن كنت تجهل بعد ما أعلمناك . وتعوج بعد ما قومناك . وتبلد بعد ما ثقفناك . وتضل إذ هديناك . وتنسى لما ذكرناك . وتغبى عما فهمناك . وأنت كمن أضله الله على علم فبطلت عنده المواعظ . وعمي عن المنافع . فختم على قلبه وسمعه وجعل على بصره غشاوة فنعوذ بالله من الخذلان * انه لا يأتيك ولكنه يناديك . ولا يحاكك . ولكنه يوازنك * أحسن ما نكون عنده حالا . أقل ما يراك مالا . وأكثر

(١) العلاوة بالكسر من كل شيء مازاد عليه اى أن به تزداد اثقال همومه ومنغصاته اه

ما تكون عيالا . وأعظم ما تكون ضلالا . وأفرح ما يكون بك أقرب ما تكون بالمصيبة عهداً . وأبعد ما تكون من الناس حمداً . فاذا كان الامر على هذا فمجاورة الاموات ومخالطة الزَّمنى والاكتنان بالجدران . ومص المصران . وأكل القردان . أهون من معاشرة مثله . والاتصال بحبله

(والغل) ينتج الحسد وهو رضيعه وغصن من أغصانه . وعون من أعوانه . وشعبة من شعبه وفعل من أفعاله وحدث من أحداثه . كما أنه ليس فرع إلا له أصل ولا مولود إلا من مولد ولا نبات إلا بأرض ولا رضيع إلا له مرضع . وان تغير اسمه فانه صفة من صفاته . ونبت من نباته . ونعت من نعوته * ورأيت الله جل ثناؤه ذكر الجنة في كتابه فحلاها بأحسن حلية . وزينها بأحسن زينة . وجعلها دار أوليائه . ومحل انبيائه . ففيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فذكر في كتابه ما منَّ به عليهم من السرور والكرامة عند ما دخلوها وبوَّأها لهم فقال (انَّ المتقين في جنات وعيون ادخلوها بسلام آمنين ونزعنا ما في صدورهم من غل اخوانا على سرر متقابلين لا يمسهم فيها نصبٌ وماهم منها بمخرجين) فما أنزلهم دار كرامته إلا بعد ما نزع الغلَّ من صدورهم فبافتقاد الغل والحسد تهنوا بالجنة وقابلوا إخوانهم على السرر وتلذَّذوا بالنظر في مقابلة الوجوه بسلامة صدورهم . ونزع الحسد والغلّ من قلوبهم . ولو لم ينزع ذلك من صدورهم ويخرجه من قلوبهم لافتقدوا لذاذة الجنة ولتدابروا وتقاطعوا وتحاسدوا وأوقعوا الخطيئة ولمسهم فيها النصب وأُعقبوا منها الخروج لانه عزَّ وجل فاضل بينهم في المنازل . ورفع درجات بعضهم فوق بعض في الكرامات

وسنيّ العطيات . فلما نزع الحسد والغل من قلوبهم ظن ّأدناهم منزلة فيها واقربهم بدخول الجنة عهداً أنه أفضلهم منزلا واكثرهم درجة وأوسعهم داراً بسلامة قلبه ونزع الغل من صدره فقرت عينه وطاب اكله ولو كان ذلك لصاروا الى التنغيص في النظر بالعيون والاهتمام بالقلوب . ولحدثت فيهم العيوب والذنوب . وما أرى السلامة إلا في قطع الحاسد . ولا السرور إلا في افتقاد وجهه . ولا الراحة إلا في صرم مداراته . ولا الربح الا في ترك مصافاته * فاذا فعلت ذلك فكل هنيئا . واشرب مريئا . ونم رخيا . وعش في السرور مليا . ونحن نسأل الله الجليل ان يصفي كدر قلوبنا ويجنبنا وإياك دناءة الاخلاق ويرزقنا وإياك حسن الالفة والاتفاق * احسن الله توفيقك والسلام (تمت) الرسالة والحمد لله وصلى الله علي نبيه محمد وعترته الطاهرين وسلم تسليما كثيرا

اه

(تمت الرسالة الأولى ويليها الرسالة الثانية وهي رسالة المؤلف الى الفتح بن خاقان في مناقب الترك)

﴿ الرسالة الثانية ﴾

﴿ الى الفتح بن خاقان في مناقب الترك وعامة جند الخلافة ﴾

﴿ لمؤلفها ﴾

العلامة الشهير والفهامة الكبير الأستاذ أبي عثمان

عمرو بن محبوب المعروف بالجاحظ

رحمه الله تعالى

﴿ الطبعة الأولى ﴾

(على نفقة الحاج محمد افندي سامي المغربي التاجر بالفحامين في مصر)



مطبعة التقدم بشارع محمد علي بمصر

رسالة الى الفتح بن خاقان فى مناقب الترك وعامة جند الخلافة



(الله ولىّ كل نعمة)

وفقك الله لرشدك . وأعان على شكرك . وأصلحك وأصلح على يديك . وجعلنا واياك ممن يقول بالحق ويعمل به ويؤثره ويحتمل مافيه مماقد يصده عنه ولا يكون حظه منه الوصف له والمعرفة به دون الحث عليه والانقطاع اليه . وكشف القناع عنه . وايصاله الى أهله والصبر على المحافظة في أن لايصل الى غيرهم . والتثبت في تحقيقه لديهم فان الله تعالى لم يعلم الناس ليكونوا عالمين دون أن يكونوا عاملين . بل علمهم ليعملوا . وبيّن لهم ليتقوا . ولخوف الوقوع فى المضار والتورط في المهالك طلب الناس التبين . ولحب السلامة من الهلكة والرغبة فى المنفعة احتملوا ثقل التعلم وتعجلوا مكروه المعاناة . ولقلة العاملين وكثرة الواصفين قال الاولون العارفون أكثر من الواصفين . والواصفون أكثر من العاملين . وانما كثرت الصفات . وقلت الموصوفات . لان ثواب العمل مؤجل . واحتمال مافيه معجل *وقد أعجبني* مارأيت من شغفك بطاعة إمامك . والمحاماة لتدبير خليفتك . واشفاقك من كل خلل دخل على ملكه وان دق . ونال سلطانه وان صغر . ومن كل أمر خالف هواه وان خفى مكانه . وجانب رضاه وان قل ضرره . ومن تخوفك أن يجد المتأول اليه متطرقا . والعدوّ عليه

متعلقا. فان السلطان لايخلو من متأول ناقم. ومن محكوم عليه ساخط. ومن معدول عن الحكم زار[1] ومن متعطل متصفح[2] ومن معجب برأيه ذي خطل في بيانه. ولع بتهجين الصواب والاعتراض على التدبير حتى كأنه رائد لجميع الامة. ووكيل لسكان المملكة. يضع نفسه فى موضع الرقباء وفى موضع التصفح على الخلفاء والوزراء. لايعذر وان كان مجاز العذر واضحا. ولا يقف فيما يكون للشك محتملا. ولا يصدق بأن الشاهد يرى ما لا يرى الغائب. وأنه لايعرف مصادر الرأي من لم يشهد موارده. ولا مستدبره من لم يعرف مستقبله. ومن محروم قد اضطغنه[3] الحرمان ومن لئيم قد أفسده الاحسان. ومن مستبطيء قد أخذ أضعاف حقه وهو لجهله بقدره ولضيق ذرعه وقلة شكره يظن أن الذى بقى له أكثر وأن حقه أوجب. ومن مستزيد لو ارتجع السلطان سالف أياديه البيض عنده ونعمه السالفة عليه لكان لذلك أهلا وله مستحقاً. قد غره الاملاء وابطره دوام الكفاية وافسده طول الفراغ. وصاحب فتنة خامل في الجماعة رئيس فى الفرقة نعاق في الهرج قد أقصاه عز السلطان واقام صغوه ثقاف[4] الادب وأذله الحكم بالحق فهو مغيظ لايجد غير التشنيع ولا يتشفى بغير

---

(١) (زار) من زرى عليه زريا وزراية عابه وعاتبه (٢) (المتصفح) من تصفح القوم عرضهم واحداً واحداً أو من تصفح الامر نظر فيه بامعان (٣) (اضطغنه) اي جعله محتويا على الضغن وهو الحقد او من اضطغنه اخذه تحت حضنه (٤) (الصغو) بفتح الصاد المهملة وكسرها وسكون الغين المعجمة الميل (والثقاف) ككتاب ما تسوي به الرماح فهو من اضافة المشبه به للمشبه اي الادب الشبيه بالثقاف في تقويم المعوج

الارجاف ولا يستريح الا الى الامانيّ ولا يأنس الا بكل مرجف كذاب ومفتون مرتاب . وحارص لا خير فيه وخالف لا غناء عنده . يريدان يُسوّى بالكفاة ويرفع فوق الحماة لامر سلف له ولا حسان كان من غيره وليس ممن يرب [١] قديما بحديث ولا يحفل بدروس شرف ولا يفصل بين ثواب المحتسبين وبين الحفظ لابناء المحسنين . وكيف يعرف فرق مابين حق الذمام وثواب الكفاية من لا يعرف طبقات الحق في مراتبه ولا يفصل بين طبقات الباطل في منازله ﴿ثم أعلمتني﴾ بذلك أنك بنفسك بدأت في تعظيم امامك والحفظ لمناقب انصار خليفتك . وإياها حطت بحياطتك لاشياعه واحتجاجك لاوليائه . ونعم العون أنت ان شاء الله على ملازمة الطاعة والموازرة على الخير والمكانفة [٢] لاهل الحق . وقد استدللتُ بالذي أرى من شدة عنايتك . وفرط اكترائك . وتفقدك لأخابير الاعداء . وبحثك عن مناقب الاولياء . على ان ماظهر من نصحك أمم [٣] فى جنب مابطن من اخلاصك فأمتع الله بك خليفته ومنحنا واياك محبته واعاذنا من قول الزور والتقرب بالباطل انه حميد مجيد فعال لما يريد ﴿وذكرت﴾ أبقاك الله أنك جالست اخلاطا من جند الخلافة . وجماعة من أبناء الدعوة . وشيوخا من جلة الشيعة . وكهولا من أبناء رجال الدولة والمنسوبين الى الطاعة والمناصحة الدينية دون محبة الرغبة والرهبة (وان) رجلا من عرض تلك الجماعة ومن حاشية تلك الجملة ارتجل الكلام ارتجال مستبد وتفرد به تفرد معجب وانه لم

---

(١) قال في المصباح ورب زيد الامر ربا من باب قتل اذا ساسه وقام بتدبيره

(٢) المكانفة) بالنون والفاء المفتوحتين المعاونة (٣) (الامم) محركة اليسير اهـ

يستأمر زعماءهم ولم يراقب خطباءهم وانه تعسف المعاني وتهجم على الالفاظ وزعم ان جند الخلافة اليوم على خمسة أقسام خراساني وتركى ومولى وعربي وبنوي[1] وانه أكثر من حمد الله وشكره على احسانه ومننه. وعلى جميع أياديه وسابغ نعمه. وعلى شمول عافيته وجزيل مواهبه حين ألف على الطاعة هذه القلوب المختلفة. والاجناس المتباينة. والاهواء المتفرقة. وانك اعترضت على هذا المتكلم المستبد وعلى هـذا القائل المتكلف الذى قسم هذه الاقسام وخالف بين هذه الاركان وفصل بين انسابهـم وفرق بين أجناسهـم وباعد بين انسابهم. وانك أنـكرت ذلك عليه أشد الانـكار وقذعته[2] أشد القذع (وزعمت) أنهم لم يخرجوا من الاتفاق أو من شيء يقرب من الاتفاق. وانك أنـكرت التباعد فى النسب والتباين فى السبب (وقلت) أزعم ان الخراساني والتركي اخوان وان الحيز واحـد وان حكم ذلك الشرق والقضـية على ذلك الصقع متفق غير مختلف ومتقارب غير متفاوت وان الاعراق فى الاصل ان لم تـكن راسخة فقد كانت متشابهة وحدود البلاد المشتملة عليهم ان لم تـكن متساوية فانها متناسبة وكلهـم خراسانى في الجملة وان تميزوا ببعض الخصائص وافترقوا ببعض الوجوه (وزعمت) ان اختلاف التركي والخراساني ليس كالاختلاف بين العجمى والعربى ولا كالاختلاف بين الرومى والصقلبي والزنجى والحبشى فضلا

(١) (وبنوي) في القاموس والأبناء قوم من العجم سكنوا اليمن والنسبة ابناوي وبنوي محركة ردا له الى الواحد اه (٢) (وقذعته) وفيه ايضا قذعه كمنعه رماه بالفحش وسوء القول اه

عما هو أبعد جوهراً وأشد خلافا بل كاختلاف ما بين المكيّ والمدنيّ والبدوي والحضريّ والسهليّ والجبليّ . وكالاختلاف ما بين الطائيّ الجبليّ والطائيّ السهليّ وكما يقال ان هذيلا اكراد العرب . وكاختلاف ما بين من نزل البطون وبين من نزل الحزون وبين من نزل النجود وبين من نزل الاغوار (وزعمت) أن هؤلاء وان اختلفوا في بعض اللغة وفارق بعضهم بعضاً في بعض الصور فقد تخالفت عُليا تميم وسفلى قيس وعجز هوازن وفصحاء الحجاز في اللغة وهى في أكثرها على خلاف لغة حمير وسكان مخاليف اليمن وكذلك الصورة والشمائل والاخلاق وكلهم مع ذلك عربي خالص غير مشوب ولا معلهج . ولا مذرع ولا مزلج[1] ولم يختلفوا اختلاف ما بين بني قحطان وبني عدنان من قبل ما طبع الله عليه تلك البرية من خصائص الغرائز وما قسم الله تعالى لاهل كل جيزة من الشكل والصورة والاخلاق واللغة ﴿فان قلت﴾ فكيف كان أولادهما جميعاً عربا مع اختلاف الابوة ﴿قلنا﴾ ان العرب لما كانت واحدة فاستووا في التربة وفي اللغة والشمائل والهمة وفى الانف والحمية وفى الاخلاق والسجية فسبكوا سبكا واحداً وأفرغوا افراغا واحداً وكان القالب واحداً . تشابهت الاجزاء وتناسبت الاخلاط حتي صار ذلك أشد تشابهاً في باب الاعم والاخص وفي باب الوفاق والمباينة من بعض الارحام وجرى عليهم حكم الاتفاق في

(١) (المعلهج) كمزعفر الهجين وهو العربي المولود من امة او من ابوه خير من امه (والمذرع) بالذال المعجمة كمعظم هو من أمه اشرف من ابيه (والمزلج) بضم الميم وفتح الزاى وتشديد اللام مفتوحة آخره جيم الملصق بالقوم وليس منهم اه

الحسب وصارت هذه الاسباب ولادةً أخري حتي تنا كحوا عليها وتصاهروا
من أجلها وامتنعت عدنان قاطبة من منا كحة بني اسحق وهو اخو اسماعيل
وجادوا بذلك في جميع الدهر لبني قحطان وهو ابن عابر *فى اجماع الفريقين
على التنا كح والمصاهرة ومنعهما من ذلك جميع الامم كسرى فمن دونه
دليل على ان النسب عندهم متفق وان هذه المعاني قد قامت عندهم مقام
الولادة والارحام الماسة (وزعمت) أنه أراد الفرقة والتحزيب . وانك أردت
الالفة والتقريب (وزعمت) أيضاً ان البنوىّ خراسانىّ وان نسب الابناء
نسب آبائهم . وان حسن صنيع الآباء وقديم فعال الاجداد هو حسب
الابناء . وان الموالى بالعرب أشبه واليهم أقرب وبهم أمس لان السنة قد
نقلت الموالى الى العرب فى كثير من المعانى لانهم عرب فى المدعى وفى
العاقلة وفى الوراثة وهذا تأويل قوله عليه الصلاة والسلام مولى القوم
منهم . ومولى القوم من أنفسهم . والولاء لحمة كلحمة النسب . وعلى شبيه
ذلك صار حليف القوم منهم وحكمه حكمهم فصار الاخنس بن شريف
وهو رجل من ثقيف . وكذلك يعلى بن منية وهو رجل من بلعدوية
وكذلك خالد بن عرفطة وهو رجل من عذرة . من قريش . وبذلك
النسب حرمت الصدقة على موالى بني هاشم فان النبي صلى الله عليه وسلم
أجراهم في باب التنزيه والتطهير مجري مواليهم . وبذلك السبب قدم النبي
صلى الله عليه وسلم بني عبد المطلب على بنى عبد شمس وقرابتهم سواء ونسبهم
واحد للعقد المتقدم وللايدى المتفقة وقال صلى الله عليه وسلم منا خير فارس
فى العرب عكاشة بن محصن فقال ضرار بن الازور الاسدىّ ذلك رجل

منا يارسول الله قال بل هو منا بالحلف فجعل حليف القوم منهم كما جعل ابن أخت القوم منهم (ثم زعمت) ان الاتراك قد شاركوا هؤلاء القوم في هذا النسب وصاروا من العرب بهذا السبب ، مع الذى بانوا به من الخلال وحُبُوا به من شرف الخصال * على أن ولاء الاتراك للباب قريش ولمصاص عبدمناف وفى سرهاشم وهاشم موضع العذار من خد الفرس والعقد من لبة الكعاب وهو الجوهر المكنون والذهب المصفى وموضع المحة[1] من البيضة والعين من الرأس والروح من البدن وهم الأنف المقدم والسنام الاكوم . والطينة البيضاء والدرة الزهراء . والروضة الخضراء والذهب الاحمر فقد شاركوا العرب في أنسابهم . والموالي في أسبابهم وفضلوهم بهذا الفضل الخاص الذى لايبلغه فضل وان برع . بل لايكثره شرف وان عظم . ولا مجد وان قدم (فزعمت) ان انساب الجميع متقاربة غير متباعدة وعلى حسب ذلك التقارب تكون الموازرة والمكانفة والطاعة والمناصحة والمحبة للخلفاء والائمة (وذكرت) أنه ذكر جملا من مفاخر هذه الاجناس وجمهرة[2] من مناقب هذه الاصناف وانه جمع ذلك وفصله واجمله وفسره وانه ألغي ذكر الاتراك فلم يعرض لهم وأضرب عنهم صفحاً فلم يخبر عنهم كما أخبر عن حجة كل جيل وعن برهان كل صنف (وذكر) ان الخراساني يقول نحن النقباء وأبناء النقباء . ونحن النجباء وأبناء النجباء . ومنا الدعاة قبل ان تظهر نقابة أو تعرف نجابة

---

(١) المحة بضم الميم وفتح الحاء المهملة مشددة صفرة البيض (٢) (الجمهرة) من جمهره اذا جمعه أي جمله مجموعة فهو من عطف المرادف اهـ

وقبل المغالبة والمباداة وقبل كشف القناع وزوال التقية . وبنا زال ملك أعدائنا عن مستقره . وثبت ملك أوليائنا فى نصابه . وبين ذلك ماقتلنا وشردنا ونهكنا ضربا وطعناً . وبضعنا بالسيوف الحداد وعذبنا بألوان العذاب وبنا شفى الله الصدور وأدرك الثار . ومنا الاثنا عشر النقباء . والسبعون النجباء . ونحن الخندقية وأبناء الخندقية . ونحن الكفية وأبناء الكفية . ومنا المستجيبة ومن يمرج التيمية . ومنا نيم خزان وأصحاب الجوربين . ومنا الزغندية والآزاذمردية . ونحن فتحنا البلاد . وقتلنا العباد . وأبدنا العدو بكل واد . ونحن أهل هذه الدولة وأصحاب هذه الدعوة ومنبت هذه الشجرة . ومن عندنا هبت هذه الريح * والانصار انصاران الاوس والخزرج نصروا النبي صلى الله عليه وسلم في أول الزمان . وأهل خراسان نصروا ورثته في آخر الزمان . غذانا بذلك آباؤنا . وغذونا به أبناءنا . وصار لنا نسباً لانعرف الا به . ودينا لانوالى الاعليه * ثم نحن على وتيرة واحدة ومنهاج غير مشترك . نعرف بالشيعة وندين بالطاعة ونقتل فيها ونموت عليها سيمانا موصوف . ولباسنا معروف . ونحن أصحاب الرايات السود والروايات الصحيحة والاحاديث المأثورة والذين يهدمون مدن الجبابرة وينتزعون الملك من أيدي الظلمة . وفينا تقدم الخبر وصح الاثر . وجاء في الحديث صفة الذين يفتحون عمورية ويظهرون عليها ويقتلون مقاتليها ويسبون ذراريها حيث قالوا فى نعتهم شعورهم شعور النساء وثيابهم ثياب الرهبان فصدق الفعلُ القول وحقق الخبر العيان (ونحن) الذين ذكرنا وذكر بلاءنا امام الائمة وأبو الخلائف العشرة محمد بن علي حين أراد توجيه

الدعاة الى الآفاق وتفريق شيعته فى البلدان (قال) أما البصرة وسوادها
فقد غلب عليها عثمان وصنائع عثمان فليس بها من شيعتنا الا القليل. وأما
الكوفة وسوادها فقد غلب عليها عليّ وشيعته وليس بها من شيعتنا الا
القليل. وأما الشام فشيعة بنى مروان وآل أبى سفيان. وأما الجزيرة فحرورية
شارية وخارجة مارقة. ولكن عليكم بهذا الشرق فان هناك صدورا سليمة
وقلوبا باسلة لم تفسدها الاهواء. ولم تخامرها الادواء. ولم تعتقبها البدع
وهم مغيظون موتورون وهناك العدد والعدة والعتاد والنجدة (ثم قال)
وأنا أتفاءل الى حيث يطلع النهار فكنا خير جند لخير امام وصدقنا ظنه
وثبتنا رأيه وصوبنا فراسته (وقال) مرة أخرى ان أمرنا هذا شرقيّ
لاغربيّ ومقبل لامدبر يطلع كطلوع الشمس ويمتد على الآفاق امتداد
النهار حتى يبلغ حيث تبلغه الاخفاف وتناله الحوافر (قالوا) ونحن قتلنا
الصحصحية والدالقية والذكوانية والراشدية. ونحن أيضاً أصحاب الخنادق
أيام نصر بن سيار وابن جديع الكرماني وشيبان بن سلمة الخارجي ونحن
أصحاب نباتة بن حنظلة وعامر بن ضبارة وأصحاب ابن هبيرة. فلنا قديم هذا
الامر وحديثه وأوله وآخره. ومنا قاتل مروان. ونحن قوم لنا أجسام
واجرام. وشعور وهام. ومناكب عظام. وجباه عراض وقصص غلاظ
وسواعد طوال. ونحن أولد للذكورة وأنسل بمولة وأقل ضوى وضؤولة
وأقل أيامى وأنتق ارحاماً وأشد عصبا وأتم عظاماً. وأبداننا أحمل للسلاح
وأخفافنا أملأ للعيون. ونحن أكثر مادة وأكثر عدداً وعدة ولو ان يأجوج
ومأجوج كاثروا من وراء النهر منا لظهروا عليهم بالعدد. فأما الايد وشدة

الاسر[١] فليس لاحد بعد عاد وثمود والعمالقة والكنعانيين مثل أبدنا وأسرنا . ولو أن خيول الأرض وفرسان جميع الاطراف جمعوا في حلبة واحدة لكنا أكثر في العيون وأهول في الصدور * ومتى رأيت مواكبنا وفرساننا وبنودنا التي لايحملها غيرنا علمت أننا لم نخلق الا لقلب الدول وطاعة الخلفاء وتأييد السلطان ولو أن أهل النبت ورجال الزابج وفرسان الهند وحلبة الروم هجم عليهم هاشم بن اشتاخنج لما امتنعوا من طرح السلاح والهرب في البلاد . ونحن أصحاب اللحى وأرباب النهى وأهل الحلم والحجى وأهل الثخانة في الرأي[٢] والبعد في الطيش ولسنا كجند الشام والمتعرضين للحرم والمنتهكين لكل محرم . ونحن ناس انا امانة وفينا عنه . ونحن نجمع بين النزاهة والقناعة والصبر على الخدمة والتجمير[٣] عند بعد الشقة . ولنا الطبول المهولة . والبنود العظام . ونحن أصحاب التجافيف[٤] والاجراس والبازفكند واللبود الطوال والاغماد المعقفة[٥] والشوارب المعقربة[٦] والقلانس الشاشية والخيول الشهرية والكافركوبات والطبرزينات في الأكف والخناجر في الاوساط . ولنا تعليق السيوف وحسن الجلسة على ظهور الخيل . ولنا الاصوات التي تسقط الحبالى وليس

---

(١) (الأبد) القوة (والاسر) الشد والعصب وشدة الخلق والخلق
(٢) (الثخانة في الرأي) الغلبة فيه (٣) (التجمير) الاجتماع والانضمام
(٤) (التجافيف) جمع تجفاف بالكسر آلة للحرب يلبسه الفرس والانسان ليقيه في الحرب (٥) (المعقفة) اي المعوجة قال في المصباح عقفت الشيء تعقيفاً عوجته اه
(٦) (المعقربة) أى المعوجه المعطوف بعضها على بعض

فى الارض صناعة غريبة من أدب وحكمة وحساب وهندسة وإيقاع وصنعة وفقه ورواية نظرت فيها الخراسانية الاقرعت فيها الرؤساء وبذت[1] فيها العلماء. ولنا صنعة السلاح من لبد وركاب ودرع. ولنا مما جعلناه رياضة وتمرينا وارهاصاً للحرب وتثقيفا ودربة للمجاولة والمشاولة وللكرّ بعد الفرّ مثل الدابوق[2] والنزو على الخيل صغاراً. ومثل الطبطابة[3] والصوالجة كباراً ثم رمى الجثمة والبرجاس والطائر الخطاف فنحن أحق بالاثرة وأولى بشرف المنزلة (ثم قلت) وزعم أن العربيّ يقول ان القربة تستحق بالاسباب الثابتة والارحام الشابكة وبالاعراق القديمة والطاعة للآباء والعشيرة وبالشكر النافع والمديح الكافى وبالشعر الموزون الذى يبقى بقاء الدهر ويلوح مالاح نجم وبنشد ما أهلّ بالحج وما هبت الصبا وما كان للزيت عاصر. وبالكلام المنثور والقول المأثور وبصفة مخرج الدولة والاحتجاج للدعوة وتقييد المآثر اذ لم يكن ذلك من عادة العجم ولا كان تحفظ ذلك معروفا اسوى العرب * ونحن نرتبطها بالشعر المقفى ونقيدها بحفظ الاميين الذين لايتكلون على الكتب المدونة والخطوط المطرسة. ونحن أصحاب التفاخر والتنافر والتنازع فى الشرف والتحاكم الى كل حكم مقنع وكاهن سجاع. ولنا التعاير بالمثالب. والتفاخر بالمناقب. ونحن أحفظ لانسابنا وأرعى لحقوقنا وتقييدها أيضاً بالمنثور المرسل بعد الموزون المعدل بلسان أمضى من السنان وأرهف من السيف الحسام حتى نذكرهم ماقد درس رسمه وعفا

---

(١) (وبذت) اي غلبت (٢) (الدابوق) غراء يصطاد به الطير (٣) (الطبطابة) خشبة عريضة يلعب بها بالكرة

أثره. وبين القتال من جهة الرغبة والرهبة فرق وليس المعرق فى الحفاظ
كمن هو فيه حادث وهذا باب يتقدم فيه التالدُ القديم الطارفَ الحديث.
وطلاب الطوائل رجلان سجستانىٌّ واعرابىٌّ وهل أكثر النقباء الا من
صميم العرب.ومن صليب هذا النسب.كأبي عبد الحميد قحطبة بن شبيب
الطائى وأبي محمد سليمان بن كثير الخزاعى وأبي نصر مالك بن الهيثم الخزاعى
وأبي داود خالد بن ابراهيم الذهلى .وكأبي عمرو لاهز بن طريز المزني
وأبى عيينة موسي بن كعب المراني وأبي سهل القاسم بن مجاشع المزني
ومن كان يجرى مجرى النقباء ولم يدخل فيهم مثل مالك بن الطواف المزانى
(وبعد) فمن هذا الذى باشر قتل مروان ومن هزم ابن هبيرة ومن قتل ابن
ضبارة ومن قتل نباتة بن حنظلة الاعرب الدعوة والصميم من أهل الدولة
ومن فتح السند الاموسى بن كعب ومن فتح افريقية الامحمد بن الاشعث
(وقلت) وقال وتقول الموالى لنا النصيحة الخالصة والمحبة الراسخة. ونحن
موضع الثقة عند الشدة. وعلل المولى من تحت موجبة لمحبة المولى من فوق
لان شرف مولاه راجع اليه وكرمه زائد في كرمه وخموله مسقط لقدره.
وبوده أن خصال الكرم كلها اجتمعت فيه لانه كلما كان مولاه أكبر
وأشرف وأظهر كان هو أشرف وانبل. ومولاك اسلم لك صدراً وأودُّ ضميراً
وأقل حسداً (وبعد) فقالوا لاحمة كلحمة النسب فقد صار لنا النسب الذى
يصوبه العربىُّ ولنا الاصل الذى يفتخر به العجمىُّ (قال) والصبر ضروب
فاكرمها كلها الصبر عن افشاء السر وللمولى فى هذه المكرمة ماليس
لاحد .ونحن أخص مدخلا وألطف فى الخدمة مسلكا. ولنا مع الطاعة

والخدمة والاخلاص وحسن النية خدمة الابناء للآباء والآباء للاجداد وهم بمواليهم آنس وبناحيتهم أوثق وبكفايتهم أسر * وقد كان المنصور ومحمد ابن عليّ وعليّ بن عبد الله يخصون مواليهم بالمواكلة والبسط والايناس لايبهرجون(١) الاسود لسواده ولا الدميم لدمامته ولاذا الصناعة الدنيئة لدناءتها . ويوصون بحفظهم أكابر أولادهم ويجعلون لكثير من موتاهم الصلاة على جنائزهم وذلك بحضرة من العمومة وبني الاعمام والاخوة ويتذاكرون اكرام رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد بن حارثة مولاه حين عقد له يوم موتة على جلة بني هاشم وجعله أمير كل بلدة يطؤها ويتذاكرون حبه صلى الله عليه وسلم لأسامة بن زيد وهو الْحِب بن الْحِب وعقد له على عظماء المهاجرين وأكابر الانصار . ويتذاكرون صنيعه صلى الله عليه وسلم بسائر مواليه كأبي أنسة وشقران وفلان وفلان (قالوا) ولنا صاحب الدولة أبو مسلم عبد الرحمن بن مسلم وأبو سلمة حفص بن سليمان وأبو مسلم مولى الامام وعليهما دارت رحا الدولة وتم الامر واتسق نظام الملك (قالوا) ولنا من رؤس النقباء أبو منصور مولى خزاعة وأبو الحكم عيسى بن أعين مولى خزاعة وأبو حمزة عمرو بن أعين مولى خزاعة وأبو النجم عمران بن اسماعيل مولى آل أبي معيط . فلنا مناقب الخراسانية . ولنا مناقب الموالى فى هذه الدعوة ونحن منهم واليهم ومن أنفسهم لايدفع ذلك مسلم ولا ينكره مؤمن خدمناهم كباراً وحملناهم

(١) ﴿ لايبهرجون الاسود ﴾ البهرجة أن يعدل بالشئ عن الجادة القاصدة الى غيرها والمبهرج من الدماء المهدر اه

على عواتقنا صغاراً . هـذا معحق الرضاع والخؤولة والنشوء فى الكتاب والتقلب فى تلك العراص التى لم يبلغها الا كل سـعيد الجد وجيـه فى الملوك * فقـد شاركنا العربىّ فى نخره والخراسانىّ فى مجده والبنويّ فى فضـله ثم تفردنا بمـا لم يشاركونا فيـه ولا سبقونا اليه (قالوا) ونحن أشـكل بالرعيـة وأقرب الى طباع الدهماء وهم بنا آنس والينـا أسكن والى لقائنا أحنّ ونحن بهم أرحم وعليهم أعطف وبهم أشـبه (فمن) أحق بالاثرة وأولى بحسن المنزلة ممن هذه الخصال له وهذه الخلال فيه ﴿ وقلت﴾ وذ كر ان البنويّ قال أنا أصلي خـراسان وهو مخرج الدولة ومطلع الدعوة ومنها نجم[1] هذا القرن وصبأ[2] هذا الناب وتفجر هذا الينبوع واستفاض هذا البحر حتي ضرب الحق بجرانه وطبق الآفاق بضيائه فأبرأ من السقم القديم وشفى من الداء العضال وأغنى من العيلة وبصّر من العمى . وفرعى بغداد وهى مستقر الخلافة والقرار بعد الحولة[3] وفيها بقية رجال الدعوة وابناء الشيعة وهى خراسان العراق وبيت الخلافة وموضع المادة (قال) وأنا أعرق فى هذا الامر من أبى وأكثر ترددا من جدى وأحق في هذا الفضل من المولى والعربى * ولنا بعد في أنفسنا ما لا ينكر من الصـبر تحت ظلال السيوف القصار والرماح الطوال ولنا معانقـة الابطال عند تحطم القنا وانقطاع الصفائح . ولنا المواجاة بالسكاكين[4] وتلقى

---

(١) (نجم) من باب دخل اى طلع وظهر (٢) (وصبأ) اصله خرج من دين الى دين والمراد هنا خرج ونبت ففيه تجريد عن بعض معناه (٣) (الحولة) أى التحول والتنقل (٤) (المواجأة بالسكاكين) المضاربة بها

الخناجر بالعيون . ونحن حماة المستلحم وابناء المضايق ونحن أهل الثبات
عند الجولة والمعرفة عند الخبرة وأصحاب المشهرات وزينة العسا كروحلى
الجيوش ومن يمشى في الرمح ويختال بـين الصفين ونحن أصحاب الفتـك
والاقدام . ولنا بعـدُ التسلق ونقب المدن والتقحم على ظبات السـيوف
وأطراف الرماح ورضخ الجندل وهشم العمد والصبر تحت الجراح وعلى
جر السلاح اذا طار قلب الاعرابيّ وساء ظن الخراسانيّ ثم الصبر تحت
العقوبة والاحتجاج عند المساءلة واجتماع العـقل وصحـة الطرف وثبات
القدمين وقلة التكفي بحبل العقابين والبعد من الاقـرار وقلة الخضـوع
للدهر . والخضوع عند حفوة الزوار وجفاء الاقارب والاخوان . ولنا القتال
عند أبواب الخنادق ورؤس القناطر ونحن المـوت الاحمر عند أبواب
النقب . ولنا المواجأة في الازقة والصبر على قتال السجون فسل عن ذلك
الخاليدية والكتفية والبلالية والخربية . ونحن أصحاب المكابرات وأرباب
البيات وقتل الناس جهاراً فى الاسواق والطرقات . ونحن نجمع بين السلة
والمزاحفة ونحن أصحاب القنا الطـوال ما كنا رجالة والمطارد القصار
ما كنا فـرسانا فان صرنا كُمُناً فالحتف القاضي والسم الزعاف وان كنا
طلائع فكانا يقوم مقام أمير الجيش . نقاتل بالليل كما نقاتل بالنهار ونقاتل
فى الماء كما نقاتل على الارض ونقاتل فى القرية كما نقاتل في المحلة . ونحن
أفتك واخشب ونحن أقطع للطريق واذكر في الثغور مع حسن القدود
وجودة الخرط ومقادير اللاحى وحسن العمة والنفس المرة . وأصحاب الباطل
والفتوة ثم الخط والكتابة والفقه والرواية . ولنا بغـداد بأسرها تسكن

ما سكنا . وتحرك ما تحركنا . والدنيا كلها معلقة بها . وصائرة الى معناها فاذا كان هذا أمرها وقدرها . فجميع الدنيا تبع لها . وكذلك أهلها لاهلها . وفتا كها لفتاكها . وخلاعها لخلاّعها . ورؤساؤها لرؤسائها وصلحاؤها لصلحائها . ونحن بعدُ تربيةُ الخلفاء . وجيران الوزراء . وُلدنا في أفنية ملوكنا . وتحت أجنحة خافاتنا . فأخذنا بآدابهم . واحتذينا على مثالهم . فلسنا نعرف سواهم . ولا نُعرَف بغيرهم . ولم يطمع فينا أحد قط من خطاب ملكهم . وممن يترشح للاعتراض عليهم . فمن أحق بالأثرة وأولى بالقرب في المنزلة ممن هذه الخصال فيه وهذه الخلال له *

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ إن ذهبنا حفظك الله بعقب هذه الاحتجاجات . وعند منقطع هذه الاستدلالات . نستعمل المفاوضة بمناقب الاتراك والموازنة بين خصالهم وخصال كل صنف من هذه الأصناف . سلكنا في هذا الكتاب سبيل أصحاب الخصومات في كتبهم . وطريق أصحاب الاهواء في الاختلاف الذي بينهم . وكتابنا هذا انما تكلفناه لنؤلف بين قلوبهم ان كانت مختلفة . ولنزيد في الألفة ان كانت مؤتلفة . ولنخبر عن اتفاق أسبابهم لتجتمع كلمتهم . ولتسلم صدورهم . وليعرف من كان لا يعرف منهم موضع التفاوت في النسب . وكم مقدار الخلاف في الحسب . فلا يغير بعضهم مغير . ولا يفسده عدوّ بأباطيل مموهة . وشبهات مزوّرة . فان المنافق العليم . والعدوّ ذا الكيد العظيم . قد يصوّر لمن دونه الباطل في صورة الحق ويلبس الاضاعة ثياب الحزم الا أنا على كل حال سنذكر جملا من أحاديث رويناها

ووعيناها . وأمـور رأيناها وشاهـدناها . وقصص تلقفناها من أفواه الرجال وسمعناها . وسنذكر ما حفظ لجميع الاصناف من الآلات والأدوات . ثم ننظر أيهم لها أشد استعمالا . وبها أشد استقلالا . ومن أثقب كيساً وأفتح عينا وأذكى يقينا وأبعد غوراً وأجمع أمراً وأعم خواطر وأكثر غرائب وأبدع طريقا وأدوم نفعاً فى الحروب وأضرى وأدرب دربة وأغمض مكيدة وأشد احتراساً وألطف احتيالا حتى يكون الخيار في يد الناظر فى هذا الكتاب المتصفح لمعانيه المقلب لوجوهه والمفكر فى أبوابه المقابل بين أوله وآخره . ولا نكون نحن انتحلنا شيئاً دون شيء وتقلدنا تفضيل بعض على بعض . بل لعلنا أن لا نخبر عن خاصة ما عندنا بحرف واحد * فاذا دبرنا كتابنا هذا التدبير وكان موضوعه على هذه الصفة كان أبعد له من مذاهب الجدال والمراء واستعمال الهوى (وقد) ظن ناس أن أسماء أصناف الاجناد لما اختلفت فى الصورة والخط والهجاء كانت حقائقها ومعانيها على حسب ذلك . وليس الأمر على ما يتوهمون ألا ترى أن اسم الشاكرية وان خالف في الصورة والخط والهجاء اسم الجند فان المعنى فيهما ليس ببعيد لأنهم يرجعون الى معنى واحد وعمل واحد والذى اليه يرجعون طاعة الخلفاء وتأييد السلطان . واذا كان المولى منقولا الى العرب في أكثر المعانى ومجعولا منهم في عامة الاسباب لم يكن ذلك بأعجب من جعل الخال والداً والحليف من الصميم . وابن الاخت من القوم وقد جعل ابن الملاعنة المولود على فراش البعل منسوبا الى أمه . وقد جعل اسماعيل صلوات الله وسلامه عليه وهو ابن عجميين عربياً لأن الله تعالى

فتق لهاته[1] بالعربية المبينة على غير التلقين والترتيب . ثم فطره على الفصاحة العجيبة على غير النشوء والتمرين وسلخ طباعه من طبائع العجم ونقل الى بدنه تلك الاجزاء وركبه اختراعا على ذلك التركيب وسوّاه تلك التسوية وصاغه تلك الصيغة . ثم حباه من طبائعهم . ومنحه من أخلاقهم وشمائلهم وطبعه من كرمهم وأنفتهم وهممهم على اكرمها وأسناها . وأشرفها وأعلاها . وجعل ذلك برهانا على رسالته ودليلا على نبوته . فكان أحق بذلك النسب . وأولى بشرف ذلك الحسب . وكما جعل ابراهيم صلى الله عليه وسلم أبا لمن لم يلده . فالبنوى خراسانيّ من جهة الولادة والمولى عربيّ من جهة المدعى والعاقلة ولو أحاط علمنا بأن زيداً لم يخلق من نجل عمرو الا عهاراً لنفيناه عنه وان أيقنا أنه لم يخلق الا من ماء صلبه * وكما جعل النبي صلى الله عليه وسلم أزواجه أمهات المؤمنين وهن لم يلدنهم ولا أرضعنهم وفي بعض القراآت وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم على قوله ملة أبيكم ابراهيم وجعل المرأة من جهة الرضاع أما . وجعل امرأة البعل أم ولد البعل من غيرها . وجعل الرّابّ والدا . وجعل العمّ أبا في كتاب الله وهم عباده لا يتقلبون الا فيما قلبهم فيه وله سبحانه وتعالى أن يجعل من عباده من شاء عربيا ومن شاء عجميا . ومن شاء قرشياً ومن شاء زنجيا . كما له جل وعلا أن يجعل من شاء ذكراً ومن شاء أنثى ومن شاء خنثى ومن شاء أفرده من ذلك فجعله لا ذكراً ولا أنثى ولا خنثى وكذلك خلق الملائكة وهم أكرم على الله تعالى

---

(١) (اللهاة) اللحمة المشرفة على الحلق او ما بين منقطع اصل اللسان الى منقطع القلب من اعلى الفم اه

من جميع الخليقة وخلق آدم عليه الصلاة والسلام فلم يجعل له أبا ولا أما وخلقه من طين ونسبه اليه وخلق حوّاء من ضلع آدم وجعلها له زوجا وسكنا وخلق عيسى صلى الله عليه وسلم من غير ذكر ونسبه الى أمه التى خلقه منها وخلق الجان من نار السموم وآدم من طين وعيسى من غير نطفة وخلق السماء من دخان والارض من الماء وخلق اسحق من عاقر وأنطق عيسى في المهد وأنطق يحيي بالحكمة وهو صغير وعلم سليمان منطق الطير وكلام النمل . وعلم الحفظة من الملائكة جميع الألسنة حتى كتبوا بكل خط ونطقوا بكل لسان . وأنطق ذئب اهبان بن أوس * والمؤمنون من جميع الأمم اذا دخلوا الجنة وكذلك أطفالهم والمجانين يتكلمون ساعة يدخلون الجنة بلسان أهل الجنة على غير الترتيب والتنزيل والتعليم على طول الأيام والتلقين . فكيف يتعجب الجاهلون من انطاق اسماعيل بالعربية على غير تعليم الآباء وتأديب الحواضن . وهذه المسألة ربما سأل عنها بعض القحطانية ممن لا علم له بعض العدنانية وهى على القحطاني أشد . فأما جواب العدناني فسلس النظام سهل المخرج قريب المعنى لأن بني قحطان لا يدعون لقحطان نبوّة فيعطيه الله مثل هذه الأعجوبة * وما الذى قسم الله عز اسمه بين الناس من ذلك الا كما صنع فى طينة الارض فجعل بعضها حجراً وبعض الحجر ياقوتا وبعضه ذهباً وبعضه نحاساً وبعضه رصاصاً وبعضه صفراً وبعضه حديداً وبعضه ترابا وبعضه فخاراً وكذلك الزاج والمغرة والزرنيخ والمرتك والكبريت والقار والتوتياء والنوشادر والمرقشيثا والمغناطيس

ومن يحصى عدد جواهر الأرض وأصناف الفلز[1] واذا كان الامر على ما وصفنا فالبنويّ خراسانيّ واذا كان الخراسانيّ مولى والمولى عربيّ فقد صار الخراسانيّ والبنويّ والمولى والعربيّ شيئاً واحداً وأدنى ذلك أن يكون الذي معهم من خصال الوفاق غامراً لما معهم من خصال الخلاف بل هم فى معظم الأمر وفى كبر الشأن وعمود النسب متفقون فالأتراك خراسانية وموالى الخلفاء قصرة فقد صار فضل التركيّ الى الجميع راجعا وصار شرفه الى شرفهم زائداً . واذا عرف سائر الاجناد ذلك سامحت النفوس وذهب التمقيد ومات الضغن وانقطع سبب الاستثقال فلم يبق الا التحاسد والتنافس الذي لا يزال يكون بين المتقاربين فى القرابة وفي الصناعة وفي المجاورة . على أن التوازر والتسالم في القرابات وفى بني الأعمام والعشائر أفشي وأعم من التخاذل والتعادي . ولحب التناصر والحاجة الى التعاون انضم بعض القبائل في البوادي الى بعض ينزلون معاً ويظعنون معا ومن فارق اصحابه أقل ومن نصر ابن عمه أكثر ومن اغتبط بنعمته وتمني بقاءها والزيادة فيها أكثر ممن بغاها الغوائل[2] وطلب انقطاعها وزوالها . ولا بدّ فى اضعاف ذلك من بعض التنافس والتخاذل الا أن ذلك قليل من كثير وليس يكون أن تصفو الدنيا وتنقّى من الفساد والمكروه حتى يموت جميع

---

(١) (الفلز) بكسر الفاء واللام وشد الراي وبكسر الفاء وفتح اللام وشد الزاى وكعتل نحاس أبيض تجعل منه القدور المفرغة وخبث الحديد أو الحجارة أو حجارة الارض كلها اه قاموس (٢) (بغاها الغوائل) يقال أبغاه الشيء طلبه له كبغاه اياه كرماه والغوائل الدواهي

الخلاف وتستوي لأهلها وتمهد لسكانها على ما يشتهون ويهوون لأن ذلك من صفة دار الجزاء وليس كذلك صفة دار العمل ٠

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

هذا كتاب كتبته أيام المعتصم بالله رضي الله تعالى عنه ونضر وجهه فلم يصل اليه لأسباب يطول شرحها فلذلك لم أعرض للاخبار عنها وأحببت أن يكون كتابا قصداً ومذهباً عدلاً ولا يكون كتاب اسراف فى مديح قوم واغراق في هجاء آخرين فان الكتاب اذا كان كذلك شانه الكذب وخالطه التزيد[1] وبنى أساسه على التكلف وخرج كلامه مخرج الاستكراه والتعليق ٠ وأنفع المدائح للمادح وأجداها على الممدوح وأبقاها أثراً وأحسنها ذكراً أن يكون المديح صدقا ولظاهر حال الممدوح موافقا وبه لائقا حتى لا يكون من المعبر عنه والواصف له الا الاشارة اليه والتنبيه عليه * وأنا أقول ان كان لا يمكن ذكر مناقب الاتراك الا بذكر مثالب سائر الاجناد فترك ذكر الجميع أصوب ٠ والاضراب عن هذا الكتاب أحزم ٠ وذكر الكثير من هذه الاصناف بالجميل لا يقوم بالقليل من ذكر بعضهم بالقبيح لان ذكر الاكثر بالجميل نافلة وباب من التطوع وذكر الأقل بالقبيح معصية وباب من ترك الواجب وقليل الفريضة أجدى علينا من كثير التطوع ولكل الناس نصيب من النقص ومقدار من الذنوب وانما تتفاضل بكثرة المحاسن وقلة المساوي ٠ فأما الاشتمال علي جميع المحاسن والسلامة من جميع المساوى دقيقها وجليلها وظاهرها وخفيها فهذا لا يعرف (وقد قال النابغة)

---

(١) (التزيد) قال في القاموس والتزيد الغلاء والكذب وتكلف الزيادة في الكلام اه

ولستَ بمستبق أخا لا تلمه * على شعث أيُّ الرجال المهذب

(وقال حريش السعدى)

أخ لي كأيام الحياة إخاؤه * تلوّن ألوانا علىّ خطوبها

اذا عبت منه خلة فتركته * دعتني اليه خلة لا أعيبها

(وقال بشار)

اذا كنت في كل الأمور معاتبا * خليلك لم تلق الذى لا تعاتبه

فعش واحداً أوصل أخاك فانه * مقارف ذنب مرة ومجانبه

إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى * ظمئت وأىُّ الناس تصفو مشاربه

(وقال مطيع بن إياس الليثى)

ولئن كنت لا تصاحب الا * صاحبا لا يزِل ما عاش نعله

[1] لم تجده ولو جهدت وأين * بالذى لا يكون يوجد مثله

إنما صاحبي الذى يغفر الذنـــب ويكفيه من أخيه أقله

(وقال محمد بن سعيد وهو رجل من الجند)

سأشكر عمراً إن تراخت منيتى * أيادي لم تمنن وإن هي جلت

فتى غير محجوب الغنى عن صديقه * ولا مظهر الشكوى اذا النعل زلت

رأى خلتي من حيث يخفى مكانها * فكانت قذي عينيه حتى تجلت

---

(١) (قوله لم تجده البيت) كذا بالاصل وهو غير مستقيم وزنا مع مافيه من زيادة الباء في الاثبات ولعل الرواية هكذا

لم تجده ولو جهدت ومن أيـ * ـن الذي لا يكون يوجد مثله

وحرر اه مصححه

فاذا كان الخلطاء من جمهور الناس وأصحاب المقايس من دهماء الجماعة يرون ذلك واجباً فى الأخلاق ومصلحة في المعاش وتدبيراً في التعامل على ماهم فيه من مشاركة الخطأ للصواب وامتزاج الضعف بالقوة فلسنا نشك أن الامام الاكبر والرئيس الأعظم مع الأعراق الكريمة والأخلاق الرفيعة والتمام في الحلم والعلم . والكمال فى الحزم والعزم . ومع التمكين والقدرة والفضيلة والرياسة والسيادة . والخصائص التي معه من التوفيق والعصمة والتأييد وحسن المعونة . لم يكن الله جل اسمه ليجلله باسم الخلافة ويحبوه بتاج الامامة وبأعظم نعمة وأسبغها وأفضل كرامة وأسناها ثم وصل طاعته بطاعته ومعصيته بمعصيته الا ومعه من الحلم فى موضع الحلم والعفو فى موضع العفو والتغافل فى موضع التغافل ما لا يبلغه فضل ذى فضل ولا حلم ذى حلم * ونحن قائلون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم فيما انتهى الينا من أمر الأتراك

﴿زعم﴾ محمد بن الجهم وثمامة بن أشرس والقاسم بن سيار في جماعة ممن يغشى دار الخلافة وهى دار العامة (قالوا) جميعا بينا حميد بن عبد الحميد جالس ومعه يخشاد الصغدي وابو شجاع شبيب بن بخارخداى البلخي ويحي ابن معاذ ورجال من المعدودين المتقدمين في العلم بالحرب من أصحاب التجارب والمراس وطول المعالجة والمعاناة بصناعة الحرب اذخرج رسول المأمون فقال لهم يقول لكم أمير المؤمنين متفرقين ومجتمعين ليكتب كل رجل منكم دعواه وحجته وليقل أيما أحب الى كل قائد منكم اذا كان في عدته من صحبه وثقاته أن يلقى مائة تركي أومائة خارجي . فقال القوم جميعاً

نلقى مائة تركي أحب الينا من أن نلقى مائة خارجيٍّ وحميد ساكت
(فلما) فرغ القوم من حججهم قال الرسول لحميد قد قالَ القوم فقل واكتب
قولكِ وليكن حجة لك أو عليك (قال) بل ألقى مائة خارجيٍ أحبُّ الىَّ لأني
وجدت الخصال التي فضل بها الخارجي جميع المقاتلة غير تامة فى الخارجي
ووجدتها تامة في التركي • ففضل التركيِ على الخارجيّ بقدر فضل الخارجي
على سائر المقاتلة • ثم بان التركىُّ عن الخارجي بأمور ليس فيها للخارجي
دعوى ولا متعلق • على أن هذه الأمور التى بان بها التركىُّ من الخارجىِّ
أعظم خطراً وأكثر نفعا مما شاركه الخارجيُّ في بعضها (ثم قال) حميد
والخصال التي يصول بها الخارجىُّ على سائر الناس * صدق الشدة عند أول
وهلة وهي الدفعة التى يبلغون بها ما أرادوا وينالون الذي أملوا * والثانية
الصبر على الخبب وعلى طول السرى حتي يصبح القوم الذين مرقوا بهم
غارّين[1] فيهجموا عليهم وهم بسوء[2] ولحم على وضم[3] فيعجلوا بهم عن الروية
وعن رد النفس بعد النزوة والجولة[4] لا يظنون ان أحداً يقطع فى ذلك
المقدار من الزمان ذلك المقدار من البلاد * والثالثة أن الخارجي موصوف
عند الناس بأنه ان طاب أدرك وإن طُلب فات * والرابعة خفة الازواد
وقلة الأمتعة وأنها تجنب الخيل وتركب البغال وان احتاجت أمست بأرض

---

(١) (غارين) بتشديد الراء أي غافلين (٢) (وهم بسوء) أى بهزيمة وشر (٣) (ولحم على وضم) لوضم محركة ماوقيت به اللحم عن الارض من خشب وحصير ونحوها ويقال تركهم لحماً على وضم اذا أوقعهم فذللهم وأوجعهم (٤) (النزوة والجولة) النزوة الوثب والجولة جولان بعض القوم في الحرب على بعض

وأصبحت بأخرى وأنهم قوم حين خرجوا لم يخلفوا الاموال الكثيرة والجنان الملتفة والدور المشيدة ولا ضياعا ولا مستغلات ولا جوارى مطهمات[1] ولا سلب لهم ولا مال معهم فيرغب الجند فى لقائهم وانما هم كالطير لا تدخر ولا تهتم لغد. ولها في كل أرض من المياه والاقوات ماتتبلغ به . وان لم تجد ذلك فى بعض البلاد فأجنحتها تقرّب لها البعيد وتسهل لها الحزون * وكذلك الخوارج لا يمتنع عليهم القرى والمطعم وان يمتنع عليهم ففى بنات أعوج[2] وبنات شحاج[3] وبنات صهال[4] وخفة الاثقال والقوة على طول الخبب ما يسهل اقواتها ويكثر من أرزاقها * والخامسة ان الملوك ان أرسلوا اليهم أعدادهم ليكونوا في أوزارهم وأثقالهم وليقووا على التنقل كقوتهم لم يقووا عليهم لان مائة من الجند لا يقومون لمائة من الخوارج. وان كثفوا الجيش بالجيش[5] وضاعفوا العدد بالعدد ثقلوا عن طلبهم وعن الفوت ان طلبهم عدوهم. ومتى شاء الخارجي أن يقرب منهم ليتطرفهم أو ليصيب الغرة منهم أو ليسلبهم فعل. ثقة بانه يغنم عند الفرصة ورؤية العورة ويمكنه الهرب عند الخوف وان شاء كبسهم ليقطع نظامهم أو ليقتطع القطعة منهم (قال حميد) فهذه هى مفاخرهم وخصالهم التى لها كره القواد لقاءهم (قال قاسم بن سيار) وخصلة أخرى وهى التى رعبت القلوب وخلعتها. ونقضت العزائم وفسختها

---

(١) (مطهمات) المطهم كمعظم السمين الفاحش السمن والنحيف الجسم الدقيقة ضد والتام من كل شيء (٢) (بنات اعوج) الاعوج اسم لجملة افراس (٣) (وبنات شحاج) وزان كتان هي البغال (٤) (وبنات صهال) هي الخيل (٥) (كثفوا الجيش بالجيش) يقال كثفه تكثيفا جعله كثيفاً أي كثروه به

وهو ماتسمع الاجناد ومقاتلة العوام من ضرب المثل بالخوارج كقول الشاعر

اذا ما البخيل والحاذر للقرى * رأى الضيف مثل الازرقىّ المجفف

وكقول الآخر

وقلب ودٍّ حال عن عهده * والسيف ينبو بيد الشاري

وكقول الآخر

لقاء الأُسد أهون من لقاه * اذا التحكيم يسهر بالأصيل

فهذه زيادة قاسم بن سيار (فأما حميد) فانه قال الشدة الأولى التركى فيها أحمد أثرا. وأجمع أمرا. وأحكم شأنا. لأن التركى من أجل أن تصدق شدته وتمكن عزمه ولا يكون مشترك العزم ولا متقسم الخواطر. قد عود برذونه أن لا ينثني وان ثناه أن يملأ فروجه (١) للأمر يديره مرة أو مرتين والا فانه لا يدع سننه ولا يقطع ركضه. وانما أراد التركى أن يؤيس نفسه من البدوات ومن ان يعتريه التكذيب بعد الاعتزام لهول اللقاء وحب الحياة لانه اذا علم أنه قد صير برذونه الى هذه الغاية حتى لا ينثني ولا يجيبه الى التصرف معه الا بأن يصنع شيئاً بين الصفين فيه عطبه لم يقدم على الشدة إلا بعد إحكام الامر والبصر بالعورة. وانما يريد أن يشبه نفسه بالمُحْرَج الذى اذا آثر القتال لم يدع جهداً ولم يدخر حيلة ولينفي عن قلبه خواطر الفرار ودواعي الرجوع (وقال) الخارجى عند الشدة انما يعتمد على الطعان والاتراك تطعن طعن الخوارج وان شد منهم ألف فارس فرموا رشقاً

---

(١) (أن يملأ فروجه) الفروج مابين القوائم يقال للفرس ملأ فرجه وفروجه اذا عدا وأسرع به أي ملأ قوائمه عدوا كأن العدو سد فروجه وملأها

واحداً صرعوا الف فارس فما بقي جيش على هـذا النوع من الشدة .
والخوارج والاعراب ليست لهم رماية مذكورة على ظهور الخيل والتركى
يرمي الوحش والطير والبرجاس والناس والمجثمة والمثل الموضوعة والطير
الخاطف ويرمى وقد ملأ فروج دابته مدبراً ومقبلاً ويمنة ويسرة وصعداً
وسفلاً ويرمى بعشرة أسهم قبل أن يفوّق الخارجي سهما واحداً ويركض
دابته منحدراً من جبل أو متسفلا الى بطن واد بأكثر مما يمكن الخارجيّ
على بسيط الارض . وللتركي أربعة أعين عينان في وجهه وعينان فى قفاه .
وللخارجي عيب في مستدبر الحرب وللخراساني عيب في مستقبل الحرب
فعيب الخراسانية أن لها جولة عند أول الالتقاء وان ركبوا كساءهم [١] كانت
هزيمتهم وكثيراً ما يثوبون وذلك بعد الخطار [٢] بالعسكر واطماع العدو في
الشدة . والخوارج اذا ولوا فقد ولوا وليس لهم بعد الفرّ كرّ الاّ مالا يعدّ .
والتركيُّ ليست له جولة الخرساني واذا أدبر فهو السم الناقع والحتف القاضي
لانه يصيب بسهمه وهو مدبر كما يصيب به وهو مقبل ولا يؤمن وهقه [٣]
ولا انتساف الفرس [٤] واختطاف الفارس بتلك الركضة ولم يفات من الوهق
في جميع الدهر الا المهلب بن أبي صفرة والحريش بن هلال وعباد بن
الحصين وربما رمي بالوهق وله فيه تدبير آخر وان لم يجنب المرمى معه يوهم

---

(١) (وان ركبوا كسأهم) قال فى القاموس وكسء كل شيء وكسوءه بضمهما مؤخره جمعه اكساء وركب كسأه وقع على قفاه اهـ (٢) (الخطار) بكسر أوله جمع خطر وهو الاشراف على الهلاك والسبق يتراهن عليه اهـ (٣) (وهقه) الوهق محركة ويسكن الحبل يرمي في أنشوطة أي عقدة يسهل انحلالها تؤخذ به الدابة والانسان
(٤) (انتساف الفرس) الانتساف الاقتلاع

الجاهل ان ذلك انما كان لخرق التركي أو لحذق المرميّ (قال) وهم علموا الفرسان حمل قوسين وثلاثة قسيٍّ ومن الاوتار على حسب ذلك (قال) والتركي في حال شدته معه كل شيء يحتاج اليه لنفسه وسلاحه ودابته واداة دابته . فأما الصبر على الخبب وعلى مواصلة السفر وعلى طول السرى وقطع البلاد فعجيب جداً . فواحدة ان فرس الخارجي لا يصبر صبر برذون التركي والخارجي لا يحسن أن يعالج فرسه الا معالجة الفرسان لخيولهم والتركيّ أحذق من البيطار وأجود تقويما لبرذونه على مايريده من الراضة[١] وهو استنتجه وهو رباه فلواً وتتبعه ان سماه وان ركض ركض خلفه وقد عوّده ذلك حتى عرفه كما يعرف الفرس اجدم . والناقة حل والجمل جاه والبغل عدَس . والحمار ساسا[٢] وكما يعرف المجنون لقبه والصبي اسمه ولو حصلت مدّة عمر التركي وحسبت أيامه لوجدت جلوسه على ظهر دابته أكثر من جلوسه على ظهر الارض . والتركي يركب فحلا أو رمكة ويخرج غازيا أو مسافراً أو متباعداً في طلب صيد أو سبب من الاسباب فتتبعه الرمكة وأفلاؤها ان أعياه اصطياد الناس اصطاد الوحش وان أخفق منها واحتاج الى طعام فصد دابة من دوابه وان عطش حلب رمكة من رماكه وان أراح واحدة ركب أخرى من غير أن ينزل الى الارض وليس في الارض أحد الاّ وبدنه ينتقض على اقتيات اللحم وحده غيره وكذلك دابته تكتفي بالعنقر والعشب والشجر لا يظلها من شمس ولا يكنها من برد

---

(٣) (من الراضة) متعلق بأجود والراضة جمع رائض وهو من يروض الخيل ويذللها (٤) (أجدم) اسم صوت تزجر به الفرس وكذا مابعده كلها أسماء أصوات للزجر

(قال) وأما الصبر على الخبب فان الثغريين والفرانقيين والخصيان والخوارج لو اجتمعت قواهم في شخص واحد لما وفوا بتركى واحد والتركي لا يبقى معه على طول الغاية الا الصميم من دوابه . والذي يقتله التركي باتعابه له وينفيه عند غزاته هو الذي لا يصبر معه فرس الخارجي ولا يبقى معه كل برذون تخاري [1] ولو ساير خارجيا لاستفرغ جهده قبل أن يقلع الخارجي عفوه . والتركى هو الراعي وهو السائس وهو الرائض وهو النخاس وهو البيطار وهو الفارس فالتركي الواحد أمة على حدة (قال) واذا سار التركى فى غير عساكر الترك فسار القوم عشرة أميال سار التركي عشرين ميلا لانه ينقطع عن العسكر يمنة ويسرة ويصعد فى ذُرى الجبال ويستبطن قعور الاودية في طلب الصيد وهو في ذلك يرمي كل ما دبّ ودرج وطار ووقع (قال) والتركى لم يسر فى العسكر سير الناس قط ولا سار مستقيما قط (قال) واذا طالت الدلجة واشتد السير وبعد المنزل وانتصف النهار واشتد التعب وشغل الناس الكلالُ وصمت المتسايرون فلم ينطقوا وقطعهم ماهم فيه عن التشاغل بالحديث وتفسخ كل شئ من شدة الحر وجمد كل شئ من شدة البرد وتمنى كل جليد القوى علي طول السرى أن تطوى له الارض وكلما رأى خيالا أو علما استبشر به وظن انه قد بلغ المنزل فاذا بلغه الفارس نزل وهو متفحج [2] كأنه صبي محقون يئن انين المريض ويستريح الى التثاؤب ويتداوى مما به بالتمطي والتضجع . وترى التركى فى تلك الحال وقد سار ضعف ماساروا وقد أتعب منكبيه كثرة النزع يري قرب المنزل عيراً أو ظبيا أو عرض له

(١) (تخاري) بضم أوله نسبة الى تخارستان (٢) (متفحج) أى فاتح مابين رجليه

ثعلب أو أرنب فركض ركض مبتدئ مستأنف حتى كأن الذى سار ذلك
السير وتعب ذلك التعب غيره وان بلغ الناس واديا فازدحموا على مسلكه أو
على قنطرته بطن برذونه فأقحمه ثم طلع من الجانب الآخر كانه كوكب . وان
انتهوا الى عقبة صعبة ترك السنن وذهب فى الجبل صعداً ثم تدلى من موضع
يعجز عنه الوعل وأنت تحسبه مخاطراً بنفسه للذى ترى من مطلعه ولو كان
فى كل ذلك مخاطراً لما دامت له السلامة مع تتابع ذلك منه (قال) ويفخر
الخارجى بأنه اذا طلب أدرك واذا طلب لم يدرك والتركى ليس يحوج الى
أن يفوت لأنه لا يطلب ولا يرام ومن يروم ما لا يطمع فيه . فهذا على أنا
قد علمنا ان العلة التى عمت الخوارج بالنجدة استواء حالاتهم فى الديانة
واعتقادهم بأن القتال دين لانا حين وجدنا السجستانى والجزري واليماني
والمغربى والعماني والازرق منهم والندي والاباضى والصفرى والمولى والعربي
والعجمى والاعرابي والعبيد والنساء والحائك والفلاح كلهم يقاتل مع
اختلاف الانساب وتباين البلدان . علمنا ان الديانة هى التي سوت بينهم
ووفقت بينهم فى ذلك كما أن كل حجام في الارض من أي جنس كان ومن
أى بلد كان فهو يحب النبيذ وكما أن أصحاب الخلقان والسماكين والنخاسين
والحاكة في كل بلد ومن كل جنس شرار خلق الله في المبايعة والمعاملة فعلمنا
بذلك ان ذلك خلقة في هذه الصناعات . وبنية فى هذه التجارات . حتى صاروا
من بين جميع الناس كذلك (قال) ورأينا التركي في بلاده ليس يقاتل على
دين ولا على تأويل ولا على ملك ولا على خراج ولا على عصبية ولا على
غيرة دون الحرمة ولا على حمية ولا على عداوة ولا على وطن ومنع دار ولا

مال وانما يقاتل على السلب والخيار فى يده وليس يخاف الوعيد ان هرب ولا يرجو الوعد ان أبلى عذرا . وكذلك هم فى بلادهم وغاراتهم وحروبهم وهو الطالب غير المطلوب ومن كان كذلك فانما يأخذ العفو من قوّته ولا يحتاج الى مجهوده ثم هو مع ذلك لا يقوم له شيء ولا يطمع فيه أحد فما ظنك بمن هذه صفته أن لو اضطّره احراج أو غيرة أو غضب أو تدين أو عرض له بعض ما يصحب المقاتل المحامى من العلل والاسباب (قال) وقناة الخارجي طويلة صماء وقناة التركي مِطرَد أجوف والقني المجوفة القصار أشدّ طعنة وأخفّ فى المحمل . والعجم تجعل القني الطوال للرجالة وهى قني الابناء على أبواب الخنادق والمضايق . والابناء فى هذا الباب لا يجرون مع الاتراك والخراسانية لان الغالب على الابناء المطاعنة على ابواب الخنادق وفي المضايق وهؤلاء أصحاب الخيل والفرسان وعلى الخيل والفرسان تدور الجيوش لهم الكرّ والفرّ . والفارس هو الذي يطوي الجيش طيّ السجل ويفرقهم تفريق الشعر وليس يكون الكمين ولا الطليعة ولا الساقة الا الكبار منهم وهم أصحاب الايام المذكورة والحروب الكبار والفتوح العظام ولا تكون المقانب والكتائب الا منهم ومنهم من يحمل البنود والرايات والطبول والتجافيف والاجراس وهم أصحاب الصهيل والقتام وزجر الخيل وقعقعة الريح في الثياب والسلاح ووقع الحوافر والادراك اذا طلبوا والفوت اذا طلبوا ولم يجعل النبي صلى الله عليه وسلم للفارس سهمين وللراجل من المقاتلة سهما واحدا الا لتضاعيف الرد في القتل والفتوح والنهبة والمغانم (قال) ولعمري ان للابناء من القتال في السكك والسجون

والمضايق ما ليس لغيرهم ولكن الرّجالة أبداً أتباع ومأمورون ومنقادون وقائد الرّجالة لا يكون الا فارسا وقائد الفرسان من الممتنع أن يكون راجلا ومن تعود الطعان والضرب والرمي راكبا ان اضطر الى الطعن والضرب والرمي راجلا كان على ذلك أدفع عن نفسه وأردّ عن أصحابه من الراجل اذا احتاج أن يستعمل سلاحه فارسا وعلى انه ما اكثر ماينزلون ويقاتلون

(وقد قال الشاعر)

لم تطيقوا أن تنزلوا ونزلنا * وأخو الحرب من أطاق النزولا

(وقال الضبي) وعلامَ أركبه اذا لم أنزل (وقال آخر) فمعانق ومنازل

(وقال حميد) وليس فى الارض قوم الا والتساند فى الحروب والاشتراك فى الرئاسة ضارٌّ لهم الا الاتراك . على أن الاتراك لا يتساندون ولا يتشاركون وذلك أن الذى يكره من المساندة والمشاركة اختلاف الرأي والتنافس فى السر والتحاسد بين الاشكال والتواكل فيما بين المشتركين . والاتراك اذا صافُّوا جيشاً فان كان فى القوم موضع عورة فكلهم قد أبصرها وعرفها وان لم يكن هناك عورة ولم يكن فيهم مطمع وكان الرأي الانصراف فكلهم قد رأى ذلك الرأي وعرف الصواب فيه وخواطرهم واحدة ودواعيهم مستوية باقبالهم معاً وليس هم أصحاب تأويلات ولا أصحاب تفاخر وتناشد وانما شأنهم إحكام أمرهم فالاختلاف يقل بينهم . وكانت الفرس تعيب العرب اذا خرجوا الى الحرب متساندين وكانت تقول الاشتراك فى الحرب وفى الزوجة وفى الامرة سواء (قال حميد) فما ظنك بقوم اذا تساندوا لم يضرهم التساند فكيف يكونون اذا تحاسدوا . فلما انتهى الى المأمون قال

ليست بالترك حاجة الى حكم حاكم بعد حميد فان حميداً قد مارس الفريقين وحميد خراسانيٌ وحميد عربيٌ فليس للتهمة عليه طريق (قالوا) وأتى الخبر ذا اليمينين طاهر بن الحسين فقال ما أحسن ما قال حميد أما انه لم يقصر ولم يفرط فهذا قول الخليفة المأمون وحكم حميد وتصويب طاهر ﴿وأخبرني﴾ رجل من أهل خراسان أو من بني سدوس قال سمعت أبا البطّ يقول ويلكم كيف أصنع بفارس يملأ فروج دابته منحدراً من جبل أو مصعداً في مقطع عفير ويمكنه على ظهر الفرس ما لا يمكن الرقاص الأُبُلّيّ على ظهر الارض (قال) وقال سعيد بن عقبة بن سلم الهنائي وكان ذا رأي في الحرب وابن ذي رأي فيها فرق ما بيننا وبين الترك أن الترك لم تغزُ قوما قط ولا صافت جيشاً ولا هجمت على عدوّ كانوا عربا أو عجما فأخرجوا اليهم أعدادهم ولقوهم بمثلهم وليس غايتهم الا أن ينقادوا ليكفوا عنهم بأسهم ومعرّتهم ويصرفوا عنهم كيدهم فان هم امتنعوا من الصلح واعتزموا على الحرب فليس شأنهم والذي يدور عليه أمرهم الا منع أنفسهم وتحصين عسكرهم والاحتراس منهم فأما أن ترقى هممهم أو تسمو أنفسهم الى الاحتيال عليهم والتماس غرتهم فان هذا شيء لا يخطر على بال من يحاربهم (ثم قال) وقد عرفتم حيلهم في دخول المدن من جهة حيطانها المصمتة وحيلتهم في عبور نهر بلخ. وسعيد هذا هو الذي قال اذا حاربتم وكنتم ثلاثة فاجعلوا واحداً مددا وآخر كميناً وله كلام في الحرب غير هذا كثير (قال سعيد) وأخبرني أبي قال شهدت أبا الخطاب يزيد بن قتادة بن دعامة الفقيه وذكر قول عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه في الترك حيث قال عدوّ شديد طلبه قليل سلبه

فقال رجل من العالية نهى عمر أبا زبيد الطائي عن وصف الاسد لان ذاك مما يزيد في رعب الجبان وفى هول الجنان ويقل من رغب الشجاع وقد وصف الترك بأشدّ من وصف أبي زبيد الاسدَ (وقال سعيد) فى حديثه يومئذ وقد قطعت شرذمة منهم بلاد أبي خزيمة . يريد حمزة بن أدرك الخارجيّ . وما والى خراسان في بعض الامر وحمزة في معظم الناس فقال لاصحابه افرجوا لهم ما تركوكم ولا تعرّضوا لهم فانه قد قيل تاركوهم ما تركوكم فهذا قول سعيد بن عقبة ورأيه وحديثه وهو عربيٌّ خراسانى (وذكر) يزيد ابن مزيد الوقعة التي قتل فيها دولبا التركىُّ الوليد بن طريف الخارجيّ فقال فى بعض ما يصف من شأن الترك ليس لبدن التركيّ على ظهر الدابة ثقل ولا لمشيه على الارض وقع وانه ليرى وهو مدبر ما لا يرى الفارس منا وهو مقبل وهو يرى الفارس منا صيداً ويعدّ نفسه فهداً . ويعده ظبياً ويعد نفسه كلباً والله لو رُمي به في قعر بئر مكتوفا لما أعجزته الحيلة ولولا أن أعمار عامتهم تقصر دون الجبل يعني جبل حلوان ثم هموا بنا لألقوا لنا شغلاً طويلاً (وأنشد رجل من أصحابه)

هبِ الدُّنيا تساق اليك عفواً * أليس مصير ذاك الى زوال

(قال) أما التركىُّ فلأَن ينال الكفاف غصبا أحبُّ اليه من أن ينال الملك عفواً ولم يتهنّ تركيٌّ بطعام قط إلا أن يكون صيداً أو مغنما ولا يفرُّ على ظهر دابته طالباً كان أو مطلوبا (وقال ثمامة بن أشرس) وكان مثل محمد بن الجهم في كثرة ذكره للترك (قال ثمامة) التركىُّ لا يخاف الا مخوفا ولا يطمع فى غير مطمع ولا يكفه عن الطلب إلا اليأس صرفا ولا يدع

القليل حتى يصيب اكثر منه وان قدر أن يجمعهما لم يفرّط فى واحدمنهما والباب الذى لا يحسنه لا يحسن منه شيئاً والباب الذى يحسنه قد أحكمه بأسره وأمره وخفيه عنده كظاهره ولا يتشاغل بشيءٍ ليس فيه شيء ولا يخاف على نفسه من شيء فلولا أن يجم نفسه بالنوم لما نام على أن نومه مشوب باليقظة ويقظته سليمة من الوسنة. ولو كان في شقهم أنبياء وفى أرضهم حكماء وكانت هذه الخواطر قد مرت على قلوبهم وفرغت لها أسماعهم لأنسوك أدب البصريين. وحكمة اليونانيين. وصنعة أهل الصين ﴿ وقال ثمامة ﴾ عرض لنا في طريق خراسان تركيٌّ ومعنا قائد يصول بنفسه ورجاله وبيننا وبين التركيّ وادٍ فسأله أن يبارزه فارس من القوم فأخرج له رجلا لم أر قط أكمل منه ولا أحسن تماما وقواما منه فاحتال حتى عبر اليه الفارس فتجاولا ساعة ولا نظن الاّ أنّ صاحبنا يفي بأضعافه وهو فى ذلك يتباعدعنا فبينا هما فى ذلك اذ ولى عنه التركيٌّ كالهارب منه وفعل ذلك فى موضع ظننا أن صاحبنا قد ظهر عليه واتبعه الفارس لا نشك إلا أنه سيأتينا برأسه أو يأتينا به مجنوبا الى فرسه فلم نشعر إلا وصاحبنا قد أفلت عن فرسه وغاب عنه فنزل التركيٌّ اليه وأخذ سلبه وقتله ثم عارض فرسه فجنبه اليه معه (قال) ثمامة ثم رأيت بعد ذلك التركيّ قد جيء به أسيراً الى دار الفضل بن سهل فقلت له كيف صنعت يومئذ وكيف طاولته ثم علاك ثم وليت عنه هاربا ثم قتلته. قال أما اني لو شئت أن أقتله حين عبر وقد كان مقتله بارزاً لى ولكني احتلت عليه حتي نحيته عن أصحابه لأحوزه فلا يحال بيني وبين فرسه وسلبه (قال ثمامة) واذا هو يدير الفارس من سائر الناس ويريغه كيف شاء وأحب

(قال ثمامة) وقد غبرت في أيديهم أسيراً فما رأيت كاكرامهم وتحفهم وإلطافهم . فهذا ثمامة بن أشرس وهو عربيٌّ لا يتهم في الإخبار عنهم . «وأنا» أخبرك أني قد رأيت منهم شيئاً عجيبا وأمراً غريبا رأيت في بعض غزوات المأمون سماطي خيل على جنبتي الطريق بقرب المنزل مائة فارس من الأتراك في الجانب الأيمن ومائة من سائر الناس في الجانب الأيسر واذا هم قد اصطفوا ينتظرون مجيء المأمون وقد انتصف النهار واشتدّ الحرّ فورد عليهم وجميع الأتراك جلوسٌ على ظهور خيولهم الا ثلاثة أو أربعة وجميع تلك الاخلاط من الجند قد رموا بنفوسهم الى الارض الا ثلاثة أو أربعة فقلت لصاحب لى انظر أي شيء اتفق لنا أشهد ان المعتصم كان أعرف بهم حين جمعهم واصطنعهم «وأردت» مرة القاطول[1] وهي المباركة وأنا خارج من بغداد وأرى فوارس من أهل خراسان والابناء وغيرهم من أصناف الجند قد عار لهم فرس وهم على خيل عتاق يريغونه فلا يقدرون على أخذه ومرّ تركيٌّ ولم يكن من ذوى هيئاتهم وذوى القدر منهم وهو على برذون له خسيس وهم على الخيول المطهمة فاعترض الفرس اعتراضاً وفتله فتلاً وحياً وأتاه من زجره بشيء فوقف أولئك الجند وصاروا نظارة فقال بعضهم ممن كان يزدرى على ذلك التركيّ هذا وأبيك التكلف والتعرّض إنّ فرسا قد أعجزهم وهم أسد البلاد وجاء هذا مع قصر قامته وضعف دابته فطمع أن يأخذه فما انقضى كلامه حتى أقبل به ثم سلمه اليهم ومضى لطلبته لم ينتظر ثناءهم ولا دعاءهم ولا أراهم أنه

---

(١) (القاطول) موضع على دجلة

قد صنع شيئا وأتي اليهم معروفا * والاتراك قوم لا يعرفون الملق ولا الخلابة ولا النفاق ولا السعاية ولا التصنع ولا النميمة ولا الرياء ولا البذخ[1] على الاولياء ولا البغي على الخلطاء ولا يعرفون البدع ولا تفسدهم الاهواء ولا يستحلون الاموال على التأول . وانما كان عيبهم والذى يوحش منهم الحنين الي الاوطان وحب التقلب في البلدان والصبابة بالغارات والشغف بالنهب [illegible]دة الالف للعادة مع ما كانوا يتذاكرون من سرور الظفر وتتابعه وحلاوة المغنم وكثرته . وملاعبهم في تلك الصحارى وترددهم فى تلك المروج وأن لا يذهب بطول الفراغ فضل نجدتهم باطلا ويصير حدهم على طول الايام كليلا ومن حذق شيئا لم يصبر عنه ومن كره أمراً فرّ منه . وانما خصوا بالحنين من بين العجم لان في تركيبهم وأخلاط طبائعهم من تركيب بلدهم وتربتهم ومشاكلة مياههم ومناسبة اخوانهم ما ليس مع أحد سواهم ألا ترى أنك ترى البصريّ فلا تدرى أبصريّ هو أم كوفيّ وترى المكيّ فلا تدرى أمكيّ هو أم مدنيّ وترى الجبليّ فلا تدرى أجبليّ هو أم خراسانيّ وترى الجزريّ فلا تدرى أجزريّ هو أم شاميّ وأنت لا تغلط في التركيّ ولا تحتاج فيه الى قيافة ولا الى فراسة ولا الى مساءلة ونساؤهم كرجالهم ودوابهم تركيب مثلهم وهكذا طبع الله تلك البلدة وقسم لتلك التربة وجمع دور الدنيا ونشرها الى منتهى قواها ومدة أجلها جارية على عللها وعلى مقدار اسبابها وعلى قدر ما خصها الله تعالى به وأبانها وجعل فيها فاذا صاروا الى دار الجزاء فهى كما قال الله

---

(٢) (البذخ) بفتح الذال المعجمة هو الكبر اه

تعالى إنا أنشأناهنّ إنشاء وكذلك ترى أبناء العرب والاعراب الذين نزلوا خراسان لا تفصل بين من نزل ابوه بفرغانة وبين أهل فرغانة ولا ترى بينهم فرقا فى السبال الصهب والجلود القشرة والأقفاء العظيمة والاكسية الفرغانية وكذلك جميع الارباع لا تفصل بين أبناء النازلة وبين ابناء الثابتة • ومحبة الوطن شيء شامل لجميع الناس وغالب على جميع الجيزة ولكن ذاك من الترك اغلب وفيها أرسخ لما معها من خاصة المشاكلة والمناسبة واستواء السنة وتكافؤ التركيب ألا ترى أن العبدي يقول عمر الله البلدان بحب الأوطان وأن ابن الزبير رضى الله عنهما قال ليس الناس بشيء من أقسامهم أقنع منهم بأوطانهم • وأن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه قال لولا تفرّق أهواء العباد لما عمر الله البلاد • وأن جمعة الايادية قالت لولا ماأوصى الله تعالى به العباد من قفر البلاد لما وسعهم واد ولا كفاهم زاد ﴿ وذكر ﴾ قتيبة بن مسلم الترك فقال هم والله أحن من الابل المعلقة الى أوطانها لان البعير يحن الى وطنه وعطنه وهو بعمان من ظهر البصرة فهو يخبط كل شيء ويستبطن كل واد حتى يأتي مكانه على طريق لم يسلكه الا مرة واحدة فلازال بالشم والاسترواح وحسن الادلال بالطبيعة المخصوص هو بها حتى يأتيَ مبركه على بعد مابين عمان والبصرة فلذلك ضرب به قتيبة المثل • والشحّ على الوطن والحنين اليه والصبابة به مذكور فى القرآن مخطوط فى الصحف بين جميع الناس • غير ان التركي للعلل التى ذكرناها أشدّ حنينا وأشد نزاعا * وباب آخر مما كان يدعوهم الى الرجوع قبل العزم الثابت والمادّة المنقوضة وذلك أن الترك

قوم يشتد عليهم الحضر والجثوم[1] وطول اللبث والمكث وقلة التصرّف والتحرّف وأصل بنيتهم انما وضع على الحركة وليس للسكون فيهم نصيب وفي قوى أنفسهم فضل على قوى أبدانهم وهم أصحاب توقد وحرارة واشتغال وفطنة . كثيرة خواطرهم . سريع لحظهم كانوا يرون الكفاية معجزة وطول المقام بلادة والراحة عقلة والقناعة من قصر الهمة وأنّ ترك الغزو يورث الذلة * وقد قالت العرب في مثل ذلك قال عبد الله بن وهب الراسبي حبّ الهوينا يكسب النصب والعرب تقول من غلا دماغه في الصيف غلت قدره في الشتاء . وقال اكثم بن صيفيّ ما احبّ اني مكفيّ كلّ أمر الدنيا قيل ولِمَ قال أخاف عادة العجز . فهذه كانت عِلل الترك في حبّ الرُّجوع والحنين الى الوطن * ومن أعظم ما كان يدعوهم الى الشرود ويبعثهم على الرُّجوع ويكرّه عندهم المقام ما كانوا فيه من جهل قوّادهم باقدارهم وقلة معرفتهم باخطارهم واغفالهم موضع الرّدّ عليهم والانتفاع بهم ولانهم حين جعلوهم أُسوة أجنادهم لم يقنعوا أن يكونوا في الحاشية والحشوة وفي غمار العامة ومن عرض العساكر وأنفوا من ذلك لانفسهم وذكروا ما يجب لهم ورأوا أن الضيم لا يليق بهم وان الخمول لا يجوز عليهم وانهم في المقام على من لا يعرف حقهم ألوم ممن منعهم حقهم . فلما صادفوا ملكا حليما وبأقدار الناس عليما لا يميل الى سوء عادة ولا يجنح الى هوى ولا يتعصب لبلد على بلد . يدور مع التدبير حيثما دار ويقيم الحق حيثما اقام . أقاموا اقامة من قد فهم الحظ ودان بالحق ونبذ

(١) (الجثوم) في القاموس جثم الانسان جثوما فهو جاثم وجثوم لزم مكانه فلم يبرح اه

العادة وآثر الحقيقة ورحل نفسه لقطيعة وطنه وآثر الامامة على ملك الجبرية واختار الصواب على الالف (ثم اعلم) بعد هـذا كله أن كل أمة وقرن وكل جيل وبني أب وجدتهم قد برعوا في الصناعات وفضلوا الناس في البيان أو فاقوهم فى الآداب أو في تأسيس الملك أو في البصر بالحرب فانك لاتجدهم فى الغاية وفي أقصى النهاية إلا أن يكون الله تعالى قدسخرهم لذلك المعنى بالاسباب وقصرهم عليه بالعلل التى تقابل تلك الأمور وتصلح لتلك المعانى لأنَّ من كان متقسم الهوى مشترك الرأي متشعب النفس غير موفر على ذلك الشيء ولا مهيا له لم يحذق من تلك الأشياء شيئاً بأسره ولم يبلغ فيه غايته كأهل الصين في الصناعات . واليونانيين في الحكم والآداب والعرب فيما نحن ذاكروه في موضعه . وآل ساسان فى الملك . والاتراك في الحروب . ألا ترى أن اليونانيين الذين نظروا في العلل ثم لم يكونوا تجاراً ولا صناعا بأكفهم ولا أصحاب زرع وفلاحة وبناء وغرس ولا أصحاب جمع ومنع وحرص وكدّ وكانت الملوك تفرّغهم وتجرى عليهم كفاياتهم فنظروا حين نظروا بأنفس مجتمعة وقوّة وافرة وأذهان فارغة حتى استخرجوا الآلات والأدوات والملاهى التى تكون جماما [1] للنفس وراحة بعد الكدّ وسروراً يداوى قرح المهموم فصنعوا بعد المرافق وصاغوا من المنافع كالقرسطونات والقبانات والاسطرلابات وآلة الساعات وكالكونيا والكشتوان والبركار وكأصناف المزامير والمعازف وكالطب والحساب والهندسة واللحون وآلات الحرب كالمجانيق والعرّادات

(١) (جماما) بفتح الجيم اي راحة

والرتيلات والدبابات وآلة النفاط وغير ذلك مما يطول ذكره . وكانوا أصحاب حكمة ولم يكونوا فعلة يصوّرون الآلة ويخرطون الاداة ويصوغون المثال ولا يحسنون العمل به ويشيرون اليها ولا يمسونها يرغبون في العلم ويرغبون عن العمل (فأما) سكان الصين فهم أصحاب السبك والصياغة والافراغ والاذابة والأصباغ العجيبة وأصحاب الخرط والنحت والتصاوير والنسيج والخط ورفق الكف في كل شئ يتولونه ويعانونه وان اختلف جوهره وتباينت صنعته وتفاوت ثمنه . فاليونانيون يعرفون العلل ولا يباشرون العمل . وسكان الصين يباشرون العمل ولا يعرفون العلل لانّ أولئك حكماء وهؤلاء فعلة . وكذلك العرب لم يكونوا تجاراً ولا صناعا ولا أطباء ولا حسابا ولا أصحاب فلاحة فيكونوا مهنة ولا أصحاب زرع لخوفهم من صغار الجزية ولم يكونوا أصحاب جمع وكسب ولا أصحاب احتكار لما في أيديهم وطلب ما عند غيرهم ولا طلبوا المعاش من ألسنة الموازين ورؤس المكاييل ولا عرفوا الدوانيق والقراريط ولم يفتقروا الفقر المدقع الذي يشغل عن المعرفة ولم يستغنوا الغناء الذي يورث التبليد[1] والثروة التي تحدث الغرة ولم يحتملوا ذلا قط فيميت قلوبهم أو يصغر عندهم أنفسهم . وكانوا سكان فياف وتربية العراء[2] لا يعرفون الغمق ولا اللثق[3] ولا البخار ولا الغاظ ولا العفن ولا التخم . أذهان حداد . ونفوس منكرة (لحين) حملوا حدهم ووجهوا قواهم الى قول الشعر وبلاغة المنطق وتشقيق

(١) (التبليد) هو ترك الاتجاه لشيء (٢) (العراء) أي الفضاء (٣) (الغمق) بفتح الغين المعجمة والميم ركوب الندى الارض (واللثق) مصدر لثق اليوم كمرح ركدت ريحه وكثر نداه

اللغة وتصاريف الكلام وقيافة البشر بعد قيافة الأثر وحفظ النسب والاهتداء بالنجوم والاستدلال بالآثار وتعرّف الانواء والبصر بالخيل والسلاح وآلة الحرب والحفظ لكل مسموع والاعتبار بكل محسوس وإحكام شأن المناقب والمثالب (بلغوا) في ذلك الغاية وحازوا كل أمنية وببعض هذه العلل صارت نفوسهم أكبر وهممهم أرفع وهم من جميع الامم أفخر ولأيامهم أذكر . وكذلك الترك أصحاب عُمُد وسكان فياف وأرباب مواش وهم أعراب العجم كما أن هذيلا أكراد العرب (فحين) لم تشغلهم الصناعات ولا التجارات ولا الطب والفلاحة والهندسة ولا غرس ولا بنيان ولا بثق أنهار[1] ولا جباية غلاّت ولم تكن هممهم غير الغزو والغارة والصيد وركوب الخيل ومقارعة الابطال وطلب الغنائم وتدويخ البلدان وكانت هممهم الى ذلك مصروفة وكانت لهذه المعانى والاسباب مسخرة ومقصورة عليها وموصولة بها (أحكموا) ذلك الامر بأسره وأتوا على آخره وصار ذلك هو صناعتهم وتجارتهم ولذتهم وفخرهم وحديثهم وسمرهم فلما كانوا كذلك صاروا فى الحرب كاليونانيين في الحكمة وأهل الصين في الصناعات والاعراب فيما عددنا ونزّلنا . وكآل ساسان فى الملك والسياسة (ومما) يستدل به على أنهم قد استقصوا هذا الباب واستغرقوه وبلغوا أقصى غايته وتعرفوه أن السيف الى أن يتقلده متقلد أو يضرب به ضارب قد مرّ على أيد كثيرة وعلى طبقات من الصناع كل واحد منهم لا يعمل عمل صاحبه ولا يحسنه ولا يدعيه ولا يتكلفه لان الذى

---

(١) (بثق انهار) في القاموس بثق النهر بثقا كسر شطه لينبثق الماء اه ومعني ينبثق ينفجر

يذيب حديد السيف ويميعه ويصفيه ويهذبه غير الذي يمده ويمطله[1] والذي يمده ويمطله غير الذي يطبعه ويسوّي متنه ويقيم خشيبته. والذي يطبعه ويسوي متنه غير الذي يسقيه ويرهفه. والذي يرهفه غير الذي يركب قبيعته ويستوثق من سيلانه[2] والذي يعمل مسامير السيلان وشاربَي القبيعة[3] ونصل السيف غير الذي ينحت خشب غمده. والذي ينحت خشب غمده غير الذي يدبغ جلده. والذي يدبغ جلده غير الذي يحليه. والذي يحليه ويركب نعله غير الذي يخرز حمائله. وكذلك السرج وحالات السهم والجعبة والرمح وجميع السلاح مما هو جارح أو جنة. والتركي يعمل هذا كله بنفسه من ابتدائه الى غايته ولا يستعين برفيق ولا يفزع الى رأي صديق ولا يختلف إلى صانع ولا يشغل قلبه بمطاله وتسويفه وأكاذيب مواعيده وبغرم كرائه (وحين) بلغ أوس بن حجر صفة القانص وبلغ الغاية في جمعه لابواب الكفاية بنفسه (قال)

قصيُّ مبيتِ الليل للصيد مُطْعَمٌ * لاسهُمِه غارٍ وبارٍ وراصف

وليس في الارض كل تركيّ كما وصفنا كما أنه ليس كل يونانيٍّ حكيما ولا كل صينيّ في غاية من الحذق ولا كل أعرابيّ شاعراً قائفا ولكن هذه الامور في هؤلاء أعم وأتم وفيهم أظهر وأكثر * قد قلنا في السبب الذي تكاملت به النجدة والفروسية في الترك دون جميع الامم وفي العلل التي من أجلها

(١) (ويمطله) أي يطوله (٢) (سيلانه) هو بكسر السين أصل قائم السيف (٣) (وشاربي القبيعة) الشاربان انفان طويلان في أصل قائم السيف (والقبيعة) وزان سفينة ماعلى مقبض السيف من فضة أو حديد

نظموا جميع معاني الحرب وهي معان تشتمل على مذاهب غريبة وخصال عجيبة . فمنها ما يقضي لاهله بالكرم وببعد الهمة وطلب الغاية . ومنها ما يدل على الادب السديد والرأي الاصيل والفطنة الثاقبة والبصيرة النافذة . ألا ترى أنه ليس بد لصاحب الحرب من الحلم والعلم والحزم والعزم والصبر والكتمان ومن الثقافة وقلة الغفلة وكثرة التجربة ولا بد من البصر في الخيول والسلاح والخبرة بالرجال والبلاد والعلم بالمكان والزمان والمكايد وبما فيه صلاح الامور كلها والملك يحتاج الى أواخ شداد وأسباب متان ومن أمتنها سبباً وأعمها نفعا ما ثبتـه في نصابه وسكنه في قراره وزاده في تمكينه وبهائه وقطع أسباب المطمعة فيه ومنع أيدي البغاة من الاشارة اليه فضلا عن البسط عليه (قال) ثم ان الترك عطفت عليه بالمحاجة والمقايسة وقالوا قلتم ان تكن القرابة مما يستحق بالكفاية فنحن أقدم في الطاعة والود والمناصحة وان تكن تستحق بالقرابة فنحن أقرب قرابة (قالوا) والعرب بعد هذا صنفان عدنانيّ وقحطانيّ . فأما القحطاني فنسبتنا الى الخلفاء أقرب من نسبتهم ونحن أمسّ بهم رحماً لان الخليفة من ولد اسماعيل بن ابراهيم عليهما الصلاة والسلام دون قحطان وعابر وولد ابراهيم عليه الصلاة والسلام اسماعيل وأمه هاجر وهي قبطية واسحق وأمه سارّة وهي سريانية والستة الباقون أمهم قنطورا بنت مفطون عربية من العرب العاربة وفي قول القحطانية إن أمنا أشرف في الحسب اذ كانت عربية . وأربعة من الستة هم الذين وقعوا بخراسان فأولدوا ترك خراسان فهذا قولنا للقحطاني (وأما) قولنا للعدناني فابراهيم عليه السلام أبونا واسماعيل عمنا وقرابتنا

من اسماعيل كقرابتهم (قال الهيثم بن عدي) قيل لمبارك التركي وعنده حماد التركي انكم من مذحج قال ومذحج هـذا من هو ذاك وما نعرف إلا ابراهـيم خليل الله عليه الصلاة والسلام وأمير المؤمنين (قال الهيثم)وقد كان سقط الى بلاد الترك رجل من مذحج فأنسل نسلا كثيراً ولذلك قال شاعر الشعوبية للعرب في قصيدة طويلة

زعمتم بأن الترك أبناء مذحج * وبينكمو قربى وبين البرابر
وذلكمو نسل ابن ضبة باسل * وصوفان أنسالٌ كثير الجرائر

﴿ وقال آخر ﴾

متى كانتِ الاتراك أبناءمذحج * ألا إن في الدنيا عجيبا لمن عجب

وقد سمعتم ماجاء في سد بني قنطورا وشأن خيولهم تحو السواد وانما كان الحديث على وجه التهويل والتخويف بهم لجميع الناس فصاروا للاسلام مادة وجنداً كثيفاً وللخلفاء وقاية وموئلا وجنة حصينة وشعارا دون الدثار وفي المأثور من الخبر تاركوا الترك ما تركوكم وهذه وصية لجميع العرب فان الرأي متاركتنا ومسالمتنا وما ظنكم بقوم لم يعرض لهم ذو القرنين وبقوله اتركوهم سُمُّوا الترك . هذا بعد أن غلب على جميع الارض غلبة وقسراً وعنوة وقهراً (وقال) عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه هذا عدوٌّ شديد كَلَبُه قليل سَلَبُه فهي كما ترى عن التعرض لهم بأحسن كناية . والعرب اذا ضربت المثل في العداوة الشديدة قالوا ماهم الا الترك والديلم (قال) عملس بن عقيل بن علَّفة

تبدَّلتُ منه بعدماشاب مفرَقي * عداوة تركيٍّ وبُغض أبي حِسل

وأبو حسل هو الضب والعرب تقول هو أعق من ضب لانه يأكل أولاده . ولم يرعب قلوب أجناد العرب مثل الترك (وقال خلف الاحمر)

كأني حين أرهنهم بنيّ * دفعتهم الى صهب السبال

(قال) واياهم عنى أوس بن حجر بقوله

نكبتها ماءهم لما رأيتهم * صهب السبال بأيديهم بيازير

﴿ وحدثني ﴾ ابراهيم بن السندي مولى أمير المؤمنين وكان عالما بالدولة شديد الحب لابناء الدعوة وكان يحوط مواليه ويحفظ أيامهم ويدعو الناس الى طاعتهم ويدرسهم مناقبهم وكان فخم المعانى فخم الألفاظ لو قلت لسانه كان أردّ على هذا الملك من عشرة آلاف سيف شهير وسنان طرير لكان ذلك قولا ومذهبا (قال) حدثني عبد الملك بن صالح عن أبيه صالح بن عليٍّ أن خاقان ملك الترك واقف مرة الجنيد بن عبد الرحمن أمير خراسان وقد كان الجنيد هاله أمره وأفزعه شأنه وتعاظمه جموعه وجمعه وبعل به[1] وبلغ منه وفطن به خاقان وعرف ما قد وقع فيه فأرسل اليه أنى لم أقف هذا الموقف وأمسك هذا الامساك وأنا أريد مكروها أو غلبة ولو كنت أريد غلبة أو مكروها لقد كنت انتسفت عسكرك انتسافا أعجلك فيه عن الروية وقد أبصرت موضع العورة ولولا أن تعرف هذه المكيدة فتعود بها على غيرى من الاتراك لعرفتك موضع الانتشار والخلل والخطا في عسكرك وتعبيتك وقد بلغني أنك رجل عاقل وان لك شرفا في بيتك وفضلا في نفسك وعلما بدينك وقد أحببت أن أسأل عن

---

(١) (وبعل به) في القاموس وبعل بأمره كفرح دهش وفرق وبرم فلم يدر ما يصنع اه

شيء من أحكامكم لأعرف به مذهبكم فأخرج إليّ في خاصتك لأخرج اليك وحدي وأسائلك عما أحتاج اليه بنفسي ولا تحتفل ولا تحترس فليس مثلي من غدر وليس مثلي يؤمن من نفسه ومن نكره وكيده ثم ينكث بوعده ونحن قوم لانخدع بالعمل ولانستحسن بالخديعة الا فى الحرب ولو استقام أمر الحرب بغير خديعة لما جوزنا ذلك بأنفسنا فأبى الجنيد أن يخرج اليه إلا وحده فقصلا من الصفوف وقال سل عما أحببت فان كان عندي جواب أرضاه أجبتك وإلا أشرت عليك بمن هو أبصر بذلك مني (قال) ما حكمكم فى الزانى قال الجنيد الزاني عندنا رجلان. رجل دفعنا اليه امرأة تغنيه عن حرم الناس وتكفه عن حرم الجيران . ورجل لم نعطه ذلك ولم نخلّ بينه وبين أن يفعل ذلك لنفسه فأما الذي لا زوجة له فانا نجلده مائة جلدة ويحضر ذلك الجماعة من الناس لنشهره ونحذره به ونعرفه فى البلدان لنزيد فى شهرته وفي التحذير منه ولينزجر بذلك كل من كان يهم بمثل عمله. وأما الذي قد أغنيناه فانا نرجمه بالجندل حتى نقتله (قال) حسن جميل وتدبير كبير فما حكمكم فى الذى يقذف عفيفا بالزنا . قال نجلده ثمانين جلدة ولا نقبل له شهادة ولا نصدق له حديثا (قال) حسن جميل وتدبير كبير فما حكمكم فى السارق . قال السارق عندنا رجلان . رجل يحتال لما قد أحرزه الناس من أموالهم حتى يأخذها بنقب حيطانهم أو بالتسلق من أعالى دورهم فهذا نقطع يده التى سرق بها ونقب بها واعتمد عليها . ورجل آخر يخيف السبيل ويقطع الطريق ويكايد على الأموال ويشهر السلاح

فان منعه صاحب المتاع قتله فهذا نقتله ونصلبه على المناهج والطرق قال حسن جميل وتدبير كبير (ثم قال) فما حكمكم في الغاصب والمستاب قال كل ما فيه الشبهة ويجوز فيه الغلط والوجوه كالغصب والاستلاب والجناية والسرقة لما يؤكل أو يشرب فانا لا نقطع فيما فيه شبهة ويحتمل لذلك وجه غير السرقة قال حسن جميل وتدبير كبير (ثم قال) فما حكمكم في القاتل وقاطع الأذن والأنف قال النفس بالنفس والعين بالعين والأذن بالاذن والأنف بالأنف وان قتل عشرة رجلا قتلناهم ونقتل القويّ البدن بالضعيف البدن وكذلك اليد والرجل قال حسن جميل وتدبير كبير (قال) فما تقولون فى الكذاب والنمام والضراط قال عندنا فيهم الاقصاء لهم وابعادهم واهانتهم ولا نقبل شهادتهم ولا نصدّق أحكامهم. قال أوليس الا هذا قال هذا جوابنا على ديننا (فقال) له أما النمام عندى وهو الذى يرفع الحديث بين الناس اشاعة فاني أحبسه فى مكان لا يرى فيه أحداً. وأما الضرّاط فانى أكوى استه وأعاقب ذلك المكان منه. وأما الكذاب فانى أقطع الجارحة التي بها يكذب كما قطعتم اليد التي بها يسرق . وأما الذى يضحك الناس ويعودهم السخف [1] فانى أخرجه من سلطاني وأصلح باخراجه عقول رعيتى (قال) فقال له الجنيد بن عبد الرحمن أنتم قوم تردون أحكامكم الى جواز العقول والى مايحسن فى ظاهر الرأى ونحن قوم نتبع الانبياء ونرى أنا لا نصلح ولا نقدر على تدبير العباد وذلك أن الله تعالى أعلم بغيب المصالح وبسر الامر وحقائقه ومحصوله وعواقبه والناس

---

(١) السخف بضم السين وزان قفل وبفتحها وكقرصة وسحابة رقة العقل

لا يعلمون ولا يرون الحزم الا على ظاهر الامور وكم من مضيع يسلم وحازم يعطب (قال) ماقلت كلاما أشرف من هذا ولقد ألقيت لى فكراً طويلا (قال) ابراهيم قال عبد الملك قال صالح قال الجنيد فلم أر أوفى ولا أنصف ولا أفهم ولا أذكى منه ولقد واقفته ثلاث ساعات من النهار ما تحرك منه شيء إلا لسانه وما مني شيء لم أحرِّكه وهكذا يصفون ملوك الترك (ويزعمون) أن ساسان وخاقان الاكبر توافقا ببعض الجسور وفصلا من الصفين وطالت المناجاة بينهما فلما انفتلا قالوا كان خاقان أركن وآدب وكان مركب كسرى أركن وآدب لم يتحرك من خاقان الا لسانه وكان برذونه يرفع قائمة ويضع أخرى وكان مركب كسرى كأنما صبّ صبًّا وكان كسرى يحرِّك رأسه ويشير بيده (قالوا) ومن الاعاجيب أن الحارث ابن كعب لا تقوم لحزم وحزم لا تقوم لكندة وكندة لا تقوم للحارث بن كعب (قالوا) ومثل ذلك من الاعاجيب فى الحرب أن العرب لا تقوم للترك والترك لا تقوم للروم والروم لا تقوم للعرب (قال) جهم بن صفوان الترمذي قد عرفنا ما كان بين فارس والترك من الحرب حتى تزوج كسرى ابرويز خاتون بنت خاقان يستميله بتلك المصاهرة ويدفع بأسه عنه . وقد عرفنا الحروب التى كانت بين فارس والروم وكيف تساجلوا الظفر وبأيّ سبب غرس الزيتون بالمدائن وسوسا وبأيّ سبب بنيت الرومية ولم سميت بذلك ولم بنى كسرى على الخليج قبالة قسطنطينية النواويس وبيوت النار ولكن متي ظهر الروم على ترك خراسان ظهورا متواليا ضربوا بها المثل الى آخر دارمسه ومن هناك من الاشباه ومن يتحلل هذا النسب (وكانت) خاتون

بنت خاقان عند ابرويز فولدت له شيرويه وقد ملك شيرويه بعد ابرويز (وتزوج)شيرويه مريم بنت قيصر فولدت له فيروزا شاهي أم يزيد الناقص ابن الوليد وكان يقول ولدني أربعة ملوك كسرى وخاقان وقيصر ومروان وكان يرتجز في حروبه التي قتل فيها الوليد بن يزيد ابن عاتكة

أنا ابن كسرى وأبي خاقان * وقيصر جدى وجدي مروان

فلما صار الى الافتخار في شعره بالنجدة والثقافة بالحرب لم يفخر الا بخاقان فقط فقال

فان كنت أرمى مقبلا ثم مدبراً * وأطلع من طود زليق على مهر
فخاقان جدي فاعرفي ذاك واذكري * أخايره في السهل والجبل الوعر

(قوله وأطلع) يريد وأنزل وهي لغة أهل الشام وأخذوها من نازلة العرب في أول الدهر وجعل دابته مهراً لان ذلك أشد وأشق (وقال) الفضل ابن العباس بن رزين أتانا ذات يوم فرسان من الترك فلم يبق أحد ممن كان خارجا الا دخل حصنه وأغلق بابه وأحاطوا بحصن من تلك الحصون وأبصر فارس منهم شيخاً يطلع اليهم من فوق فقال له التركي لئن لم تنزل الى لأقتلنك قتلة ماقتلتها أحداً قال فنزل اليه وفتح له الباب ودخلوا الحصن واكتسحوا كل شئ فيه فضحك من نزوله وفتحه له وهو في أحصن موضع وأمنع مكان ثم أقبل به الى حصن أنا فيه فقال اشتروه مني قلنا لا حاجة لنا في ذلك قال فاني أبيعه بدرهم واحد فرمينا اليه بدرهم فخلى سبيله ثم أدبرعنا ومضى مع أصحابه فما لبث الا قليلا حتى عاد الينا فوقف حيث نسمع كلامه فراعنا ذلك فاخرج الدرهم من فمه وكسره نصفين وقال لا يسوى درهما

وهذا غبن فاحش فخذوا هذا النصف وهو على كلّ حال غال جدًّا بالنصف الآخر قال فاذا هو أظرف الخلق قال وكنا نعرف ذلك الرجل بالجبن وقد كان سمع باحتيال الترك فى دخول المدن وعبور الانهار في الحروب فتوهم أنه لم يتوعد بفتح الباب الا وعنده شيء من ذلك (وقال ثمامة) ماشبهت الذرّ الا بالترك لانّ كلّ ذرة على حدتها معها من المعرفة بادخار الطعام ومن الشمّ والاسترواح وتجنب المزجر حتى لايبيت الا فى جحره ثم الاحتيال للناس في الاحتيال لها بالصمامة والعفاص والمزدجر وتعليق الطعام على الاوتاد والبرادات مثل الذرة مع صاحبتها (وقال) ابو موسى الاشعرى رضى الله تعالى عنه كل جنس يحتاج الى أمير ورئيس ومدبر حتى الذرّ (وروى) ابو عمرو الضرير أن رئيس الذر الرائد الذي يخرج أولا لشيء قد شمه دون أصحابه لخصوصية خصه الله تعالى بها ولطافة الحسّ فاذا حاول حمله وتعاطى نقله وأعجزه ذلك بعد أن يبلى عذراً أتاهنّ فأخبرهنّ فرجع وخرجت بعده كأنها خيط أسود ممدود وليست ذرّة أبداً تستقبل ذرة أخرى الا واقفتها وسارتها بشيء ثم انصرفت عنها* وكذلك الأتراك كلّ واحد منهم غير عاجز عن معرفة مصلحة أمره الا أنّ التفاضل واجب فى جميع أصناف الاشياء والنبات والموات * وقد تختلف الجواهر وكلها كريم وتتفاضل العتاق وكلها جواد* وقد قلنا فى مناقب جميع الاصناف بجمل ماانتهى الينا وبلغه علمنا فان وقع ذلك بالموافقة فبتوفيق من الله تعالى وصنعه وان قصر دون ذلك فالذى قصر بنا نقصان علمنا وقلة حفظنا وسماعنا فأما حسن النية والذى نضمر من المحبة والاجتهاد فى القربة فانا لانرجع في ذلك الى أنفسنا

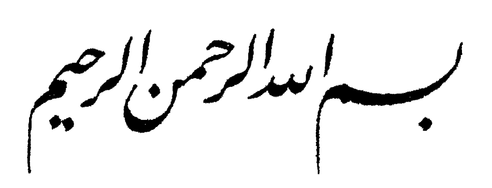
بلائمة . وبين التقصير من جهة التفريط والتضييع وبين التقصير من جهة العجز وضعف العزم فرق* ولو كان هذا الكتاب من كتب المناقضات وكتب المسائل والجوابات وكان كل صنف من هذه من الاصناف يريد الاستقصاء على صاحبه ويكون غايته اظهار فضل نفسه وان لم يصل الى ذلك الا باظهار نقص أخيه وولده لكان كتابا كبيراً كثير الورق عظيما ولكان عدد الذين يقضون لمؤلفه بالعلم والاتساع فى المعرفة أكثر وأظهر ولكنا رأينا أن القليل الذى يجمع خير من الكثير الذى يفرّق .ونحن نعوذ بالله من هذا المذهب ونسأله العون والتسديد انه سميع قريب فعال لما يريد

﴿ تم الكتاب ولله المنة وبيده الحول والقوة والله الموفق للصواب ﴾

(قد تم كتاب مفاخر الترك وهو الرسالة الثالثة من رسائل العلامة الجاحظ ويليه كتاب مفاخر السودان وهو الرسالة الرابعة له أيضاً)*



كتاب فخر السودان على البيضان



تولاك الله وحفظك وأسعدك بطاعته . وجعلك من الفائزين برحمته (ذكرت) أعاذك الله من الغش أنك قرأت كتابي فى محاكمة الصرحاء للهجناء ورد الهجناء وجواب أخوال الهجناء واني لم أذكر فيه شيئاً من مفاخر السودان فقد كتبت لك ما حضرنى من مفاخرهم (قال الاصمعي) قال الفزر عبد فزارة وكانت فى أذنه خرتة ان الوثام ينتزع من جميع الطمش لاتقرب العنز الضأن ماوجدت الماعز وتنفر الشاء من المخاب ولا تأنس بالخف (وأنشد) أبو زيد النحوى * لولا الوثام هلك الانسان *
(وقال) شداد الحارثى وكان خطيباً عالما قلت لامة سوداء بالبادية لمن أنت ياسوداء قالت لسيد الحضر ياأصلع قال قلت أولست سوداء قالت أولست أصلع قلت ما أغضبك من الحق قالت الحق اغضبك لاتشتم حتي ترهب ولأن تتركه أمثل (قال شداد) ولقد كلمتها وأنا اظن أني أفى باهل نجد وما نزعت عني الا وانا عند نفسي لا أفى بأمة (وقال الاصمعي) قال عيسى بن عمرو قال ذوالرمة قاتل الله أمة آل فلان السوداء ما كان أفصحها وأبلغها سألتها كيف كان المطر عندكم قالت غثنا ما شئنا

مناقب السودان

أن لقمان الحكيم منهم وهو الذي يقول ثلاثة لا تعرفهم الا عند ثلاثة الحليم عند الغضب والشجاع عند الخوف والأخ عند حاجتك . وقال لابنه اذا أردت أن تخالط رجلا فأغضبه قبل ذلك فان انصفك والا فاحذره ولم يرووا هذا عنه الا وله أشياء كثيرة . وا كثر من هذا مدح الله اياه وتسميته الحكيم وماأوصى به ابنه (ومنهم) سعيد بن جبير رضي الله تعالى عنه قتله الحجاج قبل موته بستة اشهر وهو ابن تسع واربعين سنة ومات الحجاج وهو ابن ثلاث وخمسين سنة وكان سعيد أورع الخلق وأتقاهم وكان أعظم أصحاب ابن عباس وأصحاب الحديث يطعنون فى الذى يجيء من قبل أصحاب ابن عباس حتى يجيء من سعيد بن جبير . وأبوه مولى بني أسد وهو مولى بني أمية وقتل يوم قتل والناس يقولون كلنا محتاج اليه (ومنهم) بلال الحبشى رضى الله تعالى عنه الذى يقول فيه عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ان ابابكر سيدنا واعتق سيدنا وهو ثلث الاسلام (ومنهم) عفجع وهو أول قتيل قتل بين الصفين في سبيل الله (ومنهم) المقداد وهو أول من عدا بهفرسه فى سبيل الله (ومنهم) وحشيٌ قاتل مسيلمة الكذاب وكان يقول قتلت خير الناس يعني حمزة بن عبد المطلب رضي الله تعالى عنه وقتلت شر الناس يعني مسيلمة الكذاب (ومنهم) مكحول الفقيه (ومنهم) الحيقطان الشاعر الذى كان يفضل فى رأيه وعقله وهمته وهو الذى يقول فى الاخوان لا تعرف الاخ حتى ترافقه فى الحضر وتزامله فى السفر (ومنهم) جليبيب الذى يحدث الرواة أن رسول

الله صلى الله عليه وسلم خرج فى غزاة فقال لاصحابه هل تفقدون من أحد قالوا تفقد فلانا وفلانا ثم خرج فقال هل تفقدون من أحد قالوا نفقد فلانا وفلانا ثم خرج فقال هل تفقدون من أحد قالوا في الثالثة لا قال لكنى أفقد جايبيبا اطلبوه فطلبوه فوجدوه بين سبعة قد قتلهم ثم قتل فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم قتل سبعة ثم قتلوه هذا مني وأنا منه قال ثم حمله على ساعديه حتى حفروا له ماله سرير غير ساعدي رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ولم يذكروا غسلا (ومنهم) فرج الحجام وكان من اهل العدالة والمقدمين في الشهادة أعتقه جعفر بن سليمان وذلك انه خدمه دهراً يصلح شاربه ولحيته ويهيئه فلم يره اخطأ فى قول ولا عمل فقال والله لأمتحننه فان كان ماأرى منه عن تدبير وقصد لأعتقنه ولأزوجنه ولا غنينه وان كان على غير ذلك عرفت الصنع فيه فقال له ذات يوم وهو يحجمه ياغلام أتحتجم قال نعم قال ومتى قال عند الحاجة قال وتعرف ذلك قال اعرف اكثره وربما غلطت قال فأيّ شيء تأكل قال أما فى الشتاء فدا كبراجة خاثرة حلوة وأما فى الصيف فسكباجة حامضة عذبة فبلغ به جعفر بن سليمان ماقال وهو الذي يقول فيه أبو فرعون

خلوا الطريق زوجتى أمامى * أنا حميم فرج الحجام

(قالوا) وبلغ من عدالته ونبله فى نفسه وتوقيه وورعه أن مواليه من ولد جعفر وكبار أهل المربد كانوا لا يطمعون ان يشهدوه الاعلى أمر صحيح لا اختلاف فيه (وأما الحيقطان) فقال قصيدة تحتج بها اليمانية على قريش ومضر وتحتج بها العجم والحبش على العرب وكان جرير رآه يوم عيد فى قميص أبيض وهو

اسود فقال

كأنه لما بدا للناس * أير حمار لُفَّ في قرطاس

فلما سمع بذلك الحيقطان وكان باليمامة دخل الى منزله فقال هذا الشعر

لئن كنت جعد الرأس والجلد فاحم * فاني لسبط الكف والعرض أزهر
وإنّ سواد اللون ليس بضائرى * اذا كنت يوم الروع بالسيف أخطر
وإن كنت تبغى الفخر في غير كنهه * فرهط النجاشي منك في الناس أفخر
تأبيَّ الجلندي وابن كسرى وحارث * وهوذة والقبطيُّ والشيخ قيصر
وفاز بها دون الملوك سعادة * فدام له الملك المنيع الموفر
ولقمان منهم وابنه وابن أمه * وأبرهة الملك الذي ليس ينكر
غزاكم أبو يكسوم في أم داركم * وأنتم كفيض الرمل أوهو أكثر
وأنتم كطير الماء لما هوى لها * ببلقعة حجن المخالب أكدر
فلو كان غير الله رام دفاعه * علمت وذو التجريب بالناس أخير
وما الفخر الا أن تبيتوا إزاءه * وأنتم قريب ناركم تتسعر
ويداف منكم قائد ذو حفيظة * نكافحه طوراً وطوراً يدبر
وأما التى قلتم فتلكم نبوَّة * وليس بكم صونَ الحرامُ المستّرُ
وقلتم لَقاح لا نؤدي إتاوة * فاعطاء أربان من الفرّ أيسر
ولو كان فيها رغبة لمتوَّج * إذاً لأتها بالمقاول حمير
وليس بها مشتاً ولا متصيف * ولا كجواثا ، وها يتفجر
ولا مرتع للعِين أو متقنص * ولكنَّ تجراً والتجارة تحقر
ألست كابيبيا وأمك نعجة * لكم في سمان الضأن عار ومفخر

(أما قوله)

تأبيّ الجلندي وابن كسرى وحارث * وهوذة والقبطيّ والشيخ قيصر

فانه يقول كتب النبيّ صلى الله عليه وسلم الى بنى الجلندى فلم يؤمنوا وكذلك كسرى وكذلك الحارث بن أبي شمر وكذلك هوذة بن على الحنفى وكذلك المقوقس عظيم القبط صاحب الاسكندرية وكذلك قيصر ملك الروم . على أن بني جالندى قد أسلموا من بعد ذلك الكتاب ولكن النجاشي أسلم قبل الفتح فدام له ملكه ونزع الله تعالى من هؤلاء النعمة وقيصر ان كان قد بقى من ملكه شيء فقد أخرجوه من كل مكان يبلغه ظلف أو حافر وصار لا يمتنع الا بالخليج وبالعقاب والحصون وبالشتاء والثلوج والامطار * ثم نخر بلقمان وابنه (وأما قوله)

غزا كم أبو يكسوم في أمّ داركم * وأنتم كفيض الرمل أو هو أكثر

فانه يعني صاحب الفيل حين أتى مكة ليهدم الكعبة (يقول) كنتم فى عدد الرمل فلم فررتم منه ولم يلقه أحد منكم حتى أفضى الى مكة ومكة أم القرى . ودار العرب هي جزيرة العرب ومكة قرية من قراها ولكن لما كانت اقدمها قدماً واعظمها خطراً جعلت لها أماً ولذلك قيل لفتح مكة فتح الفتوح وعلى مثل ذلك سميت فاتحة الكتاب امّ الكتاب . والعرب قد تجعل الشيء امّ مالم تلد . من ذلك قولهم ضربه على امّ رأسه وكذلك أم الهاوية والضيف يسمى ربة منزله أمّ مثواي (وقال اعرابي) وقد أصابته براغيث عند امرأة كان نزل بها

ياأمّ مثواى عدمت وجهك * أنقذنى ربّ العلى من مصرك

ولدغ برغوث أراه مهلكي * أبيت ليلى دائب التحكك

تحكك الأجرب عند المبرك

وقد أبان الله تعالى مكة والبيت حين قال إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين (يقول) فاذا غزيت مكة وهى أم القرى وفيها البيت الحرام الذى هو شرفكم فقد غزى جميعكم (وأما قوله)

وأما التى قلتم فتلكم نبوة * وليس بكم صون الحرام المستر

فاللقاح البلد الذي لا يؤدّى الى الملوك الأربان والأربان هو الخراج وهو الاتاوة . وفي ذلك يقول عبيد بن الابرص

أبوا دين الملوك فهم لقاح * إذا ندبوا إلى حرب أجابوا

قال فقلتم انا لقاح ولسنا نؤدى الخراج والأربان قال فاعطاء الخراج أهون من الفرار واسلام الدار وأنتم مثل عدد من جاءكم المرار الكثيرة (وأما قوله)

وليس بها مشتًا ولا متصيفٌ * ولا كجواثا ماؤها يتفجرُ

(يقول) ليس فى الغلبة على مكة رغبة ولولا ذلك لغزاها أهل اليمن وغيرهم وليس بها مشتاً ولا متصيف لانهم يتبردون بالطائف ويتدفون بجدة . وجواثا عين بالبحرين وليس بمكة شئ يدانى تلك (وقال)

ولا مرتع للعين أو متقنص * ولكنّ تجراً والتجارة تحقر

(يقول) ليس بها متنزهات وصيدها حرام وانما بها تجار والتجار يحقرون يقول هم عند الناس فى حد الضعف ولا يستجيز ملك أخذ الذي به يتعيشون ولا يكون ما يؤخذ منهم يقوم بنوائب الملوك وهم قوم ليس عندهم امتناع ولذلك يقول الشاعر معاوية بن أوس وهو جاهلىّ

ورزق سبأت لذي متجر * أسيود كالرجل الاسحم

ضربتَ بفيه على نحره * وقائمه كيّد الاجذم

الى التاجر العربىّ الشحيـ * ـح أوخمر ذى النطف الطمطم

أراد بهذا كله قريشا (يقول) هم تجار وقد اعتصموا بالبيت واذا خرجوا علقوا عليهم المقل ولحاء الشجر حتى يعرفوا فلا يقتلهم أحد (وأما قوله)

ألست كليبياً وأمك نعجة * لكم فى سمان الضأن عارٌ ومفخرُ

فان بني كليب يرمون باتيان الضأن وكذلك بنو الاعرج وسليم وأشجع ترمى باتيان المعز (وقال النجاشى)

ولو شتمتني من قريش قبيلة * سوى ناكة المعزى سليمٌ وأشجع

(وقال الفرزدق)

ولست مضحيا مادمت حيا * بشاة من حلوبة أعرجيّ

فما أدرى اذا أنفقت مالى * لعل الشاة تبقر عن صبيِّ

(وقال الآخر)

اذا أحببت أن تغلى أتانا * فدلّ الدارمىّ على شراها

يقبل ظهرها ويكاد لولا * تحول الظهر يدنو من قفاها

وودّ الدارميُّ لو أن فاه * اذا ناك الحمار ينال فاها

(وقال عبد بن رشيد)

قبيله سوء خيرهم مثل شرهم * ترى منهمو للضأن فحلا وراعيا

اذا جليت فيهم عروس لبعلها * ترى النعجة البقعاء أبكى البواكيا

ولذلك قال الاخطل

فانعق بضأنك يا جرير فانما * منتك نفسك فى الخلاء ضلالا

ولذلك قال الحيقطان

ألست كليبياً وأمك نعجة * لكم في سمان الضأن عارٌ ومفخر

(أما العار) فالذى شاع عليهم من ذكر النعاج (وأما المفخر) فانه يقول اذا فخروا فخروا بالشاء ولا يبلغون الى حد أصحاب الابل * ومن مفاخر السودان والزنج والحبش مع ماذكرنا من قصيدة الحيقطان أن جرير بن الخطفي لما هجا بنى تغلب قال

لا تطلبن خؤولة في تغلب * فالزنج أكرم منهمو أخولا

غضب شيخ بن رباح شار فهجا جريراً وفخر عليه بالزنج فقال

مابال كلب مىن كليب سبنا * أن لم نوازن حاجبا وعقالا

ان امرأ جعل المراغة وابنها * مثل الفرزدق جائر قد غالى

والزنج لو لاقيتهم في صفهم * لاقيت ثم جحاجحا أبطالا

فسل ابن عمرو حين رام رماحهم * أرأى رماح الزنج ثم طوالا

نجموا زياداً بابنه وتنازلوا * لما دعوا للنزال ثم نزالا

ومربطين خيولهم بفنائهم * وربطت حولك شيّها وسخالا

كان ابن ندبة فيكمو من نجلنا * وخفافٌ المتحمل الاثقالا

وابنا زبيبة عنتر وهراسة * ما ان نرى فيكم لهم أمثالا

وسل ابن جيفر حين رام بلادنا * فرأى بغزوتهم عليه خبالا

وسليك الليث الهزبر اذا عدا * والقرم عباس علوك فعالا

هذا ابن خازم بن عجلى منهمو * غلب القبائل نجدة ونوالا

أبناء كل نجيبة لنجيبة * أسد تربب عندها الأشبالا
فلنحن أنجب من كليب خؤولة * ولأنت ألأم منهمو أخوالا
وبنو الحباب مطاعن ومطاعم * عند الشتاء إذا تهب شمالا

(أما ابن عمرو الذي ذكر) فهو حفص بن زياد بن عمرو العتكى كان خليفة أبيه على شرطة الحجاج فغلب رباح شار الزنجي على الفرات فوجه اليه حفص بن زياد فقتله رباح وقتل أصحابه واستباح عسكره (وأما ابن جيفر) فهو النعمان بن جيفر بن عباد بن جيفر بن الجلندى كان غزا بلاد الزنج فقتلوه وغنموا عسكره (ثم ذكر) ابناء الزنجيات حين نزعوا الى الزنج فى البسالة والانفة فذكر خفاف بن ندبة وعباس بن مرداس وابنى شداد عنترة الفوارس وأخاه هراسة وسليك بن السلكة فهؤلاء أشد الرجال أبدانا وأشدهم قلوبا وأشجعهم بأساً وبهم يضرب المثل * ومنهم * عبد الله بن خارم السلمى وبنو الحباب عمير بن الحباب واخوته (وكان) أيضا منهم الجحاف بن حكيم * وهم أيضا يفخرون برباح أخي بلال وحاله وصلاحه ويفخرون بعامر بن فهيرة بدرىٍّ استشهد يوم بئر معونه فرآه الناس قد رفعه الله بين السماء والارض فليس له فى الارض قبر (ومنهم) آل ياسر (قالوا) ومنا الغداف صاحب عبيد الله بن الحر لم يكن فى الارض أشدّ منه كان يقطع على القافلة وحده بما فيها من الحماة والخفراء (وكعبويه) صاحب المغيرة ابن الفزر كان مثلا فى الشجاعة (ويقولون) ومنا مريح الاشرم غلام أبي بحر القائد الذى كان قدم من الشأم أيام قتيبة بن مسلم وكان لا يرام لقاؤه وأمره مشهور (قالوا) ومنا المغلول وبنوه وهم من الخول ليس في الارض

أشرف ولا أثقف ولا أعلم بالبادية منهم (قالوا) ومنا أفلح الذي قطع على القوافل بخراسان وحده عشرين سنة (قالوا) وانما قتله مالك بن الريب لانه وطئه في جوف الليل وهو سكران حاسر والشاهد على قولنا قول ابنه

أمالك لولا السكر ايقنت انه * أخو الوَرد أو يربي على الاسد الوَرد

(قالوا) ونحن قد ملكنا بلاد العرب من لدن الحبشة الى مكة ومرّت أحكامنا فى ذلك أجمع وهزمنا ذانواس وقتلنا أقيال حمير وأنتم لم تملكوا بلادنا وقد قال شاعركم

وخرّب غمدانا وهدّم سقفه * رباط بأجناد وصولاته هصر
أطافت به الاحبوش ليلا فقوضوا * بنا شدة الافيال فى سالف الدهر
بجمع من اليكسوم سود كأنهم * أسود الشرى اجتابت جلوداً من النمر

(قالوا) ومنا كباجلالم يصعد نهر سليمان ولا قاتل في المخارجات أحد قط يشبهه (قالوا) ومنا الاربعون الذين خرجوا بالفرات أيام سوار بن عبد الله القاضى فاجلوا اهل الفرات عن منازلهم وقتلوا من أهل الابلة مقتلة عظيمة (قالوا) ومنا الذي ضرب عنق عيسى بن جعفر بعمان بمنجل بحرانى بعد أن لم يجسر عليه أحد (قالوا) والناس مجمعون على أنه ليس فى الارض أمة السخاء فيهم أعم وعليهم أغلب من الزنج وهاتان الخلتان لم توجدا قط الا في كريم وهم أطبع الخلق على الرقص والموقع الموزون والضرب بالطبل على الايقاع الموزون من غير تأديب ولا تعليم وليس فى الارض أحسن حلوقاً منهم وليس في الارض لغة أخف على اللسان من لغتهم ولا في الارض قوم أذرب ألسنة ولا أقل تمطيطاً منهم وليس في الارض قوم الا وأنت تصيب فيهم

الارت والفأفاء والعيي ومن فى لسانه حبسة غيرهم . والرجل منهم يخطب عند الملك بالزنج من لدن طلوع الشمس الى غروبها فلا يستعين بالتفاتة ولا بسكتة حتى يفرغ من كلامه . وليس في الارض أمة فيها شدة الابدان وقوة الاسر أعم منهما فيهم وان الرجل ليرفع الحجر ويحمل الحمل الثقيل الذي يعجز عنه الجماعة من الاعراب وغيرهم . وهم شجعاء أشداء الابدان اسخياء وهذه هي خصال الشرف مع حسن الخلق وقلة الاذى لا ترى أحدهم أبداً الا طيب النفس ضحوك السن حسن الظن وهذا هو الشرف (وقد قال) ناس انهم صاروا أسخياء لضعف عقولهم ولقصر رويتهم ولجهلهم بالعواقب فقلنا لهم بئس ما اثنيتم على السخاء والاثرة . وينبغي في هذا القياس ان يكون أوفر الناس عقلا وأكثر الناس علما أشد الناس بخلا وأقلهم خيراً وقد رأينا الصقالبة أبخل من الروم والروم أبعد روية وأشد عقولا . وعلى قياس قولكم كان ينبغي أن يكون الصقالبة أسخى أنفسا وأسمح أكفا منهم وقد رأينا النساء أضعف من الرجال عقولا والصبيان أضعف عقولا منهم وهم أبخل من النساء والنساء أضعف عقولا من الرجال ولو كان العقل كلما كان أشد كان صاحبه أبخل كان ينبغي أن يكون الصبي أكرم الناس خصالا ولا نعلم فى الارض شراً من صبي هو أكذب الناس وأنم الناس وأشره الناس وأبخل الناس وأقل الناس خيراً وأقسى الناس قسوة وانما يخرج الصبي من هذه الخلال أولا فأولا على قدر ما يزداد من العقل ويزداد من الافعال الجميلة فكيف صارت قلة العقل هو سبب سخاء الزنج وقد أقررتم لهم بالسخاء ثم ادعيتم ما لا يعرف وقد وقفنا كم على إدحاض حجتكم فى ذلك بالقياس الصحيح وهذا القول يوجب

أن يكون الجبان أعقل من الشجاع والغادر أعقل من الوفيّ وينبغي أن يكون الجزوع أعقل من الصبور فهذا ما لا حجة فيه لكم بل ذلك هبة في الناس من الله والعقل هبة وحسن الخلق هبة والسخاء والشجاعة كذلك (وقد) قالت الزنج للعرب من جهلكم انكم رأيتمونا لكم أكفاء في الجاهلية في نسائكم فلما جاء عدل الاسلام رأيتم ذلك فاسداً وبنا الرغبة عنا مع أن البادية منا ملآى ممن قد تزوج ورأس وساد ومنع الذمار وكنفكم من العدو (قال) وقد ضربتم بنا الامثال وعظمتم أمر ملوكنا وقدمتموهم في كثير من المواضع على ملوككم ولو لم تروا الفضل لنا في ذلك عليكم لما فعلتم (وقال النمر بن تولب)

أتى ملكه ما أتى تبعا * وأبرهة الملاك الاعظما

فرفعه على ملوك قومه (وقال لبيد بن ربيعة)

لو كان حيٌّ في الحياة مخلداً * في الدهر أدركه أبو يكسوم

وهذا شيء من وصف الفضل لم يوصف أحد بمثله (قالوا) ومما قدمتم به ملوكنا على ملوككم قولكم

غلب الليالي خلفَ آل محرّقٍ * وكما فعلن بتبعٍ وبهِرْقَلِ

وغلبن أبرهة الذي ألفينه * قد كان خلد فوق غرفة موْكلِ

فقدم ابرهة وأراد التسوية (قالوا) ومن الحبشة عكيم بن عكيم الحبشي وكان أفصح من العجاج وكان علماء أهل الشأم يأخذون عنه كما أخذ علماء أهل العراق عن المنتجع بن نبهان ، وكان المنتجع سنديا في أذنه خرتة وقع الى البادية وهو صبي فخرج أفصح من رؤبة ، فلما قال حكيم بن عياش الكلبي

لا تفخرن بخال من بني أسد * فان أكرم منها الزنج والنوب

اعترض عليه عكيم الحبشي فقال

ويوم غمدان كنا الاسد قد علموا * ويوم يثرب كنا فحلة العرب

وليلة الفيل اذ طارت قلوبهمُ * وكلهم هارب موف على قتب

منا النجاشي وذو العقصين صهركم * وجد أبرهة الحامى أبي طلب

هبني غفرت لعدنان تهكمهم * فما لحمير والمقوال في النسب

خمارة جمعت من كل محزبة * جمع الشبيكة نون الزاخر اللجب

غمدان حصن كان ينزله الملك الذي يكون على اليمن وكان عجمياً فلما ملكت الحبشة اليمن أخربته إلا بقايا هدمها عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه في الاسلام وقال ينبغي لمآثر الجاهلية أن تمحى وكان في الحصن مصنعة عليها قبة من طاق [1] وفيها يقول خلف الاحمر

ومصنعة الطلق أودى بها * عوادى الاحابيش بالصيدن

وفيها يقول قدامة حكيم المشرق وكان صاحب كيمياء

فأوقد فيها نارة ولو انها * أقامت كعمر الدهر لم تتضرم

لأن الطلق لو أوقد عليه ألف عام لم يسخن وبه يتطلى النفاطون اذا أرادوا الدخول في النار (وقال لبيد)

أصاح ترى بريقا هب وهنا * كمصباح الشعيلة فى الذبال [2]

---

(١) (طاق) الطاق بفتح الطاء وسكون اللام وحكي وزان مثل حجر براق يتشظي اذا دق صفائح وشظاياه يتخذ منها مصاوي للحمامات بدلا عن الزجاج وأجوده اليماني ثم الهندي ثم الأندلسي (٢) (الذبال) جمع ذبالة . كثمامة الفتيلة اهـ

أرقت له وأنجد بعد هدء * وأصحابي على شعب الرحال

يضيء ربابه في المزن حبشا * قياما بالحراب وبالإلال

وقال ذلك لبيد لأنهم اذا أقبلوا بحرابهم ورماحهم وقسيهم وسيوفهم وراياتهم وخيولهم وخولهم مع سواد ألوانهم وضخم أبدانهم رأيت هولا لم تر مثله ولم تسمع به ولم تتوهمه وأما قوله * ويوم يثرب كنا نخلة العرب * فان مسرف بن عقبة المريّ حين كان أباح المدينة زعموا أنه قد كان هناك أمر قبيح من السودان والجند . وفي ذلك يقول شاعر من شعراء مضر

فسائل مسرف المريّ عنكم * غداة أباح للجند العذارى

فما زجكم على حنق زنوج * وفز الشام كالأسد الضوارى

ودافع وهرز والفرس عنكم * ورأس الحبش بحكم في دمار

فأفسد نسلكم سواد لون * وأير مثل غرمول الحمار

فذكر إباحة الحبش لليمن كما ذكر إباحة مسرف للمدينة وأما قوله

خمارة جمعت من كل محزوة * جمع الشبيكة نون الزاخر اللجب

فانه ذهب الى ما تقول الرواة أن حمير كانت خمارة . وأما الشبيكة فانه أراد الشبكة . وقال السودان فهذا فضل فينا ولم يصل النبي صلى الله عليه وسلم قط على جنازة أو قبر الا النجاشي فانه عليه الصلاة والسلام صلى عليه وهو بالمدينة وقبر النجاشي بالحبشة (قالوا) والنجاشي هو كان زوّج أمّ حبيبة بنت ابي سفيان من النبي صلى الله عليه وسلم ودعا خالد بن سعيد فجعله وليها وأصدق عن النبي صلى الله عليه وسلم أربعمائة دينار (قالوا) وثلاثة أشياء جاءتكم من قبلنا . منها الغالية وهي أطيب الطيب وأفخره وأكرمه . ومنها النعش وهو استر

للنساء وأصون للحرم. ومنها المصحف وهوأوقى لما فيه وأحصن له وأبهى وأهيأ (قالوا) ونحن أهول فى الصدور وأملأ للعيون كما ان المسودة أهول في العيون وأملأ للصدور من المبيضة وكما أن الليل أهول من النهار (قالوا) والسواد أبداً أهول وان العرب لتصف الابل فتقول الصهب سرع والحمر غزر والسود بهيّ فهذا في الابل (قالوا) ودهم الخيل أبهى وأقوى والبقر السود أحسن وأبهى وجلودها أنفع وأثمن وابقى. والحمر السود أثمن وأحسن وأقوى. وسود الشاء أدسم ألبانا وأكثر زبداً والدبس أغزر من الحمر. وكل جبل وكل حجر اذا كان اسود كان أصلب صلابة وأشد يبوسة. والاسد الاسود لا يقوم له شئ. وليس من التمر شيء أحلى حلاوة من الاسود ولا أعم منفعة ولا أقوى على الدهر. والنخيل أقوى ماتكون اذا كانت سود الجذوع. وجاء عليكم بالسواد الاعظم (وقال الانصارى)

أدين وما دينى علىّ بمغرم * ولكن على الشم الطوال القراوح
على كل خوّار كأن جذوعها * طلين بقار أو بدمّ ذبائح

(قالوا) وأحسن الخضرة ماضارع السواد قال الله جل وعز ومن دونهما جنتان ثم قال لما وصفهما وشوق اليهما مدهامتان قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما خضراوان من الرى سوداوان. وليس في الارض عود أحسن خشبا ولا أغلى ثمنا ولا أثقل وزنا ولا أسلم من القوادح ولا أجدر أن ينشب فيه الخط من الابنوس ولقد بلغ من اكتنازه والتيامه وملوسته وشدة تداخله أنه يرسب فى الماء دون جميع العيدان والخشب ولقد غلب بذلك بعض الحجارة اذ صار يرسب وذلك الحجر لا يرسب

والانسان أحسن مايكون في العين مادام اسود الشعر وكذلك شعورهم في الجنة . وأكرم مافي الانسان حدقتاه وهما سوداوان . وأكرم الاكحال الاثمد وهو اسود ولذلك جاء ان الله تعالى يدخل جميع المؤمنين الجنة جرداً مرداً مكحلين . وانفع مافى الانسان له كبده التي بها تصلح معدته وينهضم طعامه وبصلاح ذلك قام بدنه والكبد سوداء . وأنفس مافى الانسان وأعزه سويداء قلبه وهي علقة سوداء تكون في جوف فؤاده تقوم فى القلب مكان الدماغ من الرأس * ومن أطيب ما فى المرأة شفتاها للتقبيل وأحسن ما تكونان اذا ضارعتا السواد (وقال ذو الرمة)

لمياء فى شفتيها حوّةٌ لعس * وفي اللثات وفى أنيابها شنب

وأطيب الظل وأبرده ما كاد أسود (وقال الراجز)

* سود غرابيب كأظلال الحجر *

(وقال حميد بن ثور)

ظللنا الى كهف وظلت ركابنا * الى مستكفات[1] لهن غروب

الى شجر ألمى الظلال كأنه * رواهب أحرمن الشراب عذوب

وجعل الله تعالى الليل سكنا وجماما والنهار للكسب والكد * والذى يدل على أن السواد فى وجه آخر مقرون بالشدة والصرامة والهيج والحركة انتشار الحيات والعقارب وشدة سمومها بالليل وهيج السباع واستكلابها بالليل وتحرك الاوجاع وظهور الغيلان هذه كلها بالليل (قالوا) وأشبهنا الليل من هذا الوجه (قالوا) وأبلغ ما تكون القائلة وأشفاها للنفس وأسرع لجمّها اذا

---

(١) (مستكفات) أى عيون سميت بذلك لانها في كهف أى نقر من الارض

أردئها وأبطأ لذهابها اذا كرهتها ما كان منها فى الظلمة عند اسبال الستور واعلاق الابواب (قالوا) وليس لون أرسخ فى جوهره وأثبت فى حسنه من سواد* وقد جرى المثل فى تبعيد الشيء لا يري ذلك حتى يبيض القار وحتي يشيب الغراب وهو العرض الملأ عند الحكماء وأكرم العطر المسك والعنبر وهما أسودان وأصاب الاحجار سودها (وقال أبو دهبل الجمحى) يمدح الازرق المخزومي وهو عبد الله بن عبد شمس بن المغيرة

فان شكرك عندى لا انقضاء له * مادام بالجزع من لبنان جلمود

أنت الممدّح والمغلى به ثمنا * اذ لا تعاتب صم الجندل السود

والعرب نفتخر بسواد اللون (فان قال قائل) فعلام ذلك وهى نقول فلان هجان وازهر وابيض وأغر (قلنا) ليس تريد بهذا بياض الجلد انما تريد به كرم الجوهر ونقاءه وقد فخرت خضر محارب بأنها سود والسود عند العرب الخضر (وقال شماخ بن ضرار)

وراحت رواحا من زرود فنازعت * زبالة جلبابا من الليل أخضرا

(وقال الراجز)

حتى انتضانى الصبح من ليل خضر * مثل انتضاء البطلِ السيفَ الذكر

نضوَ هوًى بال على نضو سفر

وهم يسمون الحديد أخضر لانه صلب لان الاخضر اسود (وقال الحارث ابن حلزة)

اذ رفعنا الجمال من سعف البحـ * ـرين سيراً حتى نهاها الحساء

فهزمنا جمع ابن أُمّ قضاع * وله فارسـية خضراء

(وقال المحاربي) وهو يفخر بأنه من الخضر

فى خضر قيس نمانى كل ذى نخو * صعب المقادة آبى الضيم شعشاع

وبنو المغيرة خضر بني مخزوم (قال) عمر بن عبد الله بن ابي ربيعة بن المغيرة المخزومي ويقال انها للفضل بن العباس اللهبي

وأنا الاخضر من يعرفني * اخضر الجلدة فى بيت العرب

من يساجلي يساجل ماجداً * يملأ الدلو الى عقد الكرب

وخضر غسان بنو جفنة الملوك (قال الغسانى)

ان الخضارمة الخضر الذين ودوا * أهل البريص نماني منهم الحكم

(وقد ذكر) حسان أو غيره الخضر من بني عكيم حين قال

ولستَ من هاشم في بيت مكرمة * ولا بني جمح الخضر الجلاعيد

(قالوا) وكان ولد عبد المطلب العشرة السادة دلما ضخما[1] نظر اليهم عامر بن الطفيل يطوفون كأنهم جمال جون[2] فقال هؤلاء تمنع السدانة. وكان عبد الله ابن عباس أدلم ضخما . وآل أبى طالب أشرف الخلق وهم سود وأدم ودلم (قالوا) وقال النبي صلى الله عليه وسلم بعثت الى الاحمر والاسود وقد علمت انه لا يقال للزنج والحبشة والنوبة بيض ولا حمر وليس لهم أسمر الا السود وقد علمنا أن الله عز وجل بعث نبيه الى الناس كافة والي العرب والعجم جميعا

---

(١) (دلما) جمع أدلم وهو الآدم والشديد السواد من الناس ومن الخيل (والضخم) بضم أوله وسكون ثانيه جمع أضخم كحمر وأحمر العظيم الجرم الكثير اللحم

(٢) (جون) بضم الجيم وسكون الواو جمع جون بفتح أوله وسكون ثانيه وهو الادهم من الابل والخيل اهـ

فاذا قال بعثت الى الاحمر والاسود ولسنا عنده حمراً ولا بيضا وقد بعث الينا فانما عنانا بقوله الاسود ولا يخرج الناس من هذين الاسمين فان كانت العرب من الاحمر فقد دخلت في عداد الروم والصقالبة وفارس وخراسان وان كانت من السود فقد اشتق لها هذا الاسم من اسمنا وانما قيل لهم وهم أدم وسمر سود حين دخلوا معنا في جملتنا كما تجعل العرب الاناث من الذكور ذكوراً واذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلم ان الزنج والحبشة والنوبة ليسوا بحمر ولا بيض وانهم سود وقد بعثه الله الى الاسود والاحمر فقد جعلنا والعرب سواء ونكون نحن السود دونهم فان كان اسم السود وقع علينا فنحن السودان الخلص والعرب أشباه الخلص فنحن المقدمون في الدعوة واذاً كان اسمهم محمولا على اسمنا اذ كنا وحدنا يقال لنا سود ولا يقال انهم سود الا ان يكونوا معنا (قالوا) وانتم ترون كثرة العدد مجداً ونحن اكثر الناس عدداً وولداً (قالوا) ونحن صنفان النمل والكلاب (قالوا) ولو عدلتم بالنمل العرب كلها لأربت عليها فكيف اذا قرنت اليها الكلاب ثم كيف اذا ضممتم اليها الحبشة والنوبة وفزان ومرو وزاغاوة وغير ذلك من أنواع السودان. وليست قحطان من عدنان في شيء. ونحن بالحبشة أشبه وأرحامنا بهم أمس من عدنان بقحطان. وان ذكرتم اختلاف اللغات فان لغة عجز هوازن على خلاف لغة فصحاء الحجاز. وقد تختلف اللغات والأصل واحد وقد تتفق والنجر مختلف. ومن دخل أوائل خراسان وأواخرها وأوائل الجبال وفارس وأواخرها علم ان اللغات قد تختلف لاختلاف طبائع البلدان والأصل واحد (قالوا) وأنتم لم تروا الزنج الذين

هم الزنج قط . وإنما رأيتم السبي يجيء من سواحل قنبلة وغياضها وأوديتها ومن مهنتنا وسفلتنا وعبيدنا وليس لاهل قنبلة جمال ولاعقول . وقنبلة اسم الموضع الذى ترقون فيه سفنكم الى ساحله . لان الزنج ضربان قنبلة ولنجوية . كما أن العرب ضربان قحطان وعدنان . وأنتم لم تروا من أهل لنجوية أحداً قط لا من السواحل ولا من أهل الجوف[1] ولو رأيتموهم نسيتم الجمال والكمال (فان قلتم) وكيف ونحن لم نر زنجيا قط له عقل صبيّ أو امرأة (قلنا) لكم ومتى رأيتم من سبي السند والهند قوماً لهم عقول وعلم وأدب وأخلاق حتى تطلبون ذلك فيما سقط اليكم من الزنج . وقد تعلمون ما فى الهند من الحساب وعلم النجوم وأسرار الطب والخرط والنجر[2] والتصاوير والصناعات الكثيرة العجيبة . فكيف لم يتفق لكم مع كثرة ما سبيتم منهم واحد على هذه الصفة وبعشر هذه الصفة (فان قلتم) أهل الشرف والعقل والعلم انما ينزلون الواسطة وقرب دار الملك وهؤلاء حاشية وأعلاج وأكرة ونزال السواحل والآجام والفيوض والجزائر من أكَّار ومن صياد (قلنا) وذلك من رأيتم ومن لم تروا منا وجوابنا هو جوابكم لنا (قالوا) ولو أن الزنجىّ والزنجية اذا تناكحا بقيت أولادهما بعد الحيض والاحتلام ببلاد العراق كانوا قد غلبوا على الدار بالعدد والجلد والعلم والتدبير . ولكن ولد الهندىّ والهندية والرومىّ والرومية والخراسانىّ والخراسانية يبقون فبكم وفى بلادكم كبقاء آبائهم وأمهاتهم ولا يبقى ولد

(١) (الجوف) قال فى القاموس الجوف المطمئن من الارض وهو بطاق على عدة مواضع منها موضع بناحية عمان وواد بأرض عاد (٢) النجر نحت الخشب

الزنجيين بعد الحيض والاحتلام . على أنا لا نصيب فى عشرة آلاف واحداً يبلغ ما ذكرت الا أن يضرب الزنجى فى غير الزنجيات والزنجية فى غير الزنج ولو لا أن الزنجى والزنجية قليلا ما يلدان من الغرائب والغرباء لكنا على كل حال سنرى لرجال الزنج نسلا كثيرا ولكن الزنجية لا تكاد تنشط لغير الزنجى" (قالوا) وكذلك البيضان منكم لا يكادون ينشطون لطلب النسل من الزنجيات . والزنجية أيضا من الزنج أسرع لقاحا منها من الابيض (قالوا) وأنتم لا تكادون تعدون ممن ولد له من صلبه مائة ولد إلا أن يكون خليفة فيكون ذلك لكثرة الطروقة ولا تجدون ذلك فى سائركم . والزنج لا تستكثر هذا ولا تستعظمه لكثرته فى بلادهم . لان الزنجية تلد نحواً من خمسين بطنا فى نحو من خمسين عاما فى كل بطن اثنين فيكون ذلك أكثر من تسعين لانه يقال إن النساء لا يلدن إذا بلغن الستين . إلا ما يحكى عن نساء قريش خاصة . والزنج أحرص من خلق الله على نسائهم . ونساؤهم لهم كذلك وهن أطيب من غيرهن (قالوا) فتأملوا قولنا واحتجاجنا فانا قد روينا الاخبار وقلنا الاشعار وعرفنا كم وعرفنا الامم . وقد كان الفرزدق أعلم الناس بالنساء وكان قد جرب الاجناس كلها فلم يجد مثلهن ولذلك تزوج أم مكية الزنجية فأقام عليها وترك النساء الذى وجد عندها وفى ذلك يقول

يا رُبَّ خود من بنات الزنج * تمشى بتنور شديد الوهج
أخثم (١) مثل القدح الخلنج

(١) الاخثم المرتفع الغايط

وكانت دنانير بنت كعبويه الزنجيّ عند أعشى سليم وكانت شديدة السواد فرآها يوما وقد خضبت يديها بالحناء وا كتحلت بالاثمد (فقال)

تخضب كفا بتكت[1] من زندها * فتخضب الحناء من مسوّدها
كأنها والكحل فى مرودها * تكحل عينها ببعض جلدها

فلما سمعت ذلك (قالت)

وأقبح من لونى سواد مجانه * على بشر كالقاب أوهو أنصع

فسموه أسود وصاح به الصبيان فطلقها. وقد كان صبيحة عرسها قال إن الدنانير تكون سوداء (فقالت)

بياض الرأس أقبح من سوادى * وشيب الحاجبين هو الفضوح

فأمسك عنها حينا ثم عاودها فلما فضحته طلقها (قالوا) وإن نظر البيضان الى نساء السودان بغير عين الشهوة فكذلك السودان فى نساء البيضان على أن الشهوات عادات وأكثرها تقليد. من ذلك ان أهل البصرة أشهى النساء عندهم الهنديّات وبنات الهنديات والاغوار. واليمن أشهى النساء عندهم الحبشيات وبنات الحبشيات. وأهل الشام أشهى النساء عندهم الروميات وبنات الروميات. وكل قوم فانما يشتهون جلبهم وسبيهم الا الشاذّ وليس على الشاذ قياس (قالوا) أطيب الافواه نكهة وأشدها عذوبة وأكثرها ريقا أفواه الزنج. والكلاب من بين السباع أطيب أفواها منها (قالوا) والسواد ملاوم للعين واذا اعتلت خيف عليها لم يكن لها دواء خير من القعود فى الظلمة وفى يد صاحبها خرقة سوداء. فالسواد

(١) بتكه يبتكه ويبتكه قطعه والبتكة بكسر الباء وفتحها القطعة من الشئ اه

للابصار وخير ما فى الانسان البصر (قالوا) والسودان أكثر من البيضان
لان أكثر ما يعد البيضان فارس والجبال وخراسان والروم والصقالبة
وفرنجة والابر وشيئا بعد ذلك قليلا غير كثير . والسودان يعدون الزنج
والحبشة وفزان وبربر والقبط والنوبة وزغاوة ومرو والسند والهند والقمار
والدبيلا والصين وماصين والبحر أكثر من البر وجزائر البحر ما بين
الصين والزنج مملوءة سوادان كسرنديب وكله وأمل وزابج وجزائرها
الى الهند الى الصين الى كابل وتلك السواحل (قالوا) وكان الاعمى الاشتيام
يقول السودان أكثر من البيضان . والصخر أكثر من الوحل . والرمل
أكثر من التراب . والماء المالح أكثر من العذب (قالوا) ومنا العرب
لا من البيضان . تقرب ألوانهم من ألواننا . والهند أسعر ألوانا من العرب وهم
من السودان . ولان النبى صلى الله عليه وسلم قال بعثت الى الاحمر والاسود
(وقد) علم الناس أن العرب ليست بحمر كما ذكرنا قبل هذا . قال فهذا
المفخر لنا وللعرب على جميع البيضان ان أحبت ذلك العرب . وان كرهته
فان المفخر لنا بالذى ذكرنا على الجميع (قالوا) ولو لم نكثركم الا بالزابج
وحدها لفضلنا كم بهم فضلا بيّنا . وذلك أن ملك الزابج إن غضب على
أهل مملكته ولم يتقوه بالخراج بعث ألف سنبوقة فى كل سنبوقة ألف
رجل على أن لا يجالدونهم ولا يقاتلونهم ولكن يأمرهم أن يقيموا أبدا فيهم
حتى يتقوهم بالخراج فيكونون ما يأكلون ويشربون ويغذون ويلبسون أضر
عليهم من مقدار الخراج المرار الكثيرة . فان اتقوهم بالخراج والا أرسل
اليهم ألف سنبوقة أخرى فلا يجد ذلك الملك بدًّا من أن يتقيه بكل

ما طلب ولا يأمن أن يغضب فيأتي عليه وعلى أهل مملكته (قالوا) ولقد
نزل ملك الزابج على خليج مرة والخليج فراسخ فى فراسخ فبينا هو على
مائدته وفى سرادقه على شاطىء الخليج اذ سمع صارخة . فقال ماهذا
وقطع الا كل قالوا امرأة سقط ابنها فى هذا الخليج فأكله التمساح .
قال وفى مكان أنا فيه شئ يشاركنى فى قتل الناس ثم وثب فاذا هو فى
الخليج فلما رأوه الناس سقطوا عن آخرهم فخضخضوه وهو فراسخ فى
فراسخ حتى أخذوا كل تمساح فيه أخذيذ. فيقال إن أهل الزابج وأغبابها
أكثر من شطر أهل الارض (قالوا) وآخر العمران كله سودان وما
استدار من أقاصى العمران أكثر من أهل الواسطة كطوق الرحى الذى
يلى الهواء الذى هو أوسع وأكثر ذرعا مما قصر عنه من ذلك الرحى وليعتبر
ذلك بالجناح المطيف لا يرى أحد ذرعه مع قلة عرضه ونجده أكثر ذرعا
من نفس الدار وليس خلف الزابج بيضان وكذلك جميع بلاد السودان
الساكنة فى الاطراف وفى آخر أطواق العمران (قالوا) فهذا دليل على أنا
أكثر . واذا كنا أكثر كنا أخير. وقد قال شاعركم

ولست بالأكثر منهم حصاً * وانما العزة للكاثر

(قالوا) والقبط جنس من السودان وقد طلب منهم خليل الرحمن الولد
فولد له منهم نبي عظيم الشأن وهو أبو العرب اسماعيل عليه السلام وطلب
النبي صلى الله عليه وسلم منهم الولد وولد له ابراهيم وكناه به جبريل (قالوا)
والحجر الاسود من الجنة . والنحاس إذا اشتد سواده كان أثمن وأجود.
فمن استنكر لون السواد فما فى فرنجة والروم والصقالبة من افراط سبوطة

الشعر والرقة والصهوبة والحمرة فى شعر الرأس واللحية وبياض الحواجب والاشفار أقبح وأسمج. وليس فى السودان مُغرَب ليس المغرب الا فيكم ولا سواء من لم تنضجه الارحام ومن جازت به حد التمام (قالوا) ولنا بعد معرفة بالتفلسف والنظر ونحن أثقف الناس ولنا فى الاسرار حجة. ونحن نقول إن الله تعالى لم يجعلنا سوداً تشويها بخلقنا ولكن البلد فعل ذلك بنا . والحجة فى ذلك أن فى العرب قبائل سوداً كبنى سليم بن منصور وكل من نزل الحرّة من غير بنى سليم كلهم سود وانهم ليتخذون المماليك للرعى والسقاء والمهنة والخدمة من الاشبانيين ومن الروم نساءهم فما يتوالدون ثلاثة أبطن حتى تنقلهم الحرة الى ألوان بنى سليم . ولقد بلغ من أمر تلك الحرة أن ظباءها ونعامها وهوامها وذئابها وثعالبها وشاءها وحميرها وخيلها وطيرها كلها سود. والسواد والبياض انما هما من قِبَل خلقة البلدة وما طبع الله عليه الماء والتربة. ومن قِبَل قرب الشمس وبعدها وشدة حرها ولينها . وليس ذلك من قبل مسخ ولا عقوبة ولا تشويه ولا تفضيل. على ان بلاد بنى سليم تجرى مجرى بلاد الترك. ومن رأى إبلهم ودوابهم وكل شئ لهم رآه شيئاً واحداً وكل شيء لهم تركيّ المنظر وربما رأى الغزاة دون العواصم اخلاط غنم الروم فلا يخفى عليهم غنم الروم من غنم الشام للرومية التى يرونها فيها . وقد ترى الناس أبناء الاعراب والاعرابيات الذين وقعوا الى خراسان فلا تشك أنهم علوج القرى وهذا موجود فى كل شئ. وقد نرى جراد البقل والريحان وديدانهما خضراً. ونرى قمل رأس الشاب سوداً. ونراها إذا ابيض رأسه بيضاء. ونراها إذا

خُضب حمراً . فليس سوادنا معشر الزنج الا كسواد بنى سليم ومن عددنا عليكم من قبائل العرب فى صدر هذا الكلام . وما افراط سواد من اسود من الناس كافراط بياض من ابيض من الناس . وكذلك السمرة المتولدة من بينهما . وكذلك الزىّ والهيئات . وكذلك الصناعات . وكذلك المطاعم والشهوات . وقد ذكر الشاعر حين مدح أسيلم بن الاحنف الاسدىّ سواد اليمانية (فقال)

أسيلم ذاكُم لا خفاً بمكانه * لعين تداحى أو لأذن تسمّعُ
من النفر الشمّ الذين اذا انتموا * وهاب الرجال حلقة الباب قعقعوا
جلى الاذفر الاحوي من المسك فرقه * وطيب الدهان رأسه وهو أنزع
اذا النفر السود اليمانون حاولوا * له حوك[1] برديه أرقوا وأوسعوا

وقد عاب بعض البيضان عبد بنى جعدة بلونه (فقال)

قد عاب لونى أقوام فقلت لهم * ما عاب لونى الا مفرط الحمق
ان كان لونى فيه دعجة[2] كلف * حزن الاهاب فانى أبيض الخلق
أرضي الصديق وأحمى الظعن معترضا * صدر القناة وأكنى كنة السرق

وكانت امرأة عمرو بن شاس تجفوا عرار بن عمرو وكان ابن سوداء (فقال) عمرو بن شاس فى ذلك وفى صفة أبنا الحبشيات والزنجيات

ألم يأتها أنى صحـــوت وأننى * تخشعت حتى ما أعارم من عرم
وأطرق إطراق الشجاع ولو يرى * مساغا لنا بيـه الشجاع لقـد أزم[3]

(١) قال فى المختار حاك الثوب نسجه وبابه قال اه (٢) الدعج شدة السواد
(٣) أزم عن الشئ أمسك عنه اه

أرادت عراراً بالهوان ومن يرد * عراراً لعمرى بالهوان فقد ظلم
فان عراراً إن يكن غير واضح * فانى أحب الجون ذا المنكب العمم
فان كنت منى أو تحبين شيمتى * فكونى له كالسمن رُبَّت له الأَدم
وإلا فبينى مثل ما بان راكب * يزود خمسا ليس فى سيره أتم[1]

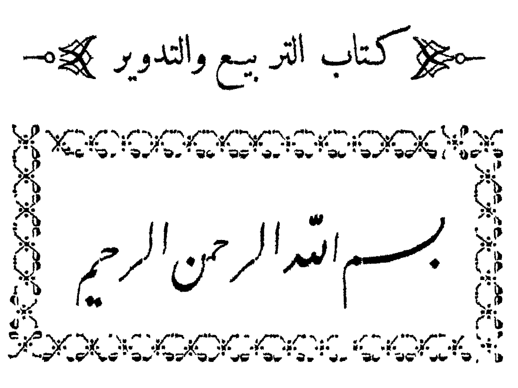
(وأما) الهند فوجدناهم يقدمون فى النجوم والحساب ولهم الخط الهندى خاصة ويقدمون فى الطب ولهم أسرار الطب وعلاج فاحش الادواء خاصة ولهم خرط التماثيل ونحت الصور بالاصباغ تجد من المحاريب وأشباه ذلك ولهم الشطرنج وهى أشرف لعبة وأكثرها تدبيرا وفطنة ولهم السيوف القلعيّة وهم ألعب الناس بها وأحذقها ضربا بها ولهم الرقى النافذة فى السموم وفى الاوجاع ولهم غناء معجب ولهم الكنكلة وهى وتر واحد يمر على قرعة فيقوم مقام أوتار العود والصنج ولهم ضروب الرقص والخفة ولهم الثقافة عند الثقاف خاصة ولهم معرفة المناصفة ولهم السحر والتدخين والدمازكية ولهم خط جامع لحروف اللغات وخطوط أيضا كثيرة ولهم شعر كثير وخطب طوال وطب فى الفلسفة والادب وعنهم أخذ كتاب كليلة ودمنة ولهم رأى ونجدة وليس لاحد من أهل الصين مالهم ولهم من الرأى الحسن والاخلاق المحمودة مثل الاخلة والقرن والسواك والاحتباء والفرق والخضاب وفيهم جمال وملح واعتدال وطيب عرق والى نسائهم تضرب الامثال ومن عندهم جاؤا الملوك بالعود الهندىّ الذى لايعدله عود ومن عندهم خرج علم الفكر

(١) المأتم عند العرب نساء يجتمعن فى الخير والسرو جمعه مآتم وفى المصيبة اه

وما اذا يكلم به على السم لم يضر . وأصل حساب النجوم من عندهم أخـذه
الناس خاصة . وآدم عليه السلام انما هبط من الجنة فصار ببلادهم (قالوا)
ومن مفاخر الزنج حسـن الخلق وجودة الصوت وانك لتجد ذلك فى
القيان إذا كنَّ من بنات السـند وخصلة أخرى انه لا يوجد فى العبيد
أطبـخ من السـند هو أطبع على طيب الطبـخ كله ومن مفاخرهم أن
الصيارفة لا يولُّون أكيستهم و بيوت صروفهم الا السند وأولاد السـند
لانهم وجدوهم أنفذ فى أمور الصرف وأحفظ وآمن ولا يكاد أحد أن
يجد صاحب كيس صيرفى ومفاتيحه ابن رومىّ ولا ابن خراسانىّ . ولقد
بلغ من تبرك التجار بهم أن صيارفة البصرة و بنادرة البربهارات لما رأوا
ما كسب فرج أبو روح السندى لمولاه من المال والارضـين اشـترى
كل امرئ منهم غلاما سنديا طمعا فيما كسب أبو روح لمولاه (قال)
كان عبد الملك بن مروان يقول الادغم سيد أهل المشرق يعنى عبيد الله
ابن أبى بكرة وكان أشد السودان سوادا واياه يعـنى عبد الله بن خازم
حيث يقول * حبشىّ حبشته حبشه *
فهذا جملة ما حضرنا من مفاخر السودان . وقد قلنا قبل هذا فى مفـاخر
قحطان وسنقول فى فخر عدنان على قحطان فى كثير مما قالوا إن شاء الله

(تم كتاب فخر السودان على البيضان وهو الرسالة الرابعة
من رسائل العلامة الجاحظ ويليه كتاب التربيع
والتدوير وهو الرسالة الخامسة له أيضاً)

كتاب التربيع والتدوير



قال عمرو بن بحر الجاحظ كان أحمد بن عبد الوهاب مفرط القصر ويدعى انه مفرط الطول وكان مربعا وتحسبه لسعة جفرته[1] واستفاضة خاصرته مدورا وكان جعد الاطراف قصير الاصابع وهو فى ذلك يدعى السباطة والرشاقة وأنه عتيق الوجه أخمص البطن معتدل القامة تام العظم وكان طويل الظهر قصير عظم الفخذ وهو مع قصر عظم ساقه يدعى انه طويل الباد[2] رفيع العماد عادىّ القامة عظيم الهامة قد أعطى البسطة فى الجسم والسعة فى العلم وكان كبير السن متقادم الميلاد وهو يدعى انه معتدل الشباب حديث الميلاد وكان ادعاؤه لاصناف العلم على قدر جهله بها وتكلفه للابانة عنها على قدر غباوته عنها وكان كثير الاعتراض لهجا بالمراء شديد الخلاف كلفا بالمجاذبة متتايعا فى العنود مؤثرا للمغالبة مع اضلال الحجة والجهل بموضع الشبهة والخطرفة عند قصر الزاد والعجز عند التوقف والمحاكمة مع الجهل بثمرة المراء ومغبة فساد القلوب ونكد

(١) قال في المختار جفر جنباه اتسعا (٢) الباد باطن الفخذ اه كتبه مصححه

الخلاف وما فى الخوض من اللغو الداعى الى السهو وما فى المعاندة من الاثم الداعى الى النار وما فى المجاذبة من النكد وما فى التغالب من فقدان الصواب. وكان قليل السماع غمرا [1] وصحفيا غفلا لا ينطق عن فكر وثيق باول خاطر ولا يفصل بين اعتزام الغمر واستبصار المحق يعد أسماء الكتب ولا يفهم معانيها ويحسد العلماء من غير أن يتعلق فيهم بسبب وليس فى يده من جميع الآداب إلا الانتحال لاسم الادب فلما طال اصطبارنا حتى بلغ المجهود منا وكدنا نعتاد مذهبه ونألف سبيله رأيت أن أكشف قناعه وأبدى صفحته للحاضر والبادى وسكان كل ثغر وكل مصر بأن أسأله عن مائة مسئلة أهزأ فيها وأعرف الناس مقدار جهله وليسأله عنها كل من كان فى مكة ليكفوا عنا من غربه وليردوه بذلك الى ماهو أولى به كانه لم يسمع بقولهم إذا عز أخوك فهن ولم يسمع بقول النبي صلى الله عليه وسلم فى السائب بن صيفى هذا شريكى الذى لا يشارى ولا يمارى. ولا بقول عثمان إذا كان لك صديق فلا تماره ولا تشاره. ولا بقول ابن أبى ليلى لا أمارى أخى اما أن أكذبه واما أن أغضبه . ولا بقول ابن عمر لا يصيب الرجل حقيقة الايمان حتى يترك المراء وهو محق وكأنه لم يسمع بقول الشاعر

خلافا علينا من فيالة رأيه * كما قيل قبل اليوم خالف فتذكرا

ولم يسمع بقول الاول

* رآه معدًّا للخلاف البيت *

---

(١) (قوله غمرا) بسكون الميم وضمها أى لم يجرب الامور اه كتبه مصححه

ولا بقول الآخر

لنا صاحب مولع بالخلاف * كثير المراء قليل الصواب
ألجّ لجاجا من الخنفساء * وأزهى اذامامشى من غراب

وقالوا فلان أخلف من بول الجمل ولذلك قال الشاعر

وأخلف من بول البعير فانه * اذا قيل للاقبال أقْبَلَ أدبرا

قال رجل لزهير البابي أين نبت المراء قال عند أصحاب الاهواء. وقال عمر بن عبد العزيز من جعل دينه عرضا للخصومات أكثر التنقل. وكان عمر بن هبيرة يقول اللهم إنى أعوذ بك من المراء وقلة خيره ومن اللجاج وتندم أهله . وقال بعض المذكورين اللهم انا نعوذ بك من المراء وقلة خيره وسوء أثره على أهله فانه يهلك المروءة ويذهب المحبة ويفسد الصداقة ويورث القسوة ويضرى على القحة حتى يصير الموجز خطلا(١) والحليم نزقا(٢) والمتوقى خبوطا والصدوق كذوبا . والمراء من أسباب الغضب وأقرب ما يكون الرجل من غضب الله إذا غضب كما أنه أقرب ما يكون من رحمة الله اذا سجد لقول الله عز وجل واسجد واقترب. وقال لقمان لابنه إياك والمراء فانه لا تعقل حكمته ولا تؤمن لهجته . وقال آخر المراء غضبة والصمت حكمة ولو كان المراء خلا والفخر أما ما ألقحا إلا الشر . وقال الشعبي إنى لاستحيي من الحق أن أعرفه ثم لا أرجع اليه . وقال ابن عيينة قال الحسن مارأيت فقيها قط يدارى ولا يمارى إنما

(١) الخطل المطلق الفاسد المضطرب (٢) النزق الحمق والطيش اهـ كتبه مصححه

ينشر حكمته فان قُبلت حمد الله وإن رُدت حمد الله. عن إبراهيم بن اسماعيل بن عائذ بن المبارك بن سعيد قال قال مجاهد صحبت رجلا من قريش ونحن نريد الحج فقلت له يوما هلم نتفاتح الرأى فقال دع الود كما هو فعلمت والله أن القرشى قد غلبنى. وقال إسحاق الموصلى كثرة الخلاف حرب وكثرة المتابعة غش

(بسم الله الرحمن الرحيم) أطال الله بقاءك وأتم نعمته عليك وكرامته لك قد علمت حفظك الله أنك لا تحسد على شئ حسدك على حسن القامة وضخم الهامة وعلى حور العين وجودة القد وعلى طيب الاحدوثة والصنيعة المشكورة وان هذه الامور هى خصائصك التى بها تكلف ومعانيك التى بها تلهج وانما يحسد أبقاك الله المرء شقيقه فى النسب وشفيعه فى الصناعة ونظيره فى الجوار على طارف قدره أو تالد حظه أو على كرم فى أصل تركيبه ومجارى أعراقه وأنت تزعم أن هذه المعانى خالصة لك مقصورة عليك وأنها لا تليق إلا بك ولا تحسن إلا فيك وأن لك الكل وللناس البعض وأن لك الصافى ولهم المشوب هذا سوى الغريب الذى لا نعرفه والبديع الذى لا نبلغه فما هذا الغيظ الذى انضجك وما هذا الحسد الذى أكمدك وما هذا الاطراق الذى قد اعتراك وما هذا الهمّ الذى قد أضناك وهل رأيت أخسر صفقة ولا أوهن قوة ممن يجرى العتاق مع الكوادن والروائع مع الحواسر. وممن حاكم من يسالمه وجاذب من يقلده وهل رأيت مكينا يقاق ومصنوعا له يسخط وهل زدت على أن أطمعت فى نفسك ومكنت للشبهة فى أمرك وأنشأت للخامل ذكراً وللاوضع قدراً

إنك لاتعرف الامور مالم تعرف أشباهها ولا عواقبها ما لم تعرف أقدارها ولن يعرف الحق من يجهل الباطل ولا يعرف الخطأ من يجهل الصواب ولا يعرف الموارد من يجهل المصادر فانظر لم تسالمت النفوس مع تفاوت منازلها ولم تجاذبت عند تقارب مراتبها ولم اختلف الكثير واتفق القليل ولم كانت الكثرة علة للتخاذل والقلة سبباً للتناصر ومافرق مابين المجاراة والتحاسد وبين المنافسة والتغالب فانك اذا عرفت ذلك استرحت منا ورجوت أن نستريح منك وكيف يعرف السبا من يجهل المسبب وكيف يعرف الوصل من يجهل الفصل وكيف يعرف الحجة من الشبهة والغدر من الحيلة والواجب من الممكن والمعقول من الموهوم والمحال من الصحيح والاسرار المجهولة من ذوات الدلائل الخفية وما يعلم مما لا يعلم وما يعلم باللفظ دون الاشارة مما لا يعلم الا بالاشارة دون اللفظ وما يعلم معتقدا ولا يعلم مكينا ممايعلم مكينا ولايعلم معتقدا وما المستغلق الذي يجوز أن يفارقه استغلاقه والمستبهم الذي لا يفارقه استبهامه ومن هو طائر مع العوام حيث طارت وساقط معها حيث سقطت مع الزراية [1] عليها والرغبة عنها قد ظلمها بفضل ظلمه لنفسه وجرى معها بقدر مناسبتها لقدره فاعرف الجنس من الصنف والقسم من النصف وفرق ما بين الذم واللوم وفصل ما بين الحمد والشكر وحد الاختيار من الامكان والاضطرار من الايجاب وسنعرفك من جملة ما ذكرنا باباً أنت اليه أحوج وهو علينا أرد (إعلم)

---

(١) زرى عليه فعله عابه يزرى زراية بوزن حكاية والازراء التهاون بالسيء يقال ازري به اذا قصر به وازدراه أى حقره اه كتبه مصححه

أن الحسد اسم لمافضل عن المنافسة كما أن الجبن اسم لما فضل عن التوقّي والبخل اسم لما قصر عن الاقتصاد والسرف ما جاوز الجود. وأنت جعلت فداك لاتعرف هذا ولو أدخلك الكير[1] ونفخت عليك الى يوم ينفخ فى الصور وهل فى الارض اقرار أثبت أو دليل أوضح أو شاهد أصدق من شاهدى على ماادعيت لنفسك من الرفعة مع ماظهرمن حسدك لأهل الضعة وهل تكون بعد ذلك الا فاسد الحس ظاهر العنود أو جاهلا بالمحال. وبعد أبقاك الله فأنت فى يدك قياس لاينكسر وجواب لاينقطع ولك حدّ لا يفل وغرب لاينثنى وهو قياسك الذى اليه تنسب ومذهبك الذى اليه تذهب أن تقول وما علىّ ان رآنى الناس عريضاً وأكون فى حكمهم غليظا وأنا عند الله طويل جميل وفي الحقيقه مقدود رشيق . وقد علموا أبقاك الله ان لك مع طول البادّ راكباً طول الظهر جالسا ولكن بينهم فيك اذا قمت اختلاف وعليك لهم اذا اضطجعت مسائل ومن غريب ما أعطيت وبديع ما أوتيت انا لم نر مقدودا واسع الجفرة غيرك ولا رشيقاً مستفيض الخاصرة سواك فأنت المديد وأنت البسيط وأنت الطويل وأنت المتقارب فياشعرا جمع الاعاريض وياشخصا جمع الاستدارة والطول بل ما يهمك من أقاويلهم ويتعاظمك من اختلافهم والراسخون فى العلم والناطقون بالفهم يعلمون أن استفاضة عرضك قد أدخلت الضيم على ارتفاع سمكك وأن ما ذهب

---

(١) قوله الكير في المختار كير الحداد منفخة من زق أو جلد غليظ ذو حافات والكور كوره المبني من الطين اه كتبه مصححه

منك عرضاً قد استغرق ماذهب منك طولا ولئن اختلفوا فى طولك لقد اتفقوا فى عرضك واذ قد سلموا لك بالرغم شطراً ومنعوك بالظلم شطراً فقد حصلت ماسلّموا وأنت على دعواك فيما لم يسلِموا ولعمرى إن العيون لتخطئ وإن الحواس لتكذب وما الحكم القاطع الا للذهن وما الاستبانة الصحيحة الا للعقل اذ كان زماما على الاعضاء وعيارا على الحواس ومما يثبت أيضا أن ظاهر عرضك مانع من إدراك حقيقة طولك قول أبى دواد الايادي فى إبله

سمنت واستحش أكرعها * لاالنيُّ نيٌّ ولاالسّنام سنام

وقول رافع بن هريم

أدقّ شواها عند بُهْرة جوفها * سنام كقصر الهاجرى مُقرمدُ

ولو لم يكن من العجب الا أنك أول من تعبده الله بالصبر على خطاء الحس وبالشكر على صواب الذهن لقد كنت فى طولك آية للسائلين وفى عرضك منارا للمضلين. وقد تظلم المربوع مثلى من الطويل مثل محمد ومن القصير مثل أحمد اذ زعم محمد أنه إنما أفرط فى الرشاقة ونسب الى القضافة [1] لان افراط طوله غمر الاعتدال من عرضه. وزعم أحمد انه انما أفرط فى العرض ونسب الى الغلظ لان افراط عرضه غمر الاعتدال من طوله وكلاهما يحتاج الى الاعتذار ويفتقر الى الاعتلال والمربوع بحمد الله قد اعتدلت أجزاؤه فى الحقيقة كما اعتدلت فى المنظر فقد استغنى بعز الحقيقة عن الاعتذار وبحكم الظاهر عن الاعتلال. وقد سمعنا من يذم الطوال كما

(١) القضافة النحف اهـ

سمعنا من يزرى على القصار ولم نسمع أحداً ذم المربوع ولا أزرى عليه ولا وقف عنده ولا شك فيه ومن يذمه الا من ذم الاعتدال ومن يزرى عليه إلا من أزرى على الاقتصاد ومن ينصب للصواب الظاهر الا المعاند ومن يمارى فى العيان الا الجاهل بل من يزرى على أحد بتفاقم التركيب وبسوء التنضيد مع قول الله جل ثناؤه (ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت) فأى قد أردى وأى نظام أفسد من عرض مجاوز للقدر وطول مجاوز للقصد ومتى لم يضرب العرض بسهمه على قدر حقه ويأخذ الطول من نصيبه على مثل وزنه خرج الجسد من التقدير وجاوز التعديل . واذا خرج من التقدير تفاسد واذا جاوز التعديل تباين ولئن جاز هذا الوصف وحسن هذا النعت كان لقاسم التمار من الفضيلة ما ليس لاحمد بن عبد الوهاب . وهذا كله بعد أن يصدقوك على ما ادعيت لطولك فى الحقيقة واحتججت به لعرضك فى الحكومة على أنك باعلالك لما ينفيه العيان واستشهادك لما تنكره الاذهان متعرض للصدق من المتكرم ومتحكك بالحكم من المتغافل وأى صامت لا ينطقه هذا المذهب وأى ناطق لا يغرى به هذا القول واذا كان هذا ناقضا لعزم المتسلم فما ظنك بمادة المتكلف . فأنشدك الله أن تغرى بك السفهاء أو تنقض عزائم الحكماء وما أدرى حفظك الله فى أى الامرين أنت أعظم اثما وفى أيهما أنت أفحش ظلما أبتعرضك للعوام أم بافسادك حكم الخواص . وبعد فما يحوجك الى هذا وما يدعوك اليه وأشباهك من القصار كثير ومن ينصرك منهم غير قليل . وقد رأيتك زمانا تحتج

وأن تعقدك سماح رجال منصفين وما أظنك صرت الى معارضة الحجة بالشبهة ومقابلة الاختيار بالاضطرار واليقين بالشك واليقظة بالحلم الا للذى خُصصتَ به من ايثار الحق وألهمتَه من فضيلة الانصاف حتى صرت أحوجَ ما تكون الى الانكار أذعن ما تكون بالاقرار وأشد ما تكون الى الحيلة فقراً أشد ما تكون للحجة طلباً الا أن ذلك بطرف ساكن وصوت خافض وقلب جامع وجاش رابط وبنية حسنة وارادة تامة مع غفلة كريم وفطنة عليم ان انقطع خصمك تغافلت وان خرف ترفقت غير منخوب ولا متشغب ولا مدخول ولا مشترك ولا ناقص النفس ولا واهن العزم ولا حسود ولا منافس ولا مغالب ولا معاقب تقل الحز [1].. وتصيب الفصل وتقرب البعيد وتظهر الخفى وتميز الملتبس وتخلص المشكل وتعطى المعنى حقه من اللفظ كما تعطى اللفظ حقه من المعنى وتحب المعنى اذا كان حيا يلوح وضاهراً يصيح وتبغضه مستهلكا بالتعقيد ومستورا بالغريب. وتزعم أن شر الالفاظ ما غرق المعانى وأخفاها وسترها وعماها وان راقت سمع الغمر [2] واستمالت قلب الريض أعجب الالفاظ عندك مارق وعذب وخف وسهل وكان موقوفا على معناه ومقصوراً عليه دون ماسواه لا فاضل ولا مقصر ولا مشترك ولا مستغلق قد جمع خصال البلاغة واستوفى خلال المعرفة فاذا كان الكلام على هذه

(١) الحز المرض فى الشئ والواحدة حزة وحزه قطعه اه

(٢) الغمر بسكون الميم وضمها هو الرجل الذي لم يجرب الامور وبابه طرف وبوزن الجمر الشئ الكثير اه كتبه مصححه

الصفة وألف على هذه الشريطة لم يكن اللفظ أسرع الى السمع من المعنى الى القلب وصار السامع كالقائل والمتعلم كالمعلم وخفّت المؤونة واستُغنى من الفكرة وماتت الشبهة وظهرت الحجة واستبدلوا بالخلاف وفاقا وبالمجاذبة موادعة وتهنّؤا بالعلم وتشفوا ببرد اليقين واطمأنوا بثلج الصدور وبان المنصف من المعاند وتميز الناقص من الوافر وذل المخطل وعز المحصل وبدت عورة المبطل وظهرت براءة المحق (وقلت) والناس وان قالوا فى الحسن كأنه طاقة ريحان وكأنه خوط بان وكأنه قضيب خيزران وكأنه غصن بان وكأنه رمح رديني وكأنه صفيحة يمانية وكأنه سيف هند وانى وكأنها جان وكأنها جدل عنان. فقد قالوا كأنه المشترى وكأن وجهه دينار هرقلى وما هو الا البحر وما هو الا الغيث وكأنه الشمس وكأنها دارة قمر وكأنها الزهرة وكأنها درة وكأنها غمامة وكأنها مهاة . فقد تراهم وصفوا المستدير والعريض بأكثر مما وصفوا به القضيف والطويل (وقلت) وجدنا الافلاك وما فيها والارض وما عليها على التدوير دون التطويل كذلك الورق والتمر والحب والثمر (وقلت) والرمح وان طال فان التدوير عليه أغلب لان التدوير قائم فيه موصولا ومفصلا والطول لا يوجد فيه الا موصولا وكذلك الانسان وجميع الحيوان (وقلت) ولا يوجد التربيع الا فى المصنوع دون المخلوق وفيما أكره على تركيبه دون ماخلى وسوّم طبيعته وعلى أن كل مربع ففى جوفه مدور فقد بان المدور بفضله وشارك المطول فى حصته ومن العجب أنك تزعم أنك طويل فى الحقيقة ثم تحتج الاستدارة والعرض فقد أضربت عما عند الله صفحا ولهجت بما عند الناس . فأما حور العين

فقد انفردت بحسنه وذهبت ببهجته وملحه الا ما أبانك الله به من الشكلة فانها لاتكون فى اللئام ولا تفارق الكرام وقال الشاعر

ولاعيب فيها غير شكلة عينها * كذاك عتاق الطير شكل عيونها

وقال آخر

وشكلة عين لو حييت ببعضها * لكنت مكان النجم مرأى ومسمعا

فأما سواد الناظر وحسن المحاجر وهدب الاشفار ورقة حواشى الاجفان فعلى أصل عنصرك ومجارى أعراقك وأما ادراكك الشخص البعيد وقراءتك الكتاب الدقيق ونقش الخاتم قبل الطبع وفهم المشكل قبل التأمل مع وهن الكبر وتقادم الميلاد ومع تخوّن الايام وتنقّص الازمان فمن توتياء الهند وترك الجماع ومن الحمية الشديدة وطول استقبال الخضرة فأنت ياعم حين تصلح ما أفسد الدهر وتسترجع ما أخذت منك الايام لكما قال الشاعر

عجوز ترجى أن تكون فتية * وقد لحب[1] الجنبان واحدودب الظهر
تدس الى العطار ميرة أهلها * وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر

وكيف أطمع فى نزوعك بعد اللجاج وقد منعتنيه قبله وكيف أرجو اقرارك جهراً وقد أبيته سراً وكيف تجود به صحيحا مُطمعا وقد بخلت به مريضاً موئسا وكيف يرجو خيرك من يراك تطاول أبا جعفر وتخاشنه وتنافره وتراهنه ثم لاتفعل ذلك الا فى المحافل العظام وبحضرة كبار الحكام ثم تستغرب ضحكا من طعمه فيك وتُعجب الناس من مجاراته

---

(١) لحب كفرح أنحله الكبر اه كتبه مصححه

لك وأشهد بعد أنك تخاشن عمرو بن بحر الجاحظ وتعاقله ثم تظارفه وتطاوله وتغنى مع مخارق وتنكر فضل زُرزُر وتستجهل النظام وتستبرد الاصمعي وتستغبي قيس بن زهير وتستخف الاحنف بن قيس وتبارز أبا الحسن على بن أبي طالب رضى الله عنه ثم تخرج من حد الغلبة الى حد المراء ومن حدالاحياء الى حدود الموتى هذاوليس لك مساعد ولا معك شاهد واحد ولا رأيت أحداً يقف فى الحكم عليك أو ينظر تحقيق دعواك ولا رأيت مبصراً يخليك من التأنيب ولا مؤنباً يخليك من الوعيد ولا متواعداً يخليك من الايقاع ولا موقعاً يرثى لك ولا شافعاً يشفع فيك ياعم لم تحملنا على الصدق ولم تجرعنا مرارة الحق ولم تعرضنا لاداء الواجب ولم تستكثر من الشهود عليك ولم تحمل الاخوان على خلاف محبتهم لك قبل اجعل بدل ماتجنى على نفسك أن تجنى على عدوك وبدل ماتضطر الناس الى أن يصدقوا فيك أن تضطرهم الى أن يمسكوا عنك ولم ولا بد يرحمك الله لمن فاته الطول من أن يلقى بيده الى التهلكة أو من أن يقول بخلاف مايجد فى نفسه فو الله انك لجيد الهامة وفى ذلك خلف من حسن القامة وانك لحسن الخط وفى ذلك عوض من حسن اللفظ وانك لقليل الشيب قليل البول وانك لتجدّ مقالا وانك لتعد خصالا افقل معروفا فانا من أعوانك واقتصد فانا من أنصارك وهات فانك لو أسرفت لقلنا قد اقتصدت ولو جرت لقلنا قد اهتديت ولكنك تجئ بشئ تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا ولو غششناك لساعدناك ولو نافقناك لاغريناك ولو بماعذرتك ولأن جانبي لك فأقول خرف

الشيخ اذا كان جادا وعبث ان كان هازلا وقد يعجل الخرف الى أحدث منك سنا ويبطئ عن أطول منك عمراً بل من هذا الذى يعدّ من السنين ماتعدّ وبلغ من الكبر مابلغتَ وعند من يدرك هذا العلم الا عند النجوم أو عند ابليس الرجيم بل من يعرف ذلك الا فاطر السموات والارض لو عرفت عقبانٍ خطفة ونسور السراة وأحناش الرمل وعير العانة وورشان الغابة وشيوخ اليمامة وهرمي فرغانة انك لاتعد عمر نوح عمراً ولا النجوم يوما وانك قد فتّ التاريخات وجزت حساب الباورات (١) واستقللت الاحقاب وخرجت من خطوط الهند لَمَا استطالتِ بأعمارها ولا فرحت بطول أيامها فياعقيدَ الفلك كيف أمسيت ويا قوة الهيولى كيف أصبحت ويا نسر لقمان كيف ظهرت ويا أقدم من دوس ويا أسن من لُبد ويا صفيّ المستقر ويا صاحب المسند حدثنى كيف رأيت الطوفان ومتى كان سيل العرم ومذ كم مات عوج ومتى تبلبلت الالسن وما حبَس غرابَ نوح وكم لبثتم فى السفينة ومذ كم كان زمان الختان ويوم السلان ويوم خزاز ووقعة البيداء. هيهات أين عاد وثمود وأين طسم وجديس وأين أميم ووبار وأين جرهم وجاسم أيامَ كانت الحجارة رطبة واذ كل شئ ينطق ومذ كم ظهرت الجبال ونضب الماء عن النجف وأى هذه الاودية أقدم أنهر بلخ أو النيل أم الفرات أم دجلة أو جيحان أم سيحان أم مهران وأين تراب هذه الاودية وأين طين ما بين سفوح الجبال الى أعاليها فى أى بحر كبست وأى هبطة

(١) البور الرجل الفاسد الهالك الذي لا خير فيه اه كتبه مصححه

أشحنت وكم نشأ لذلك من أرض وحدث من عين • جعلت فداك من أبو جـرهم ومن رهط الدجال وهـل تعرف له شبيها • أين طويس وماقصـة ابن صائد وممن سوشى المنتظر (وخبرنى) عن هرمس أهو ادريس وعن أرميا أهو الخضر وعن يحـيي بن زكريا أهو ايلياء وعن ذى القرنين أهو الاسكندر ومن أبوه ومن أمـه ومن قيرى وعيرى ومن جلنـدى ومن أولاد الناس من السـعالى وما الحوش من الابل (وخبرنى) عن قحطان ألعابر هوأم لاسماعيل • وعن قضاعة ألمعدّ بن عدنان أم لملك من حمير • ومتى تخزعت خزاعة ومتى طوت المناهل طىّ • ومن ابن بنصر وما نلك السبيل وما قصة الزهرة وما شأن سهيل وما القول فى هاروت وماروت وما شأن الاربيانة وما قصـة الفأرة وجرم الوزغة وما احسان الحمامة وما تفريط العظاية وما حصب الضفادع وما تسبيح الصرد وماعداوة مابين الديك والغراب وماصداقة مابين الجن والارضة ومن أين لها الماء وما بلغ من عقل الهدهد وأين قبر أمه ولم نتنت ريحه (وخبرنى) عن الامة التى مسخت ثم فقدت ممن كانت والى أى شئ صارت آخذت برا أم بحراً فان كانت بحرية أفهى الجرىّ وان كانت برية أفهي الضباب وما آوى وما حبين وما عرس وما أوبر وما وردان وما قصة الطرائيث وما سبب كون السنانير وما علة خلق الخنزير وكيف اجتمع فى الذبابة سم وشفاء وكيف لم يقتل الافعى سمها وكيف لم يحرق الشمس ماعند قرصها (وخبرنى) عن الابدال أهم اليوم بالعرج أم ببيسان أم كما كانوا متفرقين (وخبرنى) أكلهم موال أم كلهم عرب أم هم أخلاط

وما فعل صاحب انطاكية ولم أقيم سلمان بعد بلال أو من جعل بعد سلمان
ومن عشائرهم وأين دورهم وأين أهلوهم وكيف لم يتقدموهم ويتفقدوهم
وكيف صارت بيسان لسان الارض يوم القيامة وكيف صارت كبد
الحوت أول طعام أهل الجنة ولم تسمى يونانا وهل الرجفة من حركته
وهل الزلزلة من تنقله وما الخسف وكيف شاهدت المسخ على طول
الايام انقلبت خلقتهم أم صار ذلك ضربة واحدة وهل عاشوا أم أبلسوا
أو تركوا ثلاثا ثم أبطلوا وهل كانوا يتعارفون بعد المسخ ويعرفون
بعض ما قد نزل بهم بعد القاب (وخبرنى) عن بحار نيطس وعن قبيس
وعن الاصم وعن المظلم وعن جبل الماس وعن الباكى وعن قاف وأين
كنت عام الجحاف ومذ كم كان زمن الفطحل وأين كان ملك الازد
وأين كان من ملك الاشكان وأين كان من ملك بنى ساسان وأين كان
خرم اردشير من اسناشف وأين كان ابرويز من انوشروان وأين جذيمة
من تبع وأين الفتجب من بلهره وأين بغبور من قيصر (وخبرنى) عن
الفراعنة أهم من نسل العمالقة وعن العمالقة أهم من قوم عاد (وخبرنى) أهم
من عاد الأولى أو من عاد الأخرى (وخبرنى) عن عطارد الهندى
وجوابه لعطارد السماوى حين هبط اليه من فلكه وهل جرى بينهما الا
ماسمعنا ومذ كم كان ذلك (وخبرنى) كيف كان أصل الماء فى ابتدائه فى
أول ما أفرغ فى إنائه أكان بحرا أجاجا استحال عذبا زلالا أم كان زلالا
عذبا استحال أجاجا بحرا (خبرنى) كيف صار الماء أبعد من الفلك ولا يكون
الا فى بطن الارض وهو أشبه بالهواء كما أن الهواء أشبه بالنار وكيف

يكون أحق بالوسط والارض أبعد من شبه الفلك وكيف طمع جعلت
فداك الدهرى فى مسئلة العلاة والمطرقة وفى البيضة والدجاجة مع تقادم
ميلادك ومرور الاشياء على بدنك وكيف كان بدئ أمر البد فى الهند
وعبادة الاصنام فى الأمم وقصة عمرو بن لحى فى العرب (وخبرنى) عن
عناق بنت آدم وعن ميسره ومسره وعن مهنه ومهنينه وعن بهيا
وطبجيا ومذ كم عمرت جزيرة العرب ومذ كم بادت يونان وعن فصل
مابين السند والهند والهندوالميد وعن جميع من هلك بالرعاف وعن من
أفناهم النمل وعن من أجحف بهم السيل وعن أصحاب النعمان كم صنفهم
وما تقول فى الرجم السماوى أكان من عظام البرد أم لحجارة الطير
الابابيل التى خلقت من سجيل (وخبرنى) عن معنى الفرات على حقه
وصدقه وعن نضوب البحر وعن تنقص الارض ولم عمل الفلك فى هذا
العالم وليس بينهما شبه وهلاّ عمل فيه بقدرة منه وهل يجوز ان يعمل شئ
فى شئ الا والآخر يعمل فيه (وخبرنى) مذ كم كان الناس أمة واحدة
ولغاتهم متساوية وبعد كم بطن اسودّ الزنجى وابيض الصقلبيّ ولم صار
اللون أسرع تنقصاً من الجمود ولم كان الولد يجئ على سبه مافى أبيه من
الامور الحادثة فى بدنه عن غير القديمة فى أصل تركيبه ومع ذلك لم يولد
صبي قط فى العرب مجنونا وما هذه الخاصية التى منعت من هذا المعنى
وفى كم تمت لكل فرقة بعد التبالبل لغتها واستفاض لسانها (خبرنى) جعلت
فداك أيما أطول عمراً الناس أم عير العانة أم الحية أم الضب ومتى تستغنى
الحية عن الغذاء ومتى ينتفع الضب بالنسيم ومتى ينقطع النسر عن السفاد

وكيف صار البغل لاينسل وهو ولد الرمكة من العير وكذلك السمع
لا ينسل وهو ولد الضبع من الذئب والراعبي ينسل وهو ولد الحمام من
الورشان والبختي ينسل وهو من ولد العراب من الفوالج ولم يسمع فى
الظلف اذا اختلفت ولم يسمع فى الحافر ولا فى الخف اذا اختلف (وخبرنى)
عن الزرافة أمن ولد الناقة أم من الضبع وعن الشبوط أمن ولد البنى من
الزجر (وخبرنى) ما عنقاء مغرب وما أبوها وما أمها وهل خلقت وحدها
أم من ذكر وأنثى ولم جعلوها عقيما وجعلوها أنثى ومتى تمهد لذلك الصبي
ومتى تظل بجناحها شيعة الامام ومتى يلقى فى فيها اللجام ومتى يباع له
الكبريت الاحمر ويساق اليه جبل الماس (وخبرنى) عن بناء سور الابلة
وعمن حير الحيرة ومن أنشأ بنيان مصر ومن صاحب كرد بنداذ ومدينة
سمرقند (وخبرنى) عن البناء الذى يضاف بالمدائن الى سام أهو اسام وعن
تدمر أهو اسليمان وأبن ملك أخاذ بن عمرى من ملك نمروذ الخاطئ
وأين وقع ملك ذى القرنين من ملك سليمان. وقد كنت أطال الله بقاءك
فى الطول زاهداً وعن القصر راغباً وكنت أمدح المربوع واحمد الاعتدال
ولا والله ان يقوم خير الاعتدال بشر قصر العمر ولا جمال المربوع بما
يفوت من منفعة العلم فأما اليوم فياليتنى كنت أقصر منك واضوى وأقل
منك وأوهى وليس دعائى لك بطول البقاء طلباً للزيادة ولكن على جهة
التعبد والاستكانة فاذا سمعتنى أقول أطال الله بقاءك فهذا المعنى أريد
واذا رأيتنى أقول لا أخلى الله مكانك فالى هذا المعنى اذهب. وقد زعموا
جعلت فداك ان كل ماطال عمره من الحيوان زائد فى شدة الاركان وفى

طول العمر وصحة الابدان كالورشان والضباب وحمر الوحش وكلحم
النسر لمن أكله ولحم الحية لمن استحله فان كان هذا الامر حقا وكان
هذا العلاج نافعا وكنت له مستعملا وفيه متقدما وتراه رأيا وان كنت
عنه غنيا أخذنا منه بنصيب وتعلقنا منه بسبب وكيف لي بذلك وأنا صغير
الاذن واذنك اذن أبي سهيل وأنا دقيق العنق وعنقك عنق قاسم التمار
وأنا صغير الرأس ورأسك رأس جالوت وفيك أمران غريبان وشاهدان
بديعان جواز الكون والفساد عليك وتعاور النقصان والزيادة اياك
جوهرك فلكيّ وتركيبك أرضيّ ففيك طول البقاء ومعك دليل الفناء
فأنت علة للمتضاد وسبب للمتنافى وما ظنك بخلف لاتضره الا حالة ولا
يفسده التناقض. جعلت فداك مالقى منك الذهب وأى بلاء دخل بك
على الخمر كانا يتيهان بطول العمر ويبهجان ببقاء الحسن وبانّ الدهر يحدث
لهما الجدة اذا أحدث لجميع الاشياء الخلوقة فلما أربى حسنك على حسنهما
وغمر طول عمرك أعمارهما ذلا بعد العز وهانا بعد الكرامة ومالى فيك
قول الا قول الاعرابى حين أضل الطريق في الظلمة فلما عرف قصده
عند طلوع القمر رفع رأسه شاكراً وهو يقول ما أقول. أقول رفعك
الله وقد رفعك أم أقول جملك الله وقد جملك أم أقول عمرك الله وقد
عمرك ولكن أقول وهل أنطق ان نطقت الا رجيعا وأقول ماقلت الا
لغوا. وقد زعم ناس ممن ينتحل الاعتبار ويتعاطى الحكمة ويطلب أسرار
الامور ليس شئ مما يساكن الانسان فى منزله وربعه وفى داره وموضع
منقلبه الا والانسان يفضله فى طول العمر وفى البقاء على وجه الدهر

كالحمام والدجاج والسنانير والكلاب والبقر والغنم والحمير والخيل والجواميس والابل . وزعموا ان أقصرها أعماراً العصافير وان أطولها أعماراً البغال وأن العلة فى طول بقاء البغل قلة السفاد وفى قصر عمر العصافير كثرة السفاد وأن مما يقضى بهذه العلة ويثبت هذه القضية ما يعم الخصيان من طول العمر ويعم الفحولة من قصر العمر وما أرى حفظك الله بهذا القياس بأساً فى ظاهر الرأى وما أجده بعيدا فى أغلب الظن ولو كنت أقبل ذلك علما وأعلمه يقينا لكان أحب الامور الى ان يكون لى فيه سلف صدق وامام لا يغلط وان أحكيه عن معدل وأسنده الى مقنع فقل نسمع وأشر نتبع يعجبنى جعلت فداك منك بغض الشهرة ودبيبك فى غمار الحشوية استغناء بنفسك وصونا لقدرك ومعرفة بما أعطيت وثقة بالذى أوتيت وما أقل بحمد الله ماسبقك به ابليس وما أيسر ما فاتك به آدم فزاد الله شاكرك نعمة وناصرك عزة . وقد ذكرت الرواة فى المعمرين أشعارا وصنعت في ذلك أخبارا ولم نجد على ذلك شهادة قاطعة ولا دلالة قائمة ولا نقدر على ردها بجواز معناها ولا على تثبيتها اذ لم يكن معها دليل يثبتها . وقد تعرف ما فى الشك من الحيرة وما فى الحيرة من القلق وما فى القلق من النصب وما فى النصب من طول الفكرة وما فى طول الفكرة من الوحشة وما فى طول الوحشة من التعرض للوساوس والخفقة وما فى اتعاب القلب وانضاء النفس من كلال الحد وما فى الالحاح من دواعى الضجر وما فى الجهل من النقص وما فى نزاع النفس من الكد وافتح لينك بابا نستريح اليه وأقم له علما نقف عنده . فقد علمت ما ذكروا من

عمر نابغة بنى جعدة ومالك ذى الرقيبة ونصر بن دهمان وابن بقيلة الغسانى والربيع بن ضبيع ودويد بن نهد . وأنت أبقاك الله تعرف ميلاد آبائهم وأجدادهم وقبائلهم وعمائرهم وأصولهم وأجذامهم (فخبرنى) أكذبوا أم صدقوا أم اقتصدوا أم أسرفوا فأما ما رووا لاجسام الناس من الطول والعرض وأثبتوا لهم من السمن والعظم والضخم سوى مانطق به الكتاب عن أجسام عاد فالشاهد على كذبهم حاضر والدليل على فساد عقولهم ظاهر كالذى رأينا من أقدار سيوف الاشراف وأزجة رماح الفرسان وكتيجان الملوك التى فى الكعبة وكضيق أبوابهم وقصر سمك عتب درجهم في قصورهم العادية ومدنهم العدملية ويدل على ذلك الجرون التى كانت مقابرهم وأبواب مدافنهم فى بطون أرضيهم وشعف جبالهم ومطاميرهم ومواضع قناديل كنائسهم ومجالسهم وبيوت عباداتهم وملاعبهم من قمم رؤوسهم ولو حضرنا من الشواهد على ما ادعوا من أعمارهم مثل الذى حضرنا من الشواهد على تكذيبهم فى طول قاماتهم اذا لما عنيناك ولا ابتذلناك وعلى انه لو كان السبب فى طول قاماتهم وضخم أبدانهم تقادم ميلادهم وحدة قوة الارض قبل ان تخلق وشبابها قبل ان تهرم لكان ينبغى لمن كان قبلهم أن يكون أعظم منهم ولكان نقصان من بعدهم ممن يلى عصرهم ومن يلى أولئك على حساب ذلك (وخبرنى) أبقاك الله من كان بانى ريام ومن أنشأ كعبة نجران ومن صاحب غمدان ومن بانى تدمر ومن صاحب الهرمين ومنذ كم بنيت مارب وأين كان الابلق الفرد من المشقر وأين قصر النوبهار من قصر سنداد ومن صاحب عقرقوف

ولم قضيت جعلت فداك لجمعة الايادية على بنت الخس ولابن شرية على
شق وللنخار على ابن النطاح ولابن السكيس على ابن لسان الحمرة وأين
كانت الزباء من ملكة سبا وأين خاتون من بوران وأين جلندى من
اسباذ وأين مريم من افعى وأين كان لقيم من لقمان وأين كان كرز بن
علقمة من مجزز المدلجى وأين كان رافع المخش من دعيميص الرمل (وخبرنى)
عن عظامة أقاليم الخراب وعن خلاء شق الجنوب أذلك قائم مذ دار
الفلك وكان النمو أو الدول بينهما مقسومة والايام عليهما موقوفة ولم
قدمتَ اقليم دوس على اقليم بابل (وخبرنى) عن الشهب أتكون نهاراً أم
تكون ليلا ولم قدمت الروم فى الصنعة على أهل الصين ولم قدمت تبت
على الزابج ولم فضلت السكون على الحركة ولم جعلت السكون فساداً
والافتراق اجتماعا. قد وجدتك جعلت فداك خفت ان تكون ابن صائد
ورجوت ان تكون الدجال ولعلك دابة الارض وما أدرى لعلك سوثى
ولست بحمد الله الخضر والذى لا أشك فيه أنك غير المسيح وأظن
روحك روح شيقره بل روح بلعدبوب بل روح دلالا وانك الاركون
المنتظر واحتمل لى مسئلة واحدة ولا أعود وسأجعلها طويلة ولا أزيد
كم بين ود وسواع ويغوث ويعوق وبين مناة والعزى والغبغب وعائم
وبين مناف ونهم وسعد ومنهب ومذ كم نكح أساف نائلة ومذ كم مسخا
فى الكعبة (وخبرنى) عن برهوت وباهوت وعن الجابية وموضع الطاغية
وعن سيف الصاعقة ومن ألقى ذلك الى الرافضة وما كان مال قارون
وما كان كنز النطف ولمن كانت البليهة ما قرط مارية وما أصل مال ابن

جُدعان وكيف كان مشورة أمه (وخبرنى) عن ذلك المال الذى من أخذ منه ندم ومن تركه ندم . جعلت فداك قد شاهدت الانس مذ خلقوا ورأيت الجن قبل أن يحجبوا ووجدت الاشياء بنفسك خالصة وممزوجة واغفالا وموسومة وسالمة ومدخولة فما يخفى عليك الحجة من الشبهة ولا السقم من الصحة ولا الممكن من الممتنع ولا المستغلق من المستبهم ولا النادر من البديع ولا يشبه الدليل من الدايل وعرفت علامة الثقة من علامة الريبة حتى صارت الاقسام عندك محصورة والحدود محفوظة والطبقات معلومة والدنيا بحذافيرها مصورة ووجدت السبب كما وجدت المسبب وعرفت الاعتلال كما عرفت الاحتجاج وشاهدت العلل وهي تولد والاسباب وهى تصنع فعرفت المصنوع من المخلوق والحقيقة من التمويه فما تقول فى الرأى وما تقول فى الرؤيا وما تقول فى اكسير الكيمياء وما تقول فى كيموس الصنعة وما تقول فى الزجر وما تقول فى الفراسة وما تقول في الفأل وما تقول فى الطيرة وما تقول فى نمت الطلم وما تقول في معنى البركة وما تقول فى النجوم وما تقول فى الخيلان وماتقول فى أسرار الكف وما تقول فى النظر فى الاكتاف وما تقول فى قرض الفأرة وماتقول فى الحاح الخنفساء وما تقول فى دوائر الرأس وفى أوضاح الخيل وفى النمس والسؤر وفى الديك الافرق والسنور الاسود وفى البول فى النفق (١) وفى الاطلاع فى عادى الآبار وفى النوم بين البابين وما تقول

---

(١) النفق بفتحتين سرب في الارض يكون لا مخرج من موضع آخر كتبه مصححه

في النميمة وفي الرتيمة(١) وفي تعليق كعب الارنب وفي تخلي السليم وفي البلايا والولايا وما تقول في الهامّ والاستمطار بالسلع والعشر وما تقول في شق البرقع وفي حذر الرداء وفي كي الصحيح عن ذى العر وفي فقوء العين للسواف وفي نزع المسر للعاره وما تقول في الآمر والناهي والمتربص وفي النطيح والقعيد والسانح والبارح وماتقول في وطئ المقلات للقتلى وفي دماء الملوك للكلبي وما تقول في صرع الشيطان وفي تلون الغيلان وفي عزيف الجنان وفي ظهور العمار وفي طاعتهم للعزائم وفي رئي المأمور الحارثي وعتيبة بن الحارث اليربوعي وما فصل ما بين العراف والكاهن والحازي والمنبوع وما تقول في تحول ابليس في صورة سراقة المداجي وفي صورة الشيخ النجدي (وخبرني) عن شنقناق وشيصبان وعن سملقة وزوبعة وعن المذهب والسعلاة وعن بركوير ودركاداب وأين كان مسحل شيطان الاعشى من عمرو شيطان المنخل . قد والله عافانا الله بك وابتلى وأنعم بك وانتقم فدحاً لمن زهد فيك وسقياً لمن رغب اليك وويل لمن جهل فضلك بل الويل لمن أنكر فضلك . انك جعلت فداك كما لم تكن فكنت كذا لا تكون بعد أن كنت وكما زدت في الدهر الطويل فكذا تنقص في الدهر الطويل اذ كل طويل فهو قصير وكل متناه فهو

---

(١) الرتيمة تجمع على رتائم ورتام والرتم محركة نبات كان من رقته شبه بالرتم زهره كالخيري وبزره كالعدس وكلاهما يقيئ بقوة وله منافع اخر ذكرها في القاموس الى أن قال وكان من أراد سفراً يعمد الى شجرة فيعقد غصنين منها فان رجع وكانا على حالهما قال أن أهله لم تخنه ولا فقد حانته وذلك الرتم والرتيمة اه باختصار كتبه مصححه

قليل فاياك أن تظن أنك قديم فتكفر وإياك أن تنكر أنك محدث فتشرك فان للشيطان فى مثلك أطماعا لا يصيبها فى سواك ويجد فيك عللا لا يجدها فى غيرك ولست جعلت فداك كابليس وقد تقدم الخبر فى بقائه الى انقضاء أمر العالم وفنائه ولولا الخبر لما قدمته عليك ولا ساويته بك وأنت أحق من عذر وأول من ستر ولو ظهر لى لما سألته كسؤالى اياك ولما ناقلته الكلام كمناقلتى لك وان كان فى التجاذب مثلك فهو فى النصيحة على خلافك ولأنك ان منعت شيئاً فمن طريق التأديب أو التقويم وهو ان منع منع بالغش والارصاد وأنت على حال شكل ونحن نرجع الى أصل ونلتقى الى أب ويجمع بيننا دين (وخبرنى) عن الشق وعن وافواق وعن النسناس وعن دوالباى وعن الكركدن وعن عنقاء مغرب وعن الكبريت الاحمر وعن نور الله فى الارض (وحدثنى) عن شعب رضوى وعن جبال حسمى ومتى ترى الماء الاسود والجو الا كلف والطين الازرق وكيف ذلك النمر وهل يظمأ ذلك الاسد وهل باض الخفاش وهل آمنت الحبارى ومتى تتعلم مافى الجفر وتحكم مافى الزبر وما فعل نخل وبار ونعاج أبى المرقال وما الحجة فى الرجعة والقول فى المناسخة ومن أين قلتم بالنداء ومن أين جعلتم العلم فعلا والزيادة فلبا وما القول فى النفس (وخبرنى) ما السحر وما الطاسم وما الدنهش وما الخلقطير وما الهيكل وما الطوالق وما قولهم فى اللبان الذكر وفى مراعاة المشترى ولم توحشوا من الناس ولم باتوا بالبراح وأقاموا بالخراب واغتسلوا بالماء القراح ولم قدموا التصديق وأخروا الصرة ولم أجابوا أكرموا ولم منعوا وقتلوا

(وخبرنى) من خانق الغريض وقاتل سعد يوم النفق ومن الذى استهوى عمرو بن عدى ومن صاحب عمارة بن الوليد ومن يصرع منهم الاصحاء ومن يبرئ المرضى ويستهوي العقلاء وعن فصل مابين الشيطان والجنى وما بين الجن والحن ومن طعامه الجدف [١] (وخبرنى) عن أشعار الهاتف وما يسمع بالليل من جوائب الاخبار (وخبرنى) عن النميرى صاحب الورقة وعن تميم الدارى صاحب الردم (وخبرنى) عن شقلون وعن أهرمن وعن كان وكان ومره وايددش وافردش وابرشارش وابربارش وخونرث بام وكيف صارت خونرث هذه أعمر العوالم وأيما أكثر يأجوج أم مأجوج وأيما أقصر وأيما أطول أعماراً وأيما أفضل منكر أو نكير وأيما أخبث هاروت أم ماروت وأى حوت ابتلع يونس وأى حية ابتلعت المهاب ومن أى حية كانت سفينة نوح ولم مَلح الحمض ولم طوقت الحمامة وما فرق مابين الطاس والكاس وما كان سبب اتخاذ الاقبية وما سبب صنعة الزجاج وما قصة الرخام أكيمياء أو مخلوق ولم امتنع عمل الذهب والزجاج أعجب منه ومن صاحب المينا ونود بن الحجارة ومن صاحب التلطيف ومن صاحب النوشاذر وما تقول فى التنين وما فرانق الاسد وما صداقة مابين الخنفساء والعقرب وما بال السواد يصبغ ولا ينصبغ

---

(١) الجدف مالا يغطى من الشراب وهو في حديث عمر رضى الله عنه حين سأل المفقود الذي استهوته الجن ما كان طعامهم فقال الفول وما لم يذكر اسم الله عليه وما كان شرابهم فقال الجدف • وقيل هو نبات يكون باليمن لايحتاج الذي يأكله ان يشرب عليه الماء اه كتبه مصححه

وما بال البياض ينصبغ ولا يصبغ ومن صاحب الاصطرلاب ومن صاحب القرسطون ولم أسألك عن الحداد وانما سألتك عن الفيلسوف وعن علته فى المد والجزر (وخبرنى) عن جواهر الارض وعن جمع القار أشئ مفروغ من خلقه أم أرض يستحيل اليه ولم عمل بعض السم فى العصب وبعضه فى الدم وبعضه فيهما جميعا ولم كان بعضه سم نجاز وبعضه سم جهاز ولم صار لايقتل مع العادة وقتل قبل العادة ألأنّ الطبائع تنكر الشئ الغريب أم لانه ضد فى نفسه وكيف صار مع ريق الافعى ريق بعض الناس فى القتل وفى أيهما سم ولم خالف البيش فى العصب والدم ولم يقتل العقرب انسانا ويقتله آخر ولم صارت الافعى قاتلة وتأكلها القنافذ ولا تضرها ويأكلها الاروى فلا يتأذى بها ولم صارت الهندية تقتل كل شئ ولا يقتلها شئ ولا يستمرها شئ ولم خالف النيل جميع الاودية فى النقصان والزيادة ولم بلغت جريته الشمال ولم صار أقصاه كادناه ومتى يدال منه ومتى يحوله الامام • وقد علمت جعلت فداك أن الخبر اذا صح أصله وكان للناس علة فى نشره كان فى الدلالة على الحق كالعيان وفى الشفاء كالسماع على أن الخبر لايعرف به مكيف الامور لكن يعرف به جمل الاشياء الا خبرك فانك لا تحتاج الى اشارة ولا الى اعادة ولا الى تفسير حتى يقوم خبرك فى الشفاء وفى كيفة الشىء مقام العيان • وقد كنت أتعجب من محمد بن عبد الملك وأقول ما تقولون فى رجل لم يقل قط بعد انقضاء خصومته وذهاب خصمه لو كنت قلت كذا كان أفضل لو كنت لم أقل كذا كان أمثل فما بال عفوه أكثر من جهدكم وبديهته أبعد من

أقصى فكرتكم فلما رأيتك عامت أنك عذاب صبه الله على كل رفيع ورحمة انشأها لكل وضيع (تخبرني) ما جرى بينك وبين هرمس فى طبيعة الفلك وعن سماعك من أفلاطون وما دار فى ذلك بينك وارسطوطليس وأي نوع اعتقدت وأى شيء اخترت فقد أبت نفسى غيرك وأبت أن تشفي الا بخبرك ولولا انى أكلف برواية الاقاويل وأغرم بمعرفة الاختلاف ولا أستجيز مسألتك عن كل شيء وابتذالك فى كل أمر لما سمعت من أحد سواك ولما انقطعت الى أحد غيرك (واعلم) جعلت فداك أنى لم أرد بمزاحك الا ضحك سنك ولا كانت غايتى فيك الا لأنفق عندك وقد كنت خفت ألا أكون وقفت على حده وأشفقت من المجاوزة لقدره والمزاح باب ليس المخوف فيه التقصير ولا يكون الخطأ فيه من جهة النقصان وهو باب متى فتحه فاتح وطرق له مطرق لم يملك من سده مثل الذى يملك من فتحه ولا يخرج منه بقدر ما كان قدم فى نفسه لانه باب أصل بنائه على الخطاء ولا يخالطه من الاخلاق الا ماسخف ومن شأنه التزيد وأن يكون صاحبه قليل التحفظ ولم نر شيئاً أبعد من شيء ولا أطول له صحبة ولا أشد خلافا ولا أكثر خلطا من الجدّ والمزاح والمناظرة والمراء . قال القعقاع بن شور ليس لمزّاح مروءة ولا لممار خلة . وقال معاوية المزاح هو الشنار[1] الأصغر . وقال الحسن بن حيّ المزاح استدراج من الشيطان واختداع من الهوى . وعاب عمر

(١) الشنار بالفتح أقبح العيب والعار والأمر المشهور بالشنعة وشنر عليه تشنيراً عابه والشنير كسكيت السيء الخلق والكثير الشر والعيوب كتبه مصححه



بعض العظماء فقال ذاك رجل فيه دعابة وقال الشاعر

* وجد القول يقدمه المزاح *

وقال الآخر

رب كبير ساقه صغير

وقال الآخر

* رب جد ساقه اللعب*

فان كنتُ لم أقصر عن الغاية ولم أتجاوز حد النهاية فبما أعرف من يُمن مكالمتك ومن بركة مكاتبتك ومن حسن تقويمك وجودة تثقيفك وان كنتَ قد أخطأتُ الطريق وجاوزت حد المقدار فما كان ذلك عن جهل بفضلك ولا انكار لحقك ولكن حدود الاشياء اذا خفيت ومقاديرها اذا أشكلت ولم يكن مع الناظر فيها مثل تمامك ولا مع المتكلف لها مثل كمالك دخل عليه من الخلل بقدر عجزه ويسلم منه بقدر نفاذه نعم ولو كان من العلماء الموصوفين والادباء المذكورين . ومن المزاح جعلت فداك باب مكر وجنس خدع يتكل المرء فى اساءته الى جليسه وإسماعه لصديقه على أن يقول مزحت وعلى أن يقول عند المحاكمة لعبت وعلى أن يقول من يغضب من المزاح الا كز الخلق ومن يرغب عن المفاكهة الا ضيق العطن . وبعد فمتى أعدتَ النفس عذراً كانت الى القبيح أسرع ومتى لم تُعدِ كانت عنه أبطأ ومن أسباب الغلط فيه ومن دواعى الخطا اليه أن كثيراً ممن تمازحه يضحك وان كنت قد أغضبته ولا يقطع مزاحك وان كنت قد أوجعته وان حقد فى الحقد

الداء وان عجل فذلك البلاء . وان قلت فما أدخلك في شيء هذا سبيله وهكذا جوهره وطريقه . قلت لأني حين أمنت عقاب الاساءة ووثقت بثواب الاحسان وعلمت أنه يقص الا على العهد ولا يعذب الا على القصد صار الامن سائقا والامل قائداً وأي عمل أردت وأي متجر أربح مما جمع السلامة والغنيمة والامن والميرة ولو كان هذا ذنباً لكنت شريكي فيه ولو كان تقصيراً لكنت سببي اليه لان دوام التغافل شبيه بالاهمال وترك التعريف يورث الاغفال والعفو المتتابع والبشر الدائم يؤمنان من المكافأة ويذهبان بالتحفظ ولذلك قال عيينة بن حصن لعثمان ابن عفان رضي الله عنه كان خيراً لي منك أرهبني فاتقاني وأعطاني فأغناني وان كنت اجترأت عليك فلم أجترئ عليك الا بك وان كنت أخطأت فلم أخطئ عليك الا لك لان حسن الظن بك والثقة بعفوك سبب الى قلة التحفظ وداعية الى ترك التحرم . وبعد فمن وهب الكبير فكيف يقف عند الصغير ومن لم يزل يعفو العمد كيف يعاقب على السهو ولو كان عظم قدري هو الذي عظم ذنبي لكان عظم قدري هو الذي شفع لي ولو استحققت عقابك باقدامي عليك مع خوفي لك استوجب عفوك عن اقدامي عليك لحسن ظني بك على أني متى أوجبت لك العفو فقد أوجبت لك الفضل ومتى أضفت اليك العقاب فقد وصفتك بالانصاف ولا أعلم حال الفضل الا أشرف من حال العدل والحال التي توجب لك الشكر الا أرفع من الحال التي توجب لك الصبر وان كنت لا تهب عقابي لحرمتي فهبه لأياديك عندي فان النعمة تشفع

فى النعمة فان لم تفعل ذلك للحرمة فافعله لحسن الاحدوثة وان لم تفعل
ذلك لحسن الاحدوثة فعد الى حسن العادة وان لم تفعله لحسن العادة
فأت ما أنت أهله . واعلم أنى واياك متى تحاكمنا الي كرمك قضى لى
عليك ومتى ارتفعنا الى عقلك حسُنَ العفو عنى عندك وفصل ما بيننا
وبينك وفرق ماين تدرنا وقدرك انا نسيء وتغفر ونذنب وتستر
ونعوجّ وتقوم ونجهل وتحكم وان عليك الانعام وعلينا الشكر ومن
صفاتك أن تفعل ومن صفاتنا أن نصف فاذا فعلت ما تقدر عليه من
العقاب كنت كمن فعل ما يقدر عليه من التعرض وصرت ترغب عن
الشكر كما رغبنا عن التسليم وصار التعرض لعفوك بالامل باطلا والتعرض
لعقابك بالخوف حقا ورغبتَ عن النبل والبهاء وعن السودد والسناء
وصرت كمن يشفى غيظا أو يداوى حقداً أو يظهر القدرة أو يحب أن
يذكر بالصولة ولم تجدهم أبقاك الله يحمدون القدرة الا عند استعمالها
فى الخير ولا يذمون العجز الا ما يفوت به من اتيان الجميل وأنىَّ لك
بالعقاب وأنت خير كلك ومن أين اعتراك المنع وأنت أنهجت الجود
لاهله وهل عندك الاما فى طبعك وكيف لك بخلاف عادتك ولم تستكره
نفسك على المكافأة وطباعك الصفح ولم تكدّها بالمنافسة ومذهبها
المسامحة . فسبحان من جعل أخلاقك وفق اعراقك وقولك وفق عملك
ومن جعل ظنك أكثر من يقيننا وفراسنك أثبت من عياننا وعفوك
أرجح من جهدنا وبداهنك أجود من تفكرنا وفعلك أرفع من وصفنا
وغيبتك أهيب من حضور السادة وعتبك أشد من عقاب الظلمة . وسبحان

من جعلك تعفو عن المتعمد وتتجافى عن عقاب المصرّ وتتغافل عن المبادئ
وتصفح عن المتهاون حتى اذا صُرّت الى من ذنبه نسيان وتوبته اخلاص
وهفوته نكر وشفيعه حرمة ومن لا يعرف الشكر الا لك والانعام الا
منك ولا العلم الا من تأديبك ولا الاخلاق الا من تقويمك ومن لم
يقصر فى بعض طاعتك الا لما رأى من احتمالك ولا ندى بعض ما يجب
لك الا لما داخله من تعظيمك صُرّت تتوعد بالصرم وهو دليل كل بلية
وتستعمل الإعراض وهو قائد كل هلكة. وقد علمت أن عتابك أشد من
الصريمة وأن تأنيبك أغلظ من العقوبة وأن منعك اذا منعت فى وزن
اعطائك اذا أعطيت وأن عقابك على حسب ثوابك وأن جزعى من
حرمانك فى وزن سرورى بفوائدك وأن شين غضبك كزين رضاك وأن
موت ذكرى بانقطاع سببى منك كحياة ذكرى مع اتصال سببى لك
وما لى اليوم عمل أنا اليه أسكن ولا شفيع أنا به أوثق من شدة جزعى
من عتبك وافراط هلعى من خوفك ولست ممن اذا جاد بالصفح ومَنّ
بالعفو لم يكن لصاحبه منه الا السلامة والا النجاة من الهلكة بل تشفع
ذلك بالمراتب الرفيعة والعطايا الجزيلة والعز فى العشيرة والهيبة في الخاصة
والعامة مع طيب الذكر وشرف العقب ومحبة الناس. وأما ذكرى القدّ
والخرط والطول والعرض وما بيننا وبينك فى ذلك من التشاجر والتنازع
والتحاكم والتنافر فان الكلام قد يكون فى لفظ الجد ومعناه معنى الهزل
كما يكون فى لفظ الهزل ومعناه معنى الجد ولو استعمل الناس الدعابة فى
كل حال والجد فى كل مقال وتركوا التسميح والتسهل وعقدوا أعناقهم

فى كل دقيق وجليل لكان السفه صراحا خيرا لهم والباطل محضا أرد
عليهم ولكن لكل شئ قدر ولكل حال شكل فالضحك فى موضعه
كالبكاء فى موضعه والتبسم فى موضعه كالقطوب فى موضعه وكذلك
المنع والبذل والعقاب والعفو وجميع القبض والبسط فان ذممنا المزاح ففيه
لعمرى ما يذم وان حمدناه ففيه مايحمد وفصل ما بينه وبين الجد ان الخطأ
الى المزاح أسرع وحاله بحال السخف أشبه فاما أن يذم حتى يكون كالظلم
وينفى حتى يصير كالغدر فلا لان المزاح مما يكون مرة قبيحا ومرة حسنا
والظلم لا يكون مرة قبيحا ومرة حسنا فاذا ملنا الى الجد ورغبنا عن الهزل
وتركنا المزح وجلسنا للحكمة فقد أغناك الله عن الحجة كما سلمك من الشبهة
ولم يكلفك الاحتجاج كما رغب بك عن الاعتلال فأصبحت لا محتجاً ولا
محجوجاً ولا غفلا ولا موسوماً ولا ملوماً ولا معذوراً ولا فيك اختلاف
ولا بك حاجة الى ائتلاف وليس مع العيان وحشة ولا مع الضرورة
وجمة(١) ولا دون اليقين وقفة وهل فى تمامك ريب حتى تعالج بالحجة وهل
رد فضلك جاحد حتى يثبت بالبينة وهل لك خصم فى العلم أو ند فى
الفهم أو مجار فى الحكم أوضد فى العزم وهل يبلغك الحسد أو يضرك
العين وتسموا اليك المنى أو يطمع فيك طامع أو يتعاطى شأوك باغ وهل
يطمع فاضل أن يفوقك أو يأنف شريف أن يقصر دونك أو يخشع عالم
أن يأخذ عنك وهل غاية الجميل الا وصفك وهل زين البليغ الا مدحك وهل
يأمل الشريف الا اصطناعك وهل يقدر الملهوف الا غياثك وهل للطول

---

(١) (الوجمه) قال فى القاموس الوجمة بالسكون الاكلة الواحده وبالتحريك المسبة

عرض سواك وهل للغوانى مثل غيرك وهل للماتح[1] رجز الا فيك وهل يحدو الحادى الا بذكرك فلولا أن يأخذ الواصف بنصيبه منك وبحصته من الصدق وبسهمه من الشكر لكان الاطناب عندهم فى وصفك لغواً وكان شقيق الكلام عجزاً ولكانى تكلفه فضلا ومن هذا الذى يضعه أن يكون دونك ويمتحن بالتسليم لك أو يعدّ اقراره احسانا وخضوعه انصافا وهل تقع الابصار الا عليك وهل تعرف الاشارة الا اليك أمن الشبيه لك فى منزلتك الست خلف الاخيار وبقية الابرار وأى أمرك ليس بغاية وأى شئ منك ليس فى النهاية وهل فيك شئ يفوق شيئاً أو يفوقه شئ أو يقال لولم يكن كذا لكان أحسن ولو كان كذا لكان أتم وأين الحسن الخالص والجمال الفائق والملح المحض والحلاوة التى لا تستحيل والتمام الذى لا يحيل الا فيك أو عندك أو لك أو معك خالصة لك ومقصورة عليك لا تليق الا بك ولا تحسن الافيك فلك منه الكل وللناس البعض ولك الصافى وللناس المشوب هذا سوى الغريب الذى لا نعرفه والبديع الذى لا نبلغه لا بل أين الحسن المصمت والجمال المفرد والقدّ العجيب والكمال الغريب والملح المنثور والفضل المشهور الا لك وفيك وهل على ظهرها جميل حسيب أو عالم أديب الا وظلك أكبر من شخصه وظنك أكثر من علمه وأسمك أفضل من معناه وحلمك أثبت من نجواه وصمتك أفضل من نجواه وهل فى الارض حليم سواك وهل

---

(١) المتح الاستقاء وهو مصدر متحت الدلو من باب نفع اذا استخرجتها والفاعل ماتح ومتوح اه كتبه مصححه

أظلت الخضراء ذا لهجة أصدق منك وهل حملت النساء أجل منك
ولربما رأيت الرجل حسنا جميلا وحلوا مليحا وعتيقا رشيقا وفخما نبيلا ثم
لا يكون موزون الاعضاء ولا مقدود الاجزاء وقد يكون أيضا الاقدار
متساوية وغير متقاربة ولا متفاوتة ويكون قصداً ومقداراً عدلاً وان كانت
دقائق خفية لا يراها الا الالمعي ولطائف غامضة لا يعرفها الا الذكي فاما
الوزن المحقق والتعديل المصحح والتركيب الذى لا يفضحه التفرس ولا
يحصره التعنت ولا يتعالى جاذبه ولا يطمع فى التمويه ناعته فهو الذى
خصصت به دون الأنام ودام لك على الايام وكذا الحسن اذا كان حراً
مرسلا وعتيقاً مطلقاً لا يتحكم عليه الدهر ولا يذبله الزمان ولا يحتاج الى
تعليق التمائم ولا الى الصون والكن ولا الى المناقيش والكحل ولو لم
يكن لحسن وجهك الا أنه قد سهل فى العيون تسهيلا وحبب الى القلوب
تحبيبا وقرب الى النفوس تقريبا حتي امتزج بالارواح وخالط الدماء وجرى
فى العروق وتمشى فى العظم بحيث لا يبلغه السم ولا الوهم ولا السرور الشديد
ولا الشراب الرقيق لكان فى ذلك المزية الظاهرة والفضيلة البينة ولو لم
يكن لك الا أنا لا نستطيع أن نقول فى الجملة وعند الوصف والمدحة هو
أحسن من القمر وأضوء من الشمس وأبهى من الغيث ولهو أحسن من
يوم الحلبة وانا لا نستطيع أن نقول فى التفاريق كأن عنقه أبريق فضة وكأن
قدمه لسان حية وكأن عينه ماوية وكأن بطنه قبطية وكأن ساقه بردية وكأن
لسانه ورقة وكأن أنفه حد سيف وكأن حاجبه خط بقلم وكأن لونه الذهب
وكأن عوارضه البرد وكأن فاه خاتم وكأن جبينه هلال ولهو أطهر من الماء

وأرق طباعا من الهوى ولهو أمضى من السيل وأهدى من النجم لكان في ذلك من البرهان النير والدليل البين وكيف لا يكون كذلك وأنت الغاية فى كل فضل والنهاية فى كل شكل وأما قول الشاعر

يزيدك وجهه حسنا * اذا مازدته نظرا

وقول الدمشقيين ماتأملنا قط تأليف مسجدنا وتركيب محرابنا وقبة مصلانا الا أثار لنا التأمل واستخرج لنا التفرس غرائب حسن لم نعرفها وعجائب صنعة لم نقف عليها ومانديى أجواهر مقطعاته أكرم فى الجواهر أم جواهر تنضيدات أجزائه فى تنضيد الاجزاء فانما ذلك معنى مسروق منى فى وصفك ومأخوذ من كتبي في مدحك والجملة التى تنفى الجدال وتقطع القيل والقال انى لم أرك قط الا ذكرت الجنة ولا رأيت أجمل الناس فى عقب رؤيتك الا ذكرت النار والعجب أيها السامع أنى مقصر واذا رأيته علمت أنى فيما يجب له مفرط وهو رجل طينته حرة وعرقه كريم ومغرسه طيب ومنشؤه محمود غذى بالنعمة وعاش فى الغبطة وأرهفه التأديب وألطفه طول التفكر وخامره الادب وجرى فيه ماء الحياء وأحكمته التجارب وعرف العواقب فأفعاله كاخلاقه وأخلاقه كأعراقه وعادته كطبيعته وآخره كأوله تحكى اختياراته التوفيق ومذاهبه التسديد لا يعرف التكلف ويرغب عن التجوز ويبنل عن ترك الانصاف ولا يمتنع عليه معرفة المبهم ولا يلتحج (١) باستبانة المشكل يتخير من الالفاظ أرقها

(١) (قوله ولا يلتحج الخ) أى لا يلتجئ الى استبانة الأمور المشكلة الى أحد اه كتبه مصححه

مخرجا ومن المعانى أدقها مسلكا وأحسنها قبولا وأجودها وقوعا وأتمها اطباعا بأقوى الكلام وأوجزه وأعذبه وأحسنه يقلل عدد حروفه ويكثر عدد معانيه ومن الفعل بعد ذلك أكمله تحقيقا اذا أقبل هبناه واذا أدبر اغتبناه مع تمكنه وعقله وسعة صدره وبعد ولا يعرف الشك الا فى غيره ولا العى الا اسماعا فمن يطمع فى عيبك بل من يطمع فى قدرك وكيف وقد أصبحت وما على ظهرها خود الا وهى تعثر باسمك ولا قينة الا وهى تغنى بمدحك ولا فتاة الا وهى تشكو تباريح حبك ولا محجوبة الا وهى تنقب الخروق لممرك ولا عجوز الا وهى تدعو لك ولا غيور الا وقد شقى بك فكم من كبد حرى منضجة ومصدوعة مفرثة وكم حشا خافق وقلب هائم وكم عين ساهرة وأخرى جاهدة وأخرى باكية وكم عبرى مولهة وفتاة معذبة قد أقرح قلبها الحزن واجهد عينها الكمد قد استبدلت بالحلى العطلة وبالانس الوحشة وبالتكحيل المره فأصبحت والهة مبهوتة وهائمة مجهودة بعد طرف ناصع وسن ضاحك وغنج ساحر وبعد أن كانت ناراً تتوقد وشعلة تتوهج وليس حسنك أبقاك الله الذى تبقى معه توبة أو تصح معه عقيدة أو يدوم معه عهد أو يثبت معه عزم أو يمهل صاحبه التثبت أو يتسع للتخير أو ينهنهه زجر أو يهذبه خوف . هو أعزك الله شئ ينقض العادة ويفسخ المنة ويعجل عن الروية ويطرح بالعرى وتنسى معه العواقب ولو أدركت ابن الخطاب اصنع بك أعظم مما صنع بنصر بن الحجاج ولركبك بأعظم مما ركب به جعدة السلمى بل لدعاه الشغل بك الى ترك التشاغل بهما والغيظ عليك الى الرحمة لهما فمن كان عيب حسنه الافراط والطعن عليه من جهة الزيادة كيف يرومه

عاقل أو ينتقصه عالم فلا تعجب ان كنت نهاية الهمة وغاية الا منيــة فان حسن الوجه اذا وافق حسن القوام وجودة الرأى وكثرة العلم وســعة الخلق والمغرس الطيب والنصاب الكريم والطرف الناصع واللسان البين والنعمة البهجة والمخرج السهل والحديث المونق مع الاشارة الحسنة والنبل فى الجلسة والحركة الرشيقه واللهجة الفصيحة والتمهل فى المحاورة والهذ عند المناقلة والبديه البديع والفكر الصحيح والمعنى الشريف واللفظ المحذوف والايجاز يوم الايجاز والاطناب يوم الاطناب يقل الحز ويصيب الفصل ويبلغ بالعفو ماقصر عنه الجهد كان أكثر لتضاعف الحسن وأحق بالكمال والحمد والتاج بهى وهو على رأس الملك أبهى والياقوت كريم حسن وهو على جيد المرأة الحسناء أحسن والشعر الفاخر حسن وهو من فم وان كان قول المنشد فريضة من نحته ومختبره فقــد أبلغ الغاية وقام على النهاية وما ندرى فى أى الحالين انت أجمل وفى أى المنزلتين انت أكمل اذا فرقناك أو اذا جمعناك واذا ذكرنا كلك أو اذا تأملنا بعضك فاما كفك فهى التى لم تخلق الا للتقبيل والتوقيع وهى التى يحسن بحسنها كل ما اتصل بها ويحتال بها كل ما صار فيها كما أصبحنا وما ندرى الكأس فى يدك أحسن أم القلم أم الرمح الذى تحمله أم المخصرة أم العنان الذى تمسكه أو السوط الذى تعلقه وكما أصبحنا وما ندرى أى الامور المتصلة برأسك أحسن وأيها أجمل وأشكل اللمة أم مخطّ اللحية أم الاكليــل أم العصابة أم التاج أم العمامة أم القناع أم القلنسوة فأما قدمك فهى التى يعلم الجاهــل كما يعلم العالم ويعلم البعيد الاقصى كما يعلم القريب الادنى انها لم تخلق الا لمــنبر ثغر عظيم أو

ركاب طرف كريم . وأما فوك فهو الذى لا ندرى أى الذى تتفوه به أحسن وأى الذى يبدو منه أجمل الحديث أم الشعر أم الاحتجاج أم الامر والنهى أم التعليم والوصف وعلى أننا ما ندرى أى ألسنتك أبلغ وأى بيانك أشفى أقلامك أم خطك أم لفظك أم اشارتك أم عقدك وهل البيان الا لفظ أو خط أو اشارة أو عقد وأنت فى ذلك فوقهم والحمد لله وواحدهم وأعيذك بالله وأنت تجوز الغاية وتفوق النهاية . وقد علمنا أن القمر هو الذى يضرب به الامثال ويشبه به أهل الجمال وهو مع ذلك يبدو ضئيلا نضواً ومعوجاشختاً [١] وأنت أبداً قمر بدر نجم عمر ثم مع ذلك يحترق فى السرار ويتشاءم به فى المحاق ويكون نحساً كما يكون سعداً ويكون نفعا كما يكون ضراً ويقرض الكتان ويشحب الالوان ويخم فيه اللحم وأنت دائم اليمن ظاهر السعادة ثابت الكمال شائع النفع تكسوا من أعراه وتكن من أشحبه وعلى أنه قد محق حسنه المحق وشانه الكلف وليس بذى توقد واشتعال ولا خالص البياض ولا متلألئ ويعلوه برد ويكسوه ظل الارض ثم لا يعتريه ذلك الا عند كماله وليلة فخره واحتفاله وكثيراً ما يعتريه الصغار من بخار البحار وأنت ظاهر التمام دائم الكمال سليم الجوهر كريم العنصر نارى التوقد هوائى الذهن درى اللون روحانى البدن وان احتجوا عليك بالجزر والمد احتججت عليهم بالعلم والحلم وبأن طاعتك اختيار واعتبار وطاعته طباع واضطرار وبأن له سيرة

(١) قال فى القاموس الشخت الدقيق الضامر لا هزالا والشخيت كسكيت وكريم العسار الساطع والتشخيت الاملاع اه باختصار

قد قصر عليها ومنازل لايجاوزها لاتمكنه البدوات وليس فى قواه فضل للتصرف وعلى أن ضياءه مستعار من الشمس وضياؤك عارية عند جميع الخلق فكم بين المعير والمستعير والمتبين والمتحير وبين العالم ومن لا حسّ فيه ولا زالت الارض بك مشرفة والدنيا معمورة ومجالس الخير مأهولة ونسيم الهواء طيبا وتراب الارض عبقا ان تفتيت فالرشاقة والملح وان تنسكت فالرهبانية والاخلاص وان ترزنت فثهلانُ ذو الهضبات ما يتحلحل وطباعك جعلت فداك طباع الخمر الا أنك حلال كلك وجوهرك جوهر الذهب الا أنك روح كما أنت وقد حويت خصال الياقوت الا ما زادك الله عليه وأخذت خصال المشترى الا ما فضلك الله به وجمعت خلال الدر الا ما خصصت به دونه فلك من كل شئ صفوته ولبابه وشرفه وبهائه وهل يضر القمر نباح الكلب وهل يزعزع النخلة سقوط البعوضة عليها فأما القول فى المزاح فقد بقى أكثره ومضى أقله. وقد ذهب الناس فى المزاح الى معان متضادة وسلكوا منه فى طرقَ مختلفة. فزعم بعضهم أن جميع المزاح خير من جميع الجدّ وزعم آخرون أن الخير والشر عليهما مقسومان وأن الحمد والذم بينهما نصفان وسنأتى على جمل هذه الاقاويل ثم نذكر ما نقول ان شاء الله. فأما المحامى على الهزل والمفضل للمزح فانه قال أول ما أذكر من خصال الهزل ومن فضائل المزح أنه دليل على حسن الحال وفراغ البال وأن الجد لا يكون الا من فضل حاجة والمزح لا يكون الا من فضل غنى وأن الجد غضب والمزح جمام والجد مبغضة والمزحُ محبة وصاحب الجد في بلاء ما كان فيه وصاحب

المزح فى رجاء الى أن يخرج منه والجد مؤلم وربما عرّضك لأشد منه
والمزح ملذ وربما عرضك لألذ منه فقد شاركه فى التعريض للخير والشر
وباينه بتعجيل الخير دون الشر وانما تشاغل الناس ليفرغوا وجدّوا ليهزلوا
كما تذللوا ليعزوا وكدوا ليستريحوا وان كان المزاح انما صار معيبا والهزل
مذموما لان صاحبه لا يكون الا معرضا لمجاوزة القدر ومخاطراً بمودة
الصديق فالجد داعية الى الافراط كما أن المزاح داعية الى مجاوزة القدر
والتجاوز للحق قاطع بين القرينين في جميع النوعين فقد ساواه المزاح
فيما هو له وباينه فيما ليس له وان كان المزح قبيحا لانه يورث الجد فأقبح
من المزح ما صير المزح قبيحا واذا صار المزح قبيحا لان الذى يكون
بعده الجد ولم يصير الجد قبيحا لان الذى بعده المزح كان الجد فى هذا الوزن
أقبح من المزح وكان المزح على هذا التقدير أحسن من الجد لان ماجعل
الشئ قبيحا أقبح من الشئ كما أن ما جعل الشئ حسنا أحسن من الشئ
وأما الذى عدل بينهما فانه زعم أن المزح فى موضعه كالجد فى موضعه كما
أن المنع فى حقه كالبذل فى حقه . قال ولكل شئ موضع وليس شئ
يصلح فى كل موضع وقد قسم الله الخيرة على المعدلة وأجرى جميع الامور
الى غاية المصلحة وقسط أجزاء المثوبة على العزيمة والرخصة وعلى الاعلان
والتقية فأمر بالمداراة كما أمر بالمباداة وجوز المعاريض كما أمر بالافصاح
وسوغ فى المباح كما سدد فى المفروض وجعل المباح جماما للقلوب وراحة
للأبدان وعونا على معاودة الاعمال فصار الاطلاق كالحطة والصبر
كالشكر وليس للانسان من الخيرة فى الذكر شئ الا وله فى النسيان

قد قصر عليها ومنازل لايجاوزها لاتمكنه البدوات وليس فى قواه فضل
للتصرف وعلى أن ضياءه مستعار من الشمس وضياؤك عارية عند جميع
الخلق فكم بين المعير والمستعير والمتبين والمتحير وبين العالم ومن لا حس
فيه ولا زالت الارض بك مشرفة والدنيا معمورة ومجالس الخير مأهولة
ونسيم الهواء طيبا وتراب الارض عبقا ان تفتيت فالرشاقة والملح وان
تنسكت فالرهبانية والاخلاص وان ترزنت فثهلان ذو الهضبات ما
يتحلحل وطباعك جعلت فداك طباع الخمر الا أنك حلال كلك
وجوهرك جوهر الذهب الا أنك روح كما أنت وقد حويت خصال
الياقوت الا ما زادك الله عليه وأخذت خصال المشترى الا ما فضلك الله
به وجمعت خلال الدر الا ما خصصت به دونه فلك من كل شئ صفوته
ولبابه وشرفه وبهائه وهل يضر القمر نباح الكلب وهل يزعزع النخلة
سقوط البعوضة عليها فأما القول فى المزاح فقد بقى أكثره ومضى أقله.
وقد ذهب الناس فى المزاح الى معان متضادة وسلكوا منه فى طرق
مختلفة. فزعم بعضهم أن جميع المزاح خير من جميع الجد وزعم آخرون أن
الخير والشر عليهما مقسومان وأن الحمد والذم بينهما نصفان وسنأتى على
جمل هذه الاقاويل ثم نذكر ما نقول ان شاء الله. فأما المحامى على الهزل
والمفضل للمزح فانه قال أول ما أذكر من خصال الهزل ومن فضائل
المزح أنه دليل على حسن الحال وفراغ البال وأن الجد لا يكون الا من
فضل حاجة والمزح لا يكون الا من فضل غنى وأن الجد غضب والمزح
جمام والجد مبغضة والمزح محبة وصاحب الجد في بلاء ما كان فيه وصاحب

المزح فى رجاء الى أن يخرج منه والجد مؤلم وربما عرّضك لأشد منه
والمزح ملذّ وربماعرضك لألذّ منه فقد شاركه فى التعريض للخير والشر
وباينه بتعجيل الخير دون الشر وانما تشاغل الناس ليفرغوا وجدّوا ليهزلوا
كما تذللوا ليعزوا وكدوا ليستريحوا وان كان المزاح انما صار معيبا والهزل
مذموما لان صاحبه لا يكون الا معرضا لمجاوزة القدر ومخاطراً بمودة
الصديق فالجد داعية الى الافراط كما أن المزاح داعية الى مجاوزة القدر
والتجاوز للحق قاطع بين القرينين في جميع النوعين فقد ساواه المزاح
فيما هو له وباينه فيما ليس له وان كان المزح قبيحا لانه يورث الجد فأقبح
من المزح ما صير المزح قبيحا واذا صار المزح قبيحا لان الذى يكون
بعده الجد ولم يصير الجد قبيحا لان الذى بعده المزح كان الجد فى هذا الوزن
أقبح من المزح وكان المزح على هذا التقدير أحسن من الجد لان ماجعل
الشئ قبيحا أقبح من الشئ كما أن ما جعل الشئ حسنا أحسن من الشئ
وأما الذى عدل بينهما فانه زعم أن المزح فى موضعه كالجد فى موضعه كما
أن المنع فى حقه كالبذل فى حقه . قال ولكل شئ موضع وليس شئ
يصلح فى كل موضع وقد قسم الله الخيرة على المعدلة وأجرى جميع الامور
الى غاية المصلحة وقسط أجزاء المثوبة على العزيمة والرخصة وعلى الاعلان
والتقية فأمر بالمداراة كما أمر بالمباداة وجوز المعاريض كما أمر بالافصاح
وسوغ فى المباح كما سدد فى المفروض وجعل المباح جماما للقلوب وراحة
للأبدان وعونا على معاودة الاعمال فصار الاطلاق كالحطة والصبر
كالشكر وليس للانسان من الخيرة فى الذكر شئ الا وله فى النسيان

مثله ولا فى الفطنة شئ الا وله فى الغفلة مثله ولا فى السراء شئ الا وله فى الضراء مثله ولولم يرزق الله العباد الا بالصواب محضاً وبالصدق صرفاً وبمرّ الحق صفحا لهلك العوام وانتقض أمر الخواص ولو ذكر الانسان كل ما أنسيه لشقى ولو جد فى كل شئ لانتكب وقد يكون الذكر للهلكة سلما كما يكون النسيان للسلامة سببا وسبيل المزاح والجد كسبيل المنع والبذل وعلى ذلك مجرى جميع القبض والبسط فهذا وما قبله جمل أقاويل القوم ونحن نعوذ بالله أن نجعل المزح فى الجملة كالجد فى الجملة بل نزعم أن بعض المزح خير من بعض الجد وعامة الجد خير من عامة المزح والحق أن ينضح عن بعض المزح ويحتج لجمهور الجد وكيف لنا بذم جميع المزح مع ما نحن ذاكرون (قال الشاعر)

* وذو باطل ان شئت ألهاك باطله *

وقال آخر

أخو الجدّ ان يجد دفما من وتيرة * لديه وان يهزل يعلّلك باطلهُ

وان كانوا قد تسموا بعابس وعباس وشتيم وكالح وفاطب وحرب ومرة وصخر وحنظلة وحزين وحجر وقرد وخنزير فقد تسموا بالضحاك والبطال وبسام وهزال ونشيط . وقد مزح رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يقال كان فيه مزاح وكذلك لا يقال مزّاح وكذلك الأئمة ومن هزل فى بعض الحالات من أهل الحلم والوقار فما روى عنه صلى الله عليه وسلم قوله يا أبا عمير ما فعل النُّغير وقوله لا تدخل الجنة عجوز وقوله زوجك الذى فى عينه بياض . وقد كان علىّ رضى الله عنه يمزح . وقال عمر انا اذا

خلونا كنا كأحدكم . وقد كان عمر عبوسا قطوبا . وقد كان زياد مع كلوحه وقطوبه يمازح أهله فى الخلاء كما يجد فى الملأ . وكان الحجاج مع عتوه وطغيانه وتمرده وشدة سلطانه يمازح أزواجه ويرقص صبيانه وقال له قائل انما يمازح الامير أهله فقال والله ان ترونى الا شيطانا والله لربما رأيتنى وأنا أقبل رجل احداهن فقد ذكرنا خير العالمين وجلة من خيار المسلمين وجباراً عنيداً وكافراً لعينا (وبعد) فمن حرم المزاح وهو شعبة من شعب السهولة وفرع من فروع الطلاقة . وقد أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحنيفية السمحة ولم يأتنا بالانقباض والقسوة وأمر بافشاء السلام وبالبشر عند التلاقى وأمر بالتوادد والتصافح والتهادى (قالوا) وكان يضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم تبسما وقالوا كان لا يستغرق ضحكا وقال دفقوا على صاحبكم وقال هذه أيام أكل وشرب وتعلل . وسمع جوارى تضرب الكبر [1] عند عائشة فلم ينكر وضحك من قيافة مجزّ المدلجي ومن الاعرابى صاحب الدجال . قد اعتذرنا فى معصيتك والخلاف على محبتك مرة بالمزح ومرة بالنسيان ومرة بالاتكال على عفوك وعلى ما هو أولى بك على أنى لم أرد بمزاحك الا ضحك سنك انظر هل هرمت الا فى طاعتك وهل أخلقنى الا معاناة خدمتك وفى الجملة انا لو تعمدنا ثم صررنا ثم أنكرنا لكان فى فضلك ما يتغمدنا وفى كرمك ما يوجب التغافل عنا فكيف وانما سهونا ثم تذكرنا ثم اعتذرنا ثم أطنبنا فان تقبل فحظك أصبت ولنفسك نظرت وان لم تقبل فاجهد جهدك ثم اجهد جهدك ولا أبقى

---

(١) الكبر بفتحتين الطبل له وجه واحد وجمعه كبار مثل جبل وجبال اه

الله عليك ان أبقيت ولا عفا عنك ان عفوت وأقول كما قال أخو بني منقر

فما بُقيا عليّ تركتماني * ولكن خفتما صَرَد النبال

والله لان رميتني ببجيلة[1] لا رمينك بكنانة ولئن نهضت بصالح بن علي لا نهض بأحمد بن خلف وباسماعيل بن عليّ ولئن صلت عليّ بسليمان بن وهب لا دمغنك بالحسن بن وهب ولئن تهت عليّ بنادمة جعفر الخياط لا تيهن عليك بجسة وهب الدلال وأنا أرى لك أن تقبل العافية وترغب الى الله تعالى في طول السلامة واحذر البغي فان مصرعه وخيم واتق الظلم فان مرعاه وبيل وإياك أن تتعرض لجرير اذا هجا وللفرزدق اذا فخر ولهرثمة اذا دبر ولقيس بن زهير اذا ما كر وللاغلب اذا كر ولطاهر اذا صال ومن عرف قدره عرف قدر خصمه ومن جهل قدر نفسه لم يعرف قدر غيره . وقد رعيت لك حق نبيذك وحسن شرابك وان كان فوق العيوق ودونه بيض الانوق وحق توتيائك وان بعثت به ممزوجا فكيف لو بعثت به خالصا وعليك بالجدة فانه خير لك ودع البنيات فانه أمثل لك فانت والله يا أخي تعلم علم الاضطرار وعلم الاختيار وعلم الاخبار أني أشد منك عقلا وأظهر منك حزما وألطف كيدا وأكثر علما وأوزن حلما وأخف روحا وأكرم عينا وأقل غشا وأحسن قدا وأبعد غورا وأنصع طرفا وأكثر ملحا وأنطق لسانا وأحسن بيانا وأجهر جهارة وأحسن اشارة وأنت رجل تشدو من العلم وتنفق من الاخبار وتموه نفسك وتغر من قدرك وتتهيأ بالثياب وتتنبل بالمراكب وتتحبب بحسن اللقاء ليس

(١) بجيلة حي باليمن من معد والنسبة بجلي محركة منهم جرير اه باختصار

عِنـدك إلا ذلك فلم تزاحم البحار بالجداول والاجسام بالاعراض وما لا يتناهى بالجزء الذى لا يتجزء فأما الباد والقامة فمن يعدل بين القناة والكرة ومن يمثل بين النخلة والدكان وبين رحى الطحان وسيف يمان وانما يكون التمثيل بين أتم الخيرين وأنقص الشرين وبين المتقاربين دون المتفاوتين فأما الخل والعسل والحصاة والجبل والسم والغذاء والفقر والغنى فهذا ما لا يخطئ فيه الذهن ولا يكذب فيه الحس والخطأ ثلاث خطأ الحس وخطأ الوهم وخطأ الرأى كل ذلك سبيـله التنبيه والتذكير والتقويم والتأنيب والعمد نوع واحد وسبيله القمع والحصر والضرب والقتل وأول ذلك أن يهجـره صاحب الحكمة ولا يطمعه فى وعظ ولا مجالسة . وقد رأيت من يعاند الحق اذا كانت المعرفة به استنباطا ولم أر من يعاند الحق اذا كانت المعرفة به عيانا وأنت لا ترضى بجحد العيان حتى تدعو اليه ولا ترضى بالدعاء اليه حتى تعادى فيه ولا ترضى بالعداوة فيه حتى تكون لك فيه الرئاسة ولا ترضى بالرئاسة دون السابقة ولا بالطارف دون التالد ولا بالمالد دون الاعراق التى تسرى والمواليد التى تنمى ولا ترضى أن تكون أولا حتى تكون آخراً ولا بالمداراة دون المباداة ولا بالجـدال دون القتال وحتى ترى أن التقية حرام وان التقصير كفر وحتى لو كنت امام الرافضة لقتلت فى طرفة ولو قتلت فى طرفة لهلكت الامـة لانك رجل لا عقب لك والامامة اليوم لا تصلح فى الاخوة ولو صلحت فى الاخوه كانت تصلح فى ابن العم ثم انها دنت من الارحام بعـد ذلك فصارت لا تصلح الا فى الولد وفى هـذا القياس أنها بعد أعوام لا تصلح الا ببقاء الامام نفسه الى

آخر الابد وهـذا هو عـلة المناسخة وأنت رافضى ولم يكن هذا عندك
فاهدلى الآن من خالص التوتياء كما أهديت لك باب التناسخ وأنت ترى
القتل فى حق المعاندة شهادة وترى أن مباينـة المنصفين فى تعظيم العنود
سعادة وأن الرئاسة فى دفع الحقائق مرتبة وأن الاقرار بما يظهر للعيون
ضعة وأن الشهرة بالمبالغة رفعة أظهر القوم عندك حجة أرفعهم صوتا وأخلقهم
للتوبة أصلبهم وجها وأحسنهم تقية أقلهم تحرجا وأكثرهم عندك انصافا
أشدهم شغبا تعسف المتهود وتكلف بالجمـوح وتصافى الوقاح والاديب
عندك من يعيب أحاديث الجلساء واعترض على نوادر الاخوان وغمز فى
قفا النديم ونصب للعالم وأبغض العاقل واستثقل الظريف وحسد على كلّ
نعمة وأنـكر كل حقيقة . جعلت فداك انما أخرجك من شئ الى شئ
وأورد عليك الباب بعد الباب لان من شأن الناس ملالة الـكثير واستثقال
الطويل وان كثرت محاسنه وجمت فوائده وانما أردت أن يكون استطرافك
للتالى قبل أن ينقضى استطرافك للماضى لانك متى كنت للشئ منتظرا
وله متوقعا كان أحظى لما يرد عليك وأشهى لما يهدى عليك وكل منتظر
معظم وكل مأمول مكرم وكل ذلك رغبة فى الفائدة وصبابة بالعلم وكلفا
بالاقتباس وشحا على نصيبى منك وضنا بما أؤمله عندك ومداراة لطباعك
واستزادة من نشاطك ولانك على كل حال بشر ولانك متناهى القوة مدبر
(خبرنى) كيف كانت خدائع المتنبئين ومخاريق الـكذابين ممن قد كان
ترشح للنبئ ومن لم يظهر دعوته ومن دعا واجتهد ومن أجيب ومن لم
يجب وصف لى أبواب مصايدهم وأجناس كيدهم وحيلهم وعن اعتمادهم

على المواطأة وعن تقدمهم فى الحىّ وعن من ذهب فى طريق التفهم وعن أصحاب الزجر والتنجيم وعن أصحاب الاسترحام وعن اظهار الزهد وتحريم الاستماع ومن وافق صورته وحاله بعض ما فى البشارات المتقدمة وفى الكتب الصحيحة ومن اتفق له غير ذلك من الشبهة فقل فى شيث ابن آدم وقل فى زرادشت وفى مانى وفى فولس وفيما ادعى لمرقس ومتى ولوقا ويوحنا (وخبرنى) عن الاسود العنسىّ ومسيلمة الحنفىّ وطليحة الاسدىّ وبنت عقفان وربعىّ وأمية بن أبى الصلت وما قصة الطائرين الاخضرين وما كان شأن الرّماح (وخبرنى) عن سلامة بن جندل وما قال الهند فى نزول البدّ وقصة ابن ديصان وما قول عبدة الكيان وعباد قوة الهيولى وأصحاب البيضة ومن عبد النجوم وثبت لها الحس والعلم والنفع والضر ومن جعل كل داع الى الله بالصواب والعدل وصلة الرحم ونفى الجهل نبياً ومن أنكر أصل النبوة البتة وما تقول فى حنظلة بن صفوان وخالد بن سنان وقل فى الذى آتاه الله آياته فانسلخ منها وهل يجوز أن يكفر نبى أو يشرك أو يضل بعد هدايته ويصير عدواً بعد ولايته ويدل الله على كذبه كما دل على صدقه وكيف صار النبى عندكم يعصى ولا يخطئ والامام لا يعصى ولا يخطئ وكيف ساغ ذلك فى جميع النبيين وأمكن فى جميع المرسلين على كثرة عدد النبيين والمرسلين ولم يجر ذلك فى امام واحد مع قلة عدد الائمة مذ كانوا (وخبرنى) لم تنصّر النعمان ويزيد بن الحارث وتهود ذو نواس وتمجست ملوك سبأ وكيف صارت العرب فرقا بين محل ومحرم وأحمسى سوى تفرقهم فى الملل وكيف

لم نر أمـة قط دهرية وقـد علمنا انه لايجوز أن يتنبأ ذهرى وكيف لم يتدهر ملك وكيف لم نجد قول الدهرية الا فى الخاص والشاذ والرجـل النادر ولم كان لجميع أهل الاديان مملكة وملوك الا الزنادقة ولم قتلهم جميع الأمم السالفة ولم قضيت بهذا وقد رأينا المصدقية والديناورية والتغزغزية فان قلت لان من لم يكن من دينه القتال والبأس من غريزته فهو مسلوب أو مسترقّ فما بال الروم تمنع أن تسترق وأن تسلب وليس من دينهـم قتال ولا جدال ولا مكافأة ولا دفع • جعلت فداك أين كان عبد الله بن هلال الحميرى صـديق ابليس من كردباش الهندى وأين كان يقع منهما صالح المديبرىّ وأين عُبدمُنجّ من البطيخى وأين عبدالوارث من الهجيمىّ وأين كان أبو منصور فى المخاريق من جرمى وأين باموية من حسـده وأين قشة اليهودى من كشة وما فصل ما بين الـكهانة والشعبذة ومافصل ما بين الحازى والعراف وأين كان عزّى سـلمة من سطيح الذئبى وأين كان الابلق الاسدى من رياح بن كحيلة وأين كاهن سعد هذيمة من حليس الخطاط (وحدثنى) عن ساحرة حفصة وساحرة عائشة اقتلناهما باقرار منهما أم بمعرفة منهما بكيفية السحر (وحدثنى) عن صاحب جندب ابن زهير باقرار قتـله أم عن معرفة منه بمعنى السحر • وهل ثبت جعلت فداك أن النبي صلى الله عليه وسلم سحر فى جُفّ طلعة ووضع تحت راعوفة البئر أم لا (وخبرنى) ما البحر باى وما البارباى وما الـكروريات وما الخواتيم وما المناديل والسعى والامر الذى كان فى خاتم سـليمان وما السكينة التى كانت فى التابوت فقـد اختلف المفسرون فيها وزعموا أنهـا

كانت رأس هرّ وما سعسف ياسينية وما الفتل وما التوجيه (وخبرنى)
ما تأويل الزمزمة وما فعل المال الذى من أخذ منه ندم ومن لم يأخذ منه
ندم (وخبرنى) عن قول الخليل فى الوهم القديم (وخبرنى) جعلت فداك عن
قولك فى الشعر الذى ننشده فى المنام مما لم نسمع بأجود منه فى اليقظة
وعن الشعر الذي نخترعه عن منافلة الكلام وموازنة الامور وحال النوم
وحال الآفة والنقص وصاحبه مغمور أم شبيه بالمغمور ولا يجرى عليه
قلم ولا يلام ولا يشكر ولم صرنا نتذكر الشئ المهم فلا نقدر عليه حتى
ندعه فأيسنا منه أجمع مانكون أنفساً وأحسن مانكون تذكرا ثم
يعارضنا ويخطر على بالنا فى حال سهر أو فى حال نوم وأغنى مانكون
عنه وأقل مانكون احتفالا به ولم صرنا ننسى من القصيدة بيتاً أو آية من
جميع السورة أو كلمة من جميع كلام الخطبة ولم صار البلغم بالباء أولى منه
بالتاء ولم كانت المرّة السوداء بالجيم أولى منها بالحاء وكذلك القلب
المانع من الحفظ وهل بد للحقيقة من خصائص أسباب وأعيان علل
والا فقد يجوز أن تنسى هذه القصيدة بدل تلك ولم صار بعض الناس
أحفظ للنسب وبعضهم أحفظ للاسناد وبعضهم أحفظ للمعانى وبعضهم
أحفظ للألفاظ ولم صرنا لا ننسى السباحة وبالاكتساب عرفناها والعادة
أن المكتسب قد ينسى ويجهل وأن الضروريات لا تجهل وقل لى لِمَ لَمْ
تضرب السامرى ولم لم تعض مانى وتمضه ولم لم تبزق فى وجه فرعون
أما ان الطبيعة التى هبتنك من هشام بن خلف بن قوالة الكنانى حين
قال على رأس النعمان وأنت رجل يمان هى التى منعتك من أن تبزق فى

وجـه فرعون وأنت سمعته يقول وما رب العالمين ولم أزعم أنك رجـل
يمان لولادة لك فى قحطان كيف وأنت أقدم من قحطان ومعد بن عدنان
ومن القرون التى خبر الله عن كثرتها وعن آبائها وأجـدادها ولـكنك
منهم بالهوىٰ والنصرة ولانهم كانوا لك أحشاما وصنيعة . وقل لم صار جميع
الحيوان يسبح الاّ الانسان والقرد والعقرب والفرس الاعسر وأىّ شئ
عندك فى آصف وفى سفر آدم وفى جراب موسى وفى درسب وفى شنلة
وفى كتاب الاسماء وفى قولهم دعا فلان باسم الله الاعظم وما تقول فى ابن
عقيب وفى أشجّ بن عمرو وفى شعيب وصالح وفى السفيانى وفى الاصفر
القحطانى (وخبرنى) جعلت فداك مذ كم صنعت حساب المسمرح ومن
صاحب خطوط الهند وأين كتب قوم صنعة السندهند والاركند
وحساب كلاسفر ومذ كم عمل باب الجامع ومذ كم عمل الارتماطيقى ومن
سمى الجبر بالجبر والجذر بالجذر والنشاذر بالبارود والاكدرية من أى
شئ اشتقت وما تأويل الدحال وما تأويل الجمل ومن أول من عـدّ الى
عشرة وجعل العشرة منتهى وغاية ثم ضاعفها وجعل غايات الاعداد عشر
العشرات وعشرات عشرات العشرات أبداً ثم كسر على العشرة مما دون
أعـدادها لان الاصابع عشرة وكيف لم يجعـل الغاية ما له نصف وثلث
وربع وسـدس وثمن أم رأى أن التضعيف أبداً لا يكون الا للعشرات
فقد نجده فى عشر العشرات أم القول الاول الاشياء كلها عشرات واست
أعرف جعلت فداك قوله ان الانسان عشرة أشياء كما لم أعرف قول
الفزارى أن العقل كرىّ وقد علمت أن القلب كرىّ وأن الرأس الذى جمع

للحواس كرىّ فأما العلم والقول وما أشبههما فانا لا نعرف هـذه الامور
الا على خلاف الاجرام الموصولة والمقطوعة وقد شدوت من الموسيقى ولم
أبلغ منه شهوتى (فخبرنى) أين كان اقليدس وميرسطوس من فيثاغورس
وأين تلامذتهما من تلامذته وهلا قدمتم اقليـدس مع صنعة البرابط
والمعازف وأين أرشخانس من مورسطس وأين ريوشت من فلهوذ ولم
قتله وهو فوقه فى الاطراب والصنعة وفى الرواية والرئاسة ولم عفى سابور
عن قتله بعد اقراره بقتله وبعد أن سحب الى الفيلة وعزم على امضاء الحكم
وأين كانت هرّ وخرتنا من الجرادتين وأبو طيبة والرباب من السردان
والمهراس وأين حبابة وسـلامة من صاحبتى يزيد وأين عزة من جميـلة
الحدباء وأين حينة من الميلاء (وخبرنى) عن غناء الركبانية للمصطلق أخذته
منه الركبان أم للركبان وهل رجعه بخسر المصطلق وزعمت أن الاهزاج
لليمن وأن النصب للقينات فلمن السناد (فخبرنى) أين كان ضبيس بن حرام
من المصطلق بن سعيدة ولم جعل المعلم النغم يعد لليونانى ست عشرة نغمة
ألأنه لم يدرك أكثر منها أم لانه ايس فى الخلقة الا ما أدرك ولم جعل
الرغب للسوداء والحزن للبلغم والجرأة للصفراء والسرور للـدم ولم فسر
الاوتار على ذلك فجعـل الزير للصفراء والمثنى للـدم والمثلث للبلغم والبم
للسوداء وقال الزير لطيف نارىّ خفيف والمثنى هوائىّ بين طبيعة النار
وهو دون النار فى الخفة وبين طبيعة الماء وهو فوق الماء فى الخفة والمثلث
كالماء والبم كالارض وفى المثنى ضعف وزن الزير وفى المثلث ضعفا وزن
الزير وفى البم ثلاثة أضعاف . ولم زعم أن من اللحون ما يقاق ويفرق فان

زيد فيه نقّض وان قوى قتل وان فيها ما يغير فان زيد فيه غشّى فان قوى أجمد فان قوى قتل فجعل لحناً مطلقا يقتل بالاذابة وجعل لحنا يقتل بالاجماد ولم وصف اللحون بالاجماد والاضاعة كما توصف السموم القاتلة (خبرنى) عن صنعة البربط لِلَمك [1] أم لرفائيل أم لإقليدس وما تقول فى قولهم إن لمكا عمل العود على صورة فخذ ابنه ساقها وقدمها وأصابعها وانه جعل الصدر الفخذ والساق الابريق والقدم المشط والاصابع الملاوى والاوتار العصب والعروق . جعلت فداك كيف حفظك لكتاب كاوريد وقد خبرنى بعض المتكامين أنه رأى بسيراف مجوسيا يحفظه وهو فى ألف جلد بخط مقارب وكيف حفظك لكتاب الطرف وهل لقيت واضعه أيام أدخلك بلاد الروم نزول عطارد (وخبرنى) عن أسرار الهند ألرَجال بعينه أم اشورى ولم زعموا أن العقوق يورث البرص وهذا مما لا يعرف فى الطب . ومن صاحب الشطرنج ومن صاحب كليلة ودمنة ومن واضع الكوكاة ومن طبع القلعة ولم صار الهندى والرومى لا يحفلان بالسندى فى حال الأسر ويرغبان عنه فى حال القتال . وقد اختلفوا علينا في النعال السندية فزعم قوم أن صاحب كتاب الباه كان قصيراً منكراً وكان بالنساء مستهترا وأنه احتال بها لجسمه حتى وصلها برجله انكون نخنها زائدا فى طوله فلما طالت الايام ومضت الدهور ظن من لا علم له أنها اتخذت للزينة أو لضرب من المرفق

(١) (قوله لملك) قال في القاموس لملك محركة هو أبو سيدنا نوح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام

• وقال آخرون بل اتخذت للعقارب ليلا وللطين نهارا فلما طال عليها الدهر نسي السبب وذلك أن أكثر الرداغ لا تستغرف ثخنها وابرة العقرب لا تكاد تجاوزها • وقال اخرون بل انما أخذتها ملوكها لمكان أصواتها وصريرها استئذانا على أزواجها وأمهات أولادها وعلى جميع محارمها الحالات تكنّ عليها وأمور تكن فيها فصار صريرها تدنؤاً واستئذانا وزعم اسماعيل بن على أنك أنت الذى كنت أمرت باتخاذها وأشرت بصنعها وأنك تكتم السر الذى فيها وأنك الذى علمتهم مضغ التانبول ودبغ تحمير الاسنان وتطبيب النكهة وأكل السعد لما أنت أعلم به والتصندل لما لا يجوز المكاتبة وأنك أول من احتبى هناك واستاك وفرق شعره وعلم الخضاب أهله • وكيف وقد زعمت أن الاحتباء انما صار فيهم وفى العرب لأن نازلة العمد والصحارى وسكان الفيافى والبرارى وكل من ليس لشماله مرفقة ولا لظهره مسندة ولا افخذه جنة لا بد أن يشتكى ظهره اذا طال انتصابه وكثر جلوسه ومن احتاج احتال ومن استغنى تبلد فأخرجت لهم الحبكة للحبوة حتى قامت لهم مكان المتكأ والمسند فقد قال لك كسرى فما بال الترك والخزر وجميع أهل الصحارى والعمد لا يعرفون الاحتباء والحاجة واحدة والعقول سليمة فلم أمسكت يومئذ عن الجواب ألأنه استفهام الرادّ أو نفست به على من شهد ذلك المشهد وأنا جعلت فداك اعلم انى أسمع ولا أعقل كيفية السمع واعلم أنى أبصر ولا أعقل كيفية البصر ولا أدرى أمعدن العقل الدماغ والقلب بابه وطريقه كما أن معدن اللون جميع النفس والعين بابه

وطريقه أم معدن العقل القلب دون الدماغ أو لعلهما موصولان غير مقطوعين . وقد اعتل قوم للدماغ بأن جميع الحواس فى الرأس واعتل قوم بالحس وبما يجدون في قلوبهم من الرغب والاضطراب وغير ذلك فكيف القول فيه وعلام عزمت منه وكيف صار النار يبتدى من جهة وان كان يعرف الله فكيف عرفه أباضطرار أم باكتساب وكيف جهل سليمان موضع ملكة سبأ وهى ملكة وشأنها عظيم والجن له مسخرة والطير له بُرْد والريح له أداة وكيف جهل يوسف مكان أبيه وحاله فى الحزن عليه حاله وهو ملك نبي وكيف جهل أبوه مكانه وهو نبي وليس أنبه من نبي وملك هذا بالشام والآخر بمصر وما تقول فى أهل التيه وعن ترددهم أربعين عاما فى مكان واحد وعقولهم معهم وانما يجولون ليقفوا على الطريق فكيف أضل الجميع الطريق مع ارتفاع الذكر وشدة الطلب (وخبرنى) عن كلام عيسى فى بطن أمه ثم فى المهد وعن عقل يحي فى حال الصبا أكانا فى حالهما يتعلقان مالا يعلمان أم ينطقان بما يعلمان وكيف علما أبتجربة واستنباط وعن تمام أداة وكمال آلة أم من طريق الالهام والاخراج من العادة . وقد تعجب ناس من اطالتى ومن كثرة مسألتي وتعجبي من تعجبهم أشد والذى كان من أفكارهم أعظم ولو رغبوا فى العلم رغبتى ورأوا فيه مثل رأيي وكانوا قرؤا كتابى اليك فى شبيبتى وأيام شباب رغبتى لاستقلوا من ذلك ما استكثروا ولاستقصروا منه ما استطالوا فان أذنت لى أظهرته وان تجد عليّ أعلنته وستقول مادعاك الى التنويه بذكرى وتعريف الناس مكانى وقد تعرف حشمتي وانقباضى

وتفردي واستيحاشي . ولولا أنك جعلت فداك مسؤول فى كل زمان والغاية فى كل دهر لما نفردتك بهذا الكتاب ولما أطمعت نفسي في الجواب ولكنك قد كنت أذنت في مثلها لهرمس ثم لأفلاطون ثم لارسطاطالس ثم أجبت معبد الجهنيّ وغيلان الدمشقيّ وعمرو بن عبيد وواصل بن عطاء وابراهيم بن سيّار وعلى بن خالد الاسوارى فتربية كفك والناشئ تحت جناحك أحق بذلك وأولى وقد كان يجب أن تكون على ذلك أحرص وبه أعنى (وخبرنى) عن المرائى كيف صارت تُرى الوجوه ويبصر فيها الخلق وكذلك كل أملس صقيل وصاف ساكن كالسيف والوذيلة [1] والقوارير والماء الراكد حتى الحبر البرّاق والحدقة السوداء اذا كان الناظر فى الحدقة أبيض والحدقة المُغربَّة اذا كان الناظر فيها اسود وكيف صار الماء الجارى والنار المتلهبة والشمس ذات الشعاع لاتقبل الصورة ولا يثبت فيها الخلق . وعن قول من زعم انه ليس فى القمر محق ثابت ولا كمد جامد ولا سواد راكد وانما ذلك شئ رآه الناس فيه اذا كان أملس صقيلا بمقابلة الارض ومافيها كما يرى من قابل الحدقة صورة انسان وليس هناك صورة وانما هو شئ يوجد عند المقابلة ولمَ صار بعض المرائى يرى الوجه والقفا ويرى الرأس منكسا ولم كنت لاتجد كتاب الستور والمطارح فيها أبداً الا مقلوباً وما تلك الصورة النابتة فى المرآة أعرض أم جوهر أم شئ وحقيقة أم تخييل والذى ترى أهو وجهك أو غير وجهك فان كان عرضاً

---

(١) قوله والوذيلة قال فى القاموس الوذيلة كسفينه المرآة والقطعة من الفضة المجلوة أو أعم جمعه وذل ووذائل اه باختصار

فما الذى ولده وما الذى أوجبه والوجه لم يماسه ولم يعمل فيه وهل أبطلت
تلك الصورة المرئية صورة مكانها فى المرآة ولم وانت لست تراها فى نفس
صفيحة المرآة ولم وكأنك تراها فى هواء خلف جوفها وهل أبطل ذلك
اللون الذى هو فى مثال لونك لون المرآة فإن لم يكن أبطله فهناك اذاً
صورتان فى جسم فى حال أو لونان فى جوهر واحد وان كان قد أبطل لون
الحديد فكيف أبطله من غير أن يكون عمل فيه وكيف يعمل فيه وحيّزه
غير حيّزه وهو لا مماسّ ولا متصل ولا مصادم وسواء كرّنا صفيحة
الحديد أم ما خلفها من الهواء وما قدامها من الفرجة كل ذلك جسم ذو
لون فان اعتللت بالشعاع الفاصل والشعاع يخالف فى الحسّ كذلك الحسّاس
وكذلك المحسوس وكيف نرى المخالف وكيف والشعاع لون وبياض
والنفس الحسّاسة لا تدرك بشىء من الحواس وما الفرق بين الاسعبان
والاحلال وعن قول ما بين السمون والحفرة (وخبرنى) عن القرسطون
كيف أخرج أحد رأسيه ثلاثمائة رطل زاد ذلك أم نقص ووزن جميعه
ثلاثون رطلا زاد ذلك أو نقص وما تقول في السراب وما تقول فى الصدا
وما تقول فى القوس وما تقول فى طريقة الحمرة وفى طريقة الخضرة
وكيف اختلفتا والهواء واحد وما يقابلهما واحد وهل ذلك اللون حقيقة
أم تخييل (وخبرنى) عن لون ذنب الطاوس ما هو أتقول بانه لا حقيقة
له وانما يتلون بقدر المقابلة أم تقول ان هناك لوناً بعينه والباقي تخييل
وما تقول فى عسّ الماء كيف اشتد صوته بلا باب والصوت لا بد
له من هواء و اذا اشتد فلابد له من باب وما تقول فى خضر السماء

أهو خضر جلدها كما تقول أم ذلك لحر الهواء كما يقول خصمنا وهل تزعم أن الافلاك ذات لون فان كان لها لون فقد احتملت جميع الاشكال وهذا خلاف ما يقولون وان لم تكن ذات لون فالسماء اذاً غير الفلك فهذا . هذا ونقول أيضاً ان كنا لا نرى القرى المستطيلة والبنيان المختلفة من البعد الا مستديرة فلعل الشمس مصلّبة والكواكب مربّعة وما تقول في المد والجزر أمن ملك يضع رجلا ويرفع رجلا فان كان كذلك فلعل مدبّر الفلك ملك ولعل صوت الرعد صوت زجر ملك فندع الفلسفة ونأخذ بقول الجماعة أم نزعم أن المد والجزر من نفس الجواذب اذا جذب واذا رفع . وما تقول في قول من زعم أن القمر مائيّ وأشبه الكواكب بطبيعة الارض فانما يكون الجزر والمد على مقادير جذبه للماء وارساله له ذلك معروف في منازله ومجاريه يعرف ذلك أهل الجزر والمدّ (وخبرني) كيف صارت القيافة في النسبة وفي الماء والجو والتربة وليست القيافة تكلفاً وصنعة ولا عرفت بالاستنباط والفكرة فتكون لمن تعلّم دون من لم يتعلم تجدها في بني مدلج ثم في خاص من خثعم وكذلك خزاعة وهي في قريش أقل وهي في بني أسد أقل وليس هؤلاء لاب ولا يجمعهم بلد وليس فيما بين البلدين قافة وهل فيهم على هذه الصفة وكيف لم يختلفوا في لغتهم فينطق بعضهم بالزنجية وبعضهم بالنبطية وبعضهم بالفارسية . فان قلت فارقهم المعجم والشاعر والبكيّ والعرير فان الشاعر وان كان المريض عليه أسهل وهو على القوافي أقدر فانه يتروى الشعر ويصنعه ويتفرد له ويفكر فيه وكيف صار به انسان يعيش حيث تعيش النار ويموت حيث تموت النار

يصاب علم ذلك في الجباب وفى الغيران ولم صار يبصر النجوم من قعر البئر العميقة ولا يبصرها أبداً الا وهو خالص الظلمة (وخبرنى) عن الظلام أجسم موجود عند زوال الضوء أم تأويل قولنا ظلام انما نريد به دفع الضوء فان كان الظلام معنى افتراه انقمع فى الارض وكمن عند انبساط الضوء وردع الشعاع أم الارض قرص للظلام كما أن عين الشمس قرص للضياء وان كان قائما فكيف لم يتنافيا وان كانا قد تداخلا فكيف لم نجدهما على منظر الأعين ولو كان الامر كذلك فنحن اذاً لم نرضياء قطّ ولا ظلاماً (وخبرنى) جعلت فداك لم زعمت أن الحسّ للعصب وأن الشعر عصب جامد وأن الرئة لاحسّ لها وأن من أدام سفّ اللبان لم يؤلمه المؤلم ولم يلذّه الملذّ وكيف يلذّ من لا يألم ولو جاز ذلك لعرف الصواب من يجهل الخطأ ولعرف الصدق من يجهل الكذب هذا ما عندى من العلم البرانىّ وأنت أبصر بالعلم الجوانىّ . وزعم بعض تلاميذك أنك تعلم لم كان الفرس لا طحال له ولم صار البعير لا مرارة له ولم كانت السمكة لا رئة لها ولم كانت حيتان البحر لا ألسنة لها ولم حاضت الارنب ولم اجترّت ولم كان قضيبه من عظام ولم كانت علائق أجواف السبع افراداً الا الكلية . وزعمت أنك تعرف فى الخفاش سبعين أعجوبة ونحن لا نعرف الا سبعا وأنك تعرف فى الذهب مائة خصلة كريمة والناس لا يعرفون الا عشراً وأنك تعرف فى البعير ألف داء ودواء والاعراب لا تدعى الا مائة داء غير دواء . جعلت فداك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كاد البيان أن يكون سحراً . وقال ان من البيان لسحراً . وقال عمر بن عبد العزيز وسمع رجلا يتكلم بكلام بليغ عجيب لطيف

رقيق هـذا والله السحر الحلال . وقال الناس لذى المكر والخلابة ولذى الرفق والتأنى ما هو الا ساحر وقد سحر بكلامه . وقالوا للمرأة ساحرة العينين . وقد ذكر الله السحرة فى القرآن وأخبر عن هاروت وماروت وخبر عن النفاثات فى العقد وقال الناس لهو أقبح من السحر اذا أرادوا نفس المعنى المشبه به والمعنى المحمول عليه والسحر نفسه وما الذى اشتقت منه هذه الامثال . ولم تجدهم أبقاك الله سموا كهان العرب سحرة ولا العراف ساحراً ولا الحازى ولا صاحب الطرق ولا من كان معه رئى ولا من ادعى تابعة من لدن عمرو بن لحى الى يومنا هذا وما قاله اذا عقد عقداً أو دفن صورة بالاندلس لرجل بفرغانة واذا صور شمعين وخرطهما على مثال انسانين ودفنهما وخبأ مكانهما وقابل بين وجوههما تقابلا بالمودة وان دابر بينهما تدابرا بالمودة . وقل لى من يتولى هذا له ومن يقوم له به ومن يتطوع به عليه فان قلت الشيطان فلم فعل هـذا له وأول شيطنته أن لا يطيع من هو فوقه فان قلت بالعزائم التى لا ترد والايمان التى لا تدفع فقد عزم الله عليه بالقرآن والتوراة والانجيل فلم يجده يحفل بذلك ولا يرى له قدراً ولا يكترث له ولا يراه سبباً (وأخبرنى) ما هذه العزيمة التى اذا سمع بها أجاب واذا ظهرت له أناب ومن أين عرف الانسان هـذه العزيمـة ومن أين وقع عليها ومن له بها أهو صنعها أم صنعت له فان يكن الشيطان هو الذى ابتدأه بها فقد ابتـدأه اذاً بتعريف العزيمة قبـل أن يعزم عليـه وقد تطوع بأعظم الامور فما الذى يحوجه الى العزيمة فى أصغرها فقل فى هذا وان زعمت أن العازم صاحبه دون الشيطان والعازم

مسلم وان كان مسلماً ولذلك أجاب العزيمة وعظم الاخلاف فلم يخبل له الاصحاء ويقتل المرضى ولم يحبّب وبغّض ولم يفرّق بين المرءوأهله وبين الولدالبارّ وأمهولم يجتلب العفائف الى الزناة ولم يعذب ويقتل وهذا متناقض ولم قيل أعقّ من ضب وأبرّ من هرّة وهما جميعاً كلان أولادهما ولم عال الذئب أولاد الضبع اذا قتلت أو ماتت حتى قال الشاعر حتى عال أوس عيالها وهل يفهم الضبع قولهم خامرى أمّ عامر وما بال الظبي لا يدخل كناسه الا مستدبراً وهل يجوز قولهم فى نوم الذئب (قال الشاعر)

ينام باحدى مقلتيه ويتقى * المنايابأخرى فهويقظان هاجع

ولم نامت الارنب مفتوحة العينين ولم أكل الذئب صاحبه اذا رأى به دماً وما بال الجنّ والنيران وما بال الشياطين والورثان وهل فى الجنات جنان وما معنى قولهم كانما كسر بجبر وما تأويل الحديث يؤخذ للجماء من القرناء ويكلف أن يعقد بين شعيرين . ولم زعمت أن عمر نوح أطول الاعمار مع قولك ان جميع الانبياء قد حذّرت من الدجال وان الدجال انسان وقد سألتك وان كنت أعلم أنك لاتحسن من هذا قليلا ولا كثيراً فان أردت أن تعرف حقّ هذه المسائل وباطلها وما فيها خرافة وما فيها محال وما فيها صحيح وما فيها فاسد فالزم نفسك قراءة كتبي ولزوم بابى وابتد بنفى التشبيه والقول بالنداء واستبدل بالرفض الاعتزال وان أتنكر منعك بعد التمكين والبذل وبعد التقريع والشحذ فلا يبعد الله الا من ظلم . وقد بقيت لى عليك مسائل وهى خاتمة الكتاب ومنتهى المسائل أيهما أحسن قول بقراط مفسراً العمر قصير والصناعة طويلة والزمان جديد والتجربة خطأ

والقضاء عسر أم قول أفلاطون مجملا لولا أن فى قولى انى لا أعلم تثبيتا لانى أعلم لقلت انى لاأعلم أم تواضع أرشخانس حيث يقول ليس معي من فضيلة العلوم الا علمى بأنى لست بعالم فانظر فى آخر هؤلاء ثم انظر فى قول ديمقراط عالم معاندخير من علم منصف جاهل وفى قول تلميذه الاوّل الجاهل لا يكون منصفاً والعالم لا يكون معانداً وقد يكون العالم معاندا ثم انظرفى قول دسموس لولا العمل لم يطلب علم ولولا العلم لم يطلب عمل ولان أدع الحق جهلا به أحبّ الىّ من أن أدعه زهداً فيه وان كان الجهل لا يكون الا من نقصان من آلة الحس فان المعاندة لمن زيادة فى آلة الشر ولأن أترك جميع الخير أحبّ الىّ من أن أفعل بعض الشر ثم أنظر فى قول تومقراط العلم روح والعمل بدن والعلم أصل والعمل فرع والعلم والد والعمل مولود وكان العمل لمكان العلم ولم يكن العلم لمكان العمل فالسبب الجالب خير من السبب المجلوب والغالب خير من المغلوب وانظر فى قول فليميون العلم كان من العمل والعمل غاية والعلم رائد والعمل مرسل ثم انظر فى قول أرسطاطاليس ليس طلبي العلم طمعا فى بلوغ قاصيته ولا سبيلا الى غايته ولكن التماس مالا يسع جهله ولا يحسن بالعاقل خلافه ثم انظر فى قوله قد عرفت الارثماطيقى وأيقنت معرفة الموسيقى وعرفت المساحة فلم يبق الا علم الالاهى ومعرفة الاصطلاح ثم انظر فى قول مورسطوس عرفت أكثر المقصور وأقل مايوقف عليه من المبسوط وقليل الكثير كثير وكثير القليل قليل وبدأت بما حاشا له أن يكون مبسوطاً ومرغوبا به أن يكون مقصوراً وهو معرفة الواحد الذى منه كان أول الاعداد واليه يكون

معادى ثم انظر فى قول أفليمون ماأقل منفعة كثير المعرفة مع شرف الطبيعة واقتصاد الشهوة ثم انظر فى قول تلميذه الاول غلبة الطبيعة تبطل المعرفة وتنسى العاقبة ولو كانت المعرفة ثابتة لكانت هى الغالبة ثم انظر فى قول تلميذه الثانى ليس بعلم ما كان مغلوباً وليس بفهم ما كان مغموراً بل لا يكون مغلوبا الا بالنقص والخبال ولا مغموراً الا بالغلبة والانتقاض ثم انظر فى قول ماسرجس من قصر عن طلب العلم لرغبة أو رهبة أو منافسة أو شهوة كان حظه من الرغبة وحظه من الرهبة على مقدار حق الرهبة ومن طلب العلم لكرم العلم والتمسه لفضل الاستبانة كان حظه منه بقدر كرمه وقدره وانتفاعه به على حسب استحقاقه فى نفسه . وقد اختلفوا فى العقل بأكثر من اختلافهم فى العلم فمنعنى من ذكره لك غموضه عليك واستتاره عنك وعلمت أنى لا أقدر ان أصوره لك دون دهر طويل ولا أضمك معناه دون ترتيب كثير هذا الكتاب مرض مع ما فيه من الأخلاط من اشكال واضداد ومن الجد والهزل ومن الحطة والإطلاق ومن الاستئناف والقطع ومن التحفظ والتضييع ومن التثبيت والتهاون اذا أريد به تقريع معجب أو تكشيف مموه أو امتحان متكل أو تخجيل وقاح أو قمع ممار أو ممازحة ظريف أو مسائلة عالم أو مدارسة حافظ أو تنبيها على الطريق أو تجديداً للذهن . والعقل حفظك الله أطول رقدة من العين وأحوج الى الشحذ من السيف وأفقر الى التعهد وأسرع الى التغير وداؤه أقتل وأطباؤه أقل وعلاجه أعضل فمن تداركه قبل التفاقم أدرك أكثر حاجته ومن رامه بعد التفاقم لم يدرك شيئاً من حاجته ومن أكثر أسباب العلم كثرة الخواطر

ثم معرفة وجوه المطالب ثم فى الخواطر الغث والسمين والفاسد والصحيح والمسرع اليك والبطيء عنك والدقيق الذى لا يكاد يفهم والجليل الذى لا يلقى الفهم ثم هي على طبقاتها في التقديم والتأخير وعلى منازلها فى التباين والتمييز والمطالب طرق ولدرك الحقائق أبواب فمن أخطأ فانتظر كان أسوأ حالا ممن لم يخطأها ولم ينتظر وعلى قدر صحة العقل يصح الخاطر وعلى قدر التفرّغ تكون البيّنة هذه جماع هذا الباب وجمهوره وأقسامه وجملته ثم من أنفع أسبابه الحفظ لما قد حصل والتقييد لماورد والانتظار لما يرد ولا تخلى نفسك من الفكرة الاّ بقدر جمام الطبيعة وان تعلم انّ مكان الدرس من الحفظ كمكان الحفظ من العلم وان تعرف فضل مابين طلب العلم للمنافسة والشهوة وبين طلبه للرغبة والرهبة وان تعلم ان العلم لا يجود بمكنونه ولا يسمح بسرّه ومخزونه إلاّ لمن رغب فيه لكرم عنصره وفضّله لحقيقة جوهره ورفعه عن التكسّب وصانه عن التبذّل وانه لا يعطيك خالص الحكمة حتى تعطيه خالص المحبّة وكان يقال من شاب شيب له وخصلة ينبغى أن تعرفها وتصطنعها وتتذكّرها وتقفَ عندها وهى أن تبدأ من العلوم بالمهمّ وان تختار من صنوفه ماأنت له أنشط والطبيعة به أعنى فان القبول على قدر النشاط والبلوغ فيه على قدر العناية ثم من خاص أسبابه تخليص اخلاطه وتمييز أجناسه والمعرفة باقداره حتى تعطى كلّ معنى حقه من التقريب والرفعة وقسطه من الابعاد والضعة وحتى لا تتشاغل الاّ بالسمين الثمين وبالخطير النفيس ولا تبقى الا الغثّ الخسيس والحقير السخيف فانك متى كنت كذلك لم تميز فضل مابين النظرين ولا صرف

ما بين النعتين والكيس كلّ الكيس والحذق كلّ الحذق أن لا تعجل ولا تبطيء وان تعلم ان السرعة غير العجلة وان تعلم انّ الاناة خلاف الابطاء وان تكون على يقين من درك الحقّ اذا وفيته بشرطه وعلى ثقة من ثواب النظر اذا أعطيته حقه هذه جملة العذر فى هذه الرسالة وجملة الحجة فيما قدّمنا من الافنان والاطالة فان كنا أصبنا فالصواب أردنا وإلى غايته أجرينا وان كنا قد أخطأنا فما ذلك عن فساد من الضمير ولا عن قلة احتفال بالتقصير ولعلّ طبيعة خانت أو لعلّ علة حدثت أو لعلّ سهواً اعترض أو لعلّ شغلا منع خفض عليك أيها السامع فان الخطاء كثير غامر ومستول غالب والصواب قليل خاصّ ومقموع مستخفّ فوجه اللائمة الى أهلها وألزمها من هو أحقّ بها فانهم كثير ومكانهم مشهور كنت أتعجب من كلّ فعل خرج من العادة فلما خرجت الافعال بأسرها من العادة صارت بأسرها عجباً فبدخول كلها فى باب التعجب خرجت بأجمعها من باب العجب وقد ذكر الله تعالى التعجب فى كتابه وقد تعجب رسول الله صلعم فى زمانه وفى الناس يومئذ الناقص والوافر والمشوب والخالص والمستقيم والمعوّج قال الله تبارك وتعالى لنبيه وان تعجب فعجب قولهم وقال بل عجبت ويسخرون وأعلم انه لم يبق من المتعجب الفائت الا نصيب اللسان ولا من المستمع الفائت الا حصة السمع وأما القلوب فخاوية قاسية وراكدة جامدة لا تسمع داعياً ولا تجيب سائلا قد أغفلها سوء العادة واستولى عليها سلطان السكرة فدع عنك مالست منه فان فيما أورده عليك شغلا وهما داخلا (أعلم) أن الله تعالى قد مسخ الدنيا بحذافيرها وسلخها من جميع معانيها ولو مسخها كما مسخ بعض المشركين

قردة أو كما مسخ بعض الامم خنازير لكان قد بقي بعض أمورها وحبس عليها بعض أعراضها كبقية ماسع القرد في ظاهره من شبه الآدمى وبقية ماسع الخنزير في باطنه من شبه البشرى لكنه جل ذكره مسخ الدنيا مسخاً متتبعاً ومستقصى مستفرغاً فبين حاليهما جميع التضاد وبين معنييهما غاية الخلاف فالصواب اليوم غريب وصاحبه مجهول فالعجب ممن يصا وهو مغمور ويقول وهو ممنوع فان صرت عوناً عليه مع الزمان ق ر أمسكت عنه فقد رفدته واسنا نزيد منك النصرة ولا المعونة ولا التأنيس ولا التعزية وكيف أطلب منك ماقد انقطع سببه واجتث أصله وقد كان يقال من طلب عيباً وجده هذا في الدهر الصالح دون الفاسد فان أنصفت فقد أعنت وان جرت فلم تعد ماعليه الزمان وهب الله لنا ولكم الانصاف واعاذنا وايا كم من الظلم والحمد لله كما هو أهله وهو حسبنا ونعم الوكيل والمعين

﴿ تمت الرساله الرابعة وتليها الرساله الخامسة ﴾

(في تفضيل النطق على الصمت)

الرسالة الخامسة

في تفضيل النطق على الصمت

للعلامة الشهير والفهامة الكبير الاستاذ أبي عثمان عمرو بن محبوب
المعروف بالجاحظ رحمه الله تعالى

بسم الله الرحمن الرحيم

أمتع الله بك وأبقى نعمه عندك وجعلك ممن اذا عرف الحق انقاد له واذا رأى الباطل انكره وتزحزح عنه قد قرأت كتابك فيما وصفت من فضيلة الصمت وشرحت من مناقب السكوت ولخصت من وضوح أسبابهما وحمدت من منفعة عاقبتهما وجريت في مجرى فنون الاقاويل فيهما وذكرت انك وجدت الصمت أفضل من الكلام في مواطن كثيرة وان كان صوابا والفيت السكوت أحمد من النطق في مواضع جمة وان كان حقاً وزعمت ان اللسان من مسالك الخنا الجالب على صاحبه البلاء وقلت إن حفظ اللسان أمثل من التورط في الكلام وسميت الغبي عاقلا والصامت حليما والساكت لبيبا والمطرق مفكراً وسميت البليغ مكثاراً والخطيب مهذاراً والفصيح مفرطا والمنطيق مطنبا وقلت انك لم تندم علي الصمت قط وان كان منك عيا وانك ندمت على الكلام مراراً وان كان منك صوابا واحتجاجك في ذلك بقول كسرى أنو شروان واعتصامك فيها بما سار من أقاويل الشعراء والمتسق من كلام الأدباء وافراطهم في مذمة الكلام واطنابهم في محمدة السكوت وأتيت حفظك

الله على جميع ماذكرت من ذلك ووصفت ولخصت وشرحت واطنبت
فيهاوفرطت بالفهم وتصفحتها بالعلم وبحثت بالحزم ووعيت بالعزم فوجدتها
كلام امرئ قد أعجب برأيه وارتطم فى هواه وظن انه قد نسخ فيها
كلاما وألف الفاظاً ونسخ له معانى على نحو مأخذه ومقصده ان لا يلقى
له ناقضاً فى دهره بعد أن أبرمها ولا يجد فيها مناديا فى عصره بعد أن
أحكمها وان حجته قد لزمت جميع الانام ودحضت حجة قاطبة أهل الأديان
لما شرح فيها من البرهان وأوضح بالبيان وحتى كان القول من القائل نقضاً
ودفع الوصف من الواصف تغلبا وكان فى موضع لا ينازعه فيه أحد وقلما
يجد من يخاصمه ولا يلقى أبداً من يناضله وصار فلجاً بحجته أو حديا فى
لهجته اذ كان محله محل الوحدة والانس بالخلوة وكان مثله فى ذلك من
تخلص الى الحاكم وحده فملج بحجته وانى سأوضح لك ذلك ببرهان قاطع
وبيان ساطع واشرح فيه من الحجج مايظهر ومن الحق مايقهر بقدر ماأتت
عليه معرفتى وبلغته قوتى وملكته طاقتى بما لا يستطيع أحدرده ولا يمكنه
انكاره وجحده ولا قوة الا بالله وبه أستعين وعليه أتوكل واليه أنيب وانى
وجدت فضيلة الكلام باهرة ومنقبة المنطق ظاهرة في خلال كثيرة
وخصال معروفة (منها) انك لا تؤدى شكر الله ولا تقدر على اظهاره
الا بالكلام (ومنها) انك لاتستطيع العبارة عن حاجاتك والأبانة عن
مآربك الا باللسان وهذان فى العاجل والآجل مع أشياء كثيرة
لو ينحوها الانسان لوجدها فى المعقول موجودة وفي المحصول معلومة
وعند الحقائق مشتهرة وفي التدبير ظاهرة ولم أجد للصمت فضلا علي

الـكلام مما يحتمله القياس لانك تصف الصمت بالكلام ولا تصف الكلامَ
ولو كان الصمتُ أفضـل والسكوت أمثل لما عرف للآدميين فضل على
غيرهم ولا فرق بينهم وبين شئ من أنواع الحيوان وأخياف الخلق في أصناف
جواهرها واختلاف طبائعها وافتراق حالاتها وأجناس أبدانها في أعيانها
وألوانها بل لم يكن يميز بينهم وبين الاصنام المنصوبة والأوثان المنحوتة
وكان لكل قائم وقاعد ومتحرك وساكن ومنصوب وثابت في شرع سَوَاء
ومنزلة واحدة وقسمة مشاكلة اذ كانوا في معنى الصمت بالجثة واحداً وفي
معنى الكلام بالمنطق متبايناً ولذلك صارت الاشياء مختلفة في المعانى مؤتلفة
الاشكال اذ كانت فى أشكال خلقتها متفقة بتركيب أجوادها وتأليف
أجزائها وكمال أبدانها وفى معنى الكلام متباينة عند مفهوم نغماتها ومنظوم
ألفاظها وبيان معالمها وعدل شواهدها مع انى لم أنكر فضيلة الصمت ولم
أهجن ذكره الا ان فضله خاص دون عام وفضل الكلام خاص وعام
وان الاثنين اذا اشتمل عليهما فضل كان حظهما أكثر ونصيبهما أوفر من
الواحد ولعله أن يكون بكلمة واحدة نجاة خلق وخلاص أمة ومن أكثر
مايذكر للساكت من الفضل ويوصف له من المنقبة أن يقال يسكت
ليتوقي به عن الأثم وذلك فضل خاص دون عام ومن أقل مايحتكم عليه
أن يقال غبي أو جاهل فيكون فى ذلك لازم ذنب على التوهم به فيجتمع
مع وقوع اسم الجاهل عليه ماورط فيه صاحبه من الوزر والذى ذكر
من تفضيل الكلام ما ينطق به القرآن وجاءت فيه الروايات عن الثقات
فى الأحاديث المنقولات والأقاصيص المرويات والسمر والحكايات

وما تكلمت به الخطباء ونطقت به البلغاء أكثر من أن يبلغ آخرها ويدرك أولها ولكن قد ذكرت من ذلك على قدر الكفاية ومن الله التوفيق والهداية ولم نر الصمت أسعدك الله أحمد فى موضع الا وكان الكلام فيه أحمد لتسارع الناس الي تفضيل الكلام لظهور عاته ووضوح جليته ومغبة نفعه وقد ذكر الا جل وعز فى قصة ابراهيم عليه السلام حين كسر الأصنام وجعلها جذاذا فقال حكاية عنهم قالوا أأنت فعلت هذا بالهتنا يا ابراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ان كانوا ينطقون فكان كلامه سببا لنجاته وعلة لخلاصه وكان كلامه عند ذلك أحمد من صمت غيره فى مثل ذلك الموضع لأنه عليه السلام لو سكت عند سؤالهم اياه لم يكن سكوته الا على بصر وعلم وانما تكلم لأنه رآى الكلام أفضل وان من تكلم فأحسن قدر أن يسكت فيحسن وليس من سكت فأحسن قدر أن يتكلم فيحسن واعلم حفظك الله أن الكلام سبب لإيجاب الفضل وهداية الى معرفة أهل الطول ولولا الكلام لم يكن يعرف الفاضل من الفضول فى معان كثيرة لقول الا عزوجل فى بيان يوسف عليه السلام وكلامه عند عزيز مصر ما كلمه فقال انك اليوم لدينا مكين أمين فلو لم يكن يوسف عليه الصلاة والسلام أظهر فضله بالكلام والإفصاح بالبيان مع محاسنه المونقة وأخلاقه الطاهرة وطبائعه الشريفة لما عرف العزيز فضله ولا بلغ تلك المنزلة لديه ولا حل ذلك المحل منه ولا صار عنده بموضع الأمانة ولكان فى عدا وغيره ومنزلة سواه عند العزيز ولكن الله جعل كلامه سببا لرفع منزلته وعلو مرتبته وعلة لمعرفة فضيلته

ووسيلة لتفضيل العزيز اياه ولم أر للصمت فضيلة فى معنى ولا للسكوت منقبة فى شئ الا وفضيلة الكلام فيها أكثر ونصيب المنطق عندها أوفر واللفظ بها أشهر وكفى بالكلام فضلا وبالمنطق منقبة ان جعل الا الكلام سبيل تهليله وتحميده والدال على معالم دينه وشرائع ايمانه والدليل على رضوانه ولم يرض من أحد من خلقه ايمانا إلا بالاقرار وجعل مسلكه اللسان ومجراه فيه البيان وصيره المعبر عنك ما يضمره والمبين عنك مايخبره والمنبئ عنك مالاتستطيع بيانه الا به وهو ترجمان القلب والقلب وعاء وراع ولم يحمد الصمت من أحد الا تورّقيا لعجزه عن ادراك الحق والصواب فى اصابة المعنى وانما قاتل النبي صلى الله عليه وسلم المشركين عند جهلهم الله تعالى وانكارهم اياه ليقروا به فاذا فعلوه حقنت دماؤهم وحرمت أموالهم ورعيت ذمتهم ولو أنهم سكتوا ضنا بدينهم لم يكن سبيلهم الا العطب فاعلم أن الكلام من أسباب الخير لا من أسباب الشر والكلام أبقاك الله سبيل التمييز بين الناس والبهائم وسبب المعرفة لفضل الآدميين على سائر الحيوان قال الله عز وجل (ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم فى البرّ والبحر) كرمهم باللسان وحملهم بالندبر ولو لم يكن الكلام لما استوجب أحد النعمة ولا أقام على أداء ما وجب عليهم من الشكر سببا للزيادة وعلة لامتحان قلوب العباد والشكر بالاظهار فى القول والابانة باللسان ولا يعرف الشكر الا بهما والله تعالى يقول (لئن شكرتم لأزيدنكم) فجعل الشكر علة لوجوب الزيادة عند اظهاره بالقول والحمد مفتاحا للنعمة وقد جاء فى بعض الآثار لو أن رجلا ذكر الله تعالى وآخر يسمع له كان المعدود للمستمتع من الأجر والمذكور

له من الثواب واحد وللمتكلم به عشرة أو أكثر فهل ترى أبقاك الله أنه وجب لصاحب العشرة ذلك وفضل به على صاحبه الا عند استعماله بالنطق به على لسانه ولم يلزم الصمت أحد الا على حسب وقوع الجهل عليه فأما اذا كان الرجل نبيها مميزاً عالما مفوها فالصمت مهجن لعلمه وساتر لفضله كالقداحة لم يستبن نفعها دون تزنيدها ولذلك قيل من جهل علما عاداه (فصل منها) ولم أجد الصامت مستعانا به في شيء من المعانى ولا مذكورا في المحافل ولم يذكر الخطباء ولا قدمتهم الوفود عند الخلفاء الا لما عرفوه من فضل لسانهم وفضيلة بيانهم وان أصح ما يوجد فى المعقول وأوضح ما يعد في المحصول للعرب من الفضل فصاحتها وحسن منطقها بعد فضائلها المذكورة وأيامها المشهورة ولفضل الفصاحة وحسن البيان بعث الله تعالى أفضل أنبيائه وأكرم رسله من العرب وجعل لسانه عربيا وأنزل عليه قرآنه عربيا كما قال الله تعالى بلسان عربي مبين فلم يخص اللسان باللسان ولم يحمد بالبرهان الا عند وجود الفضل فى الكلام وحسن العبارة عند النطق وحلاوة اللفظ عند السمع واعلم ان الله تعاى لم يرسل رسولا ولا بعث نبيا الا من كان فضله فى كلامه وبيانه كفضله على المبعوث اليه فكان النبي صلى الله عليه وسلم أفصح العرب لسانا وأحسنهم بيانا وأسهلهم مخارج للكلام وأكثرهم فوائد من المعانى لانه كان من جماهير العرب مولده فى بنى هاشم وأخواله من بنى زهرة ورضاعه فى بنى سعد بن بكر ومنشأه فى قريش ومتزوجه فى بنى أسد بن عبد العزى ومهاجرته الى بنى عمرو وهم الأوس والخزرج من الأنصار وقد قال النبي صلى الله عليه

وسلم أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش ونشأت فى بنى سعد بن بكر ولو لم يكن مما عددنا هؤلاء الأحياء الا قريش وحدها لكان فيها مستغنى عن غيرها وكفاية من سواها لأن قريشاً أفصح العرب لسانا وأفضلها بيانا وأحضرها جوابا وأحسنها بديهة وأجمعها عند الكلام قلبا ثم للعرب أيضاً خصال كثيرة ومشاهد كثيرة مما يشاكل هذا الباب ويضارع هذا المثال حذفت ذكرها وذكرت التطويل فيها (فصل منها) فهذه كلها دليل على دحض حجتك ونقض قضيتك وانما أرسل الله تعالى رسله مبشرين ومنذرين الأمم وأمرهم بالابلاغ ليلزمهم الحجة بالكلام لا بالصمت اذ لا يكون للرسالة بلاغ ولا للحجة لزوم ولا للعلة ظهور الا بالنطق والله أعلم

﴿ تمت الرسالة الخامسة بحمد الله وعونه وتليها الرسالة السادسة ﴾

﴿ فى مدح التجار وذم عمل السلطان ﴾

الرسالة السادسة

في مدح التجار وذم عمل السلطان

(للعلامة الشهير والفهامة الكبير الاستاذ أبي عثمان عمرو بن محبوب المعروف بالجاحظ)

بسم الله الرحمن الرحيم

أدام الله لك السلامة وأسعدك بالنعمة وختم لك بالسعادة وجعلك من الفائزين فهمت كتاب صاحبك ووقفت منه على تعد في القول وحيف في الحكم وسمعت قوله وهو على حال حاجر وطريقه طريقهم وكتبه تشا كل كتبهم وألفاظه تطابق ألفاظهم وكذلك حالنا وحال أصاحب كتابك فيما يسخطه من أمرنا اني لاعتذر منه وأستنكف من لانتساب اليه بل أستحي من الكتابة وأستنكف بأن أنسب اليها من البلاغة أن أعرف بها في غير موضعها ومن السطع أن يظهر مني ومن الضيعة أن يعرف في كتبي ومن العجب بكثير ما يكون مني وقد بما كره ذلك أهل المروءة والأنفة وأهل الاختيار للصواب والصد عن الخطأ حتى أن معاوية مع تخلفه عن مراتب أهل السابقة أملى كتابا الى رجل فقال فيه لهو أهون عليّ من ذرة أو كلب من كلاب الحرة ثم قال امح من كلاب الحرة واكتب من الكلاب كأنه كره اتصال الكلام والمزاوجة وما أشبه السجع وأرى أنه ليس في موضعه (فصل منه) وهذا الكلام لا يزال ينجم من حشوة اتباع السلطان فأما عليتهم ومصاصهم وذو البصائر والتمييز منهم ومن فيقته الفطنة وأرهقه التأديب وأرهفه طول التفكير وجرى فيه الحياء وأحكمته التجارب فعرف العواقب وأحكم

التفصيل وينطق غوامض التحصيل فانهم يعترفون بفضيلة التجار ويتمنون حالهم ويحكمون لهم بسلامة الدين وطيب الطعمة ويعلمون أنهم أورع الناس أبدا وأهنأهم عيشا وآمنهم سربا لانهم فى أفنيتهم كالملوك على أسرتهم يرغب اليهم أهل الحاجات وينزع اليهم ملتمسو البياعات لا تلحقهم الذلة فى مكاسبهم ولا تستعبدهم الضرع لمعاملاتهم وليس هكذا من لابس السلطان بنفسه وقاربه بخدمته فان أولئك لباسهم الذلة وشعارهم الملق وقلوبهم ممن هم لهم خول مملوءة قد لبسها الرعب وألفها الذل وصحبها ترقب الاحتياج فهم مع هذا فى تكدير وتنغيص خوفا من سطوة الرئيس وتنكيل الصاحب وتغيير الدول واعتراض حلول المحن فان هي حلت بهم وكثيرا ما تحل فناهيك بهم مرحومين يرق لهم الاعداء فضلا عن الاولياء فكيف لا يميز بين من هذا ثمرة اختياره وغاية تحصيله وبين من قد نال الوفاء عنه والدعة وسلم من البوائق مع كثره لاثراء وقضاء اللذات من غير منة لاحد ولا منة يعتد بها وكم بين من هو من نعم المفضلين خلى وبين من قد استرقه المعروف واستعبده الطمع ولزمه ثقل الصنيعة وطوق عنقه الامتنان واسترهن بتحمل التشكر (فصل) منها وقد علم المسلمون ان خيرة الله تعالى من خلقه وصفيه من عباده والمؤتمن على وحيه من أهل بيت التجارة وهي معولهم وعليها معتمدهم وهى صناعة سلفهم وسيرة خلفهم ولقد بلغتك بسالتهم ووصفت لك جلادتهم ونعتت لك أحلامهم وتمدرلك سخاؤهم وضيافتهم وبذلهم ومواساتهم وبالتجارة كانوا يعرفون ولذلك قالت كاهنة اليمن لله در الديار لقريش التجار وليس فوقهم قرشى كقولهم

هاشمي وزهري وتيمي لانه لم يكن لهم أب يسمى قريشا فينتسبون اليه ولكنه اسم اشتق لهم من التجارة والتقريش فهو أفخم أسمائهم وأشرف أنسابهم وهو الاسم الذى نوّه الله تعالى به فى كتابه وخصهم به فى محكم وحيه وتنزيله فجعله قرآنا عربيا يتلى في المساجد ويكتب فى المصاحف ويجهر به فى الفرائض وحطوه على الحبيب والخالص ولهم سوق عكاظ (وفيهم يقول أبو ذؤيب)

اذا ضربوا القباب على عكاظ * وقام البيع واجتمع الألوف

وقد عبر النبي صلى الله عليه وسلم وآله برهة من دهره تاجراً وشخص فيه مسافراً وباع واشترى حاضراً والله أعلم حيث يجعل رسالته ولم يقسم الله مذهبا رضيا ولا خلقا زكياً ولا عملا مرضياً الا وحظه منه أوفر الحظوظ وقسمه فيه أجزل الأقسام ولشهرة أمره فى البيع والشراء قال المشركون (مالهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق) فأوحى الله اليه وما أرسلنا قبلك من المرسلين الا انهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الاسواق فاخبر ان الانبياء قبله كانت لهم صناعات وتجارات (فصل منها) وان الذى دعا صاحبك الى ذم التجارة توهمه بقلة تحصيله انها تنقص من العلم والأدب وتقطع دونهما وتمنع منهما فأى صنف من العلم لم يبلغ التجار فيه غاية أو يأخذوا منه بنصيب أو يكونوا رؤساء أهله وعليتهم هل كان فى التابعين أعلم من سعيد بن المسيب أو أنبل وقد كان تاجراً يبيع ويشترى وهو الذى يقول ماقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله ولا أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا على رضوان الله عليهم قضاء الا وقد علمته

وكان أعبر الناس للرؤيا وأعلمهم بأنساب قريش وهو من كان يفتي وأصحاب
رسول الله صلى الله عليه وسلم واله وهم متوافرون وله بعد علم بأخبار الجاهلية
والاسلام مع خشوعه وشدة اجتهاده وعبادته وأمره بالمعروف وجلالته
في أعين الخلفاء وتقدمه على الجبارين ومحمد بن سيرين في فقهه وورعه
وطهارته ومسلم بن يسار في علمه وعبادته واشتغاله بطاعة ربه وأيوب
السختياني ويوسف بن عبيد في فضلهما وورعهما (فصل في رياضة الصبي)
وأما النحو فلا تشغل قلبه منه الا بقدر مايؤديه الى السلامة من فاحش
اللحن ومن مقدار جهل العوام في كتاب كتبه وشعر إن أنشده وشيءٍ ان
وصفه ومازاد على ذلك فهو مشغلة عما هو أولى به ومذهل عما هو أرد عليه
منه من رواية المثل الشاهد والخبر الصادق والتعبير البارع وانما يرغب
في بلوغ غايته ومجاوزة الاقتصار فيه من لا يحتاج الى تعرف جسيمات
الأمور والاستنباط لغوامض التدبر ولمصالح العباد والبلاد والعلم
وبالأركان والقطب التي تدور عليه الرحا ومن ليس له حظ غيره ولا
معاش سواه وعويص النحو لا يجدى في المعاملات ولا يضطر اليه شيء
أفمن الرأي أن يعمد به في حساب العقد دون حساب الهند ودون
الهندسة وعويص ما يدخل في المساحة وعليك في ذلك بما يحتاج اليه
كفاة السلطان وكتاب الدواوين وأنا أقول إن البلوغ معرفة الحساب
الذي يدور عليه العمل والتوفى فيه والسبب اليه أرد عليه من البلوغ في
صناعة المحررين ورؤوس الخطاطين لأن في أدنى طبقات الخط مع صحة
الهجاء بلاغا وليس كذلك حال الحساب ثم خذه بتعريف حجج الكتاب

وتخلصهم باللفظ السهل القريب المأخذ الى المعنى الغامض وأذقه حلاوة الاختصار وراحة الكفاية وحذره التكلف واستكراه العبارة فان أكرم ذلك كله ما كان افهاما للسامع ولا يحوج الى التأويل والتعقب ويكون مقصوراً على معناه لا مقصراً عنه ولا فاضلا عليه فاختر من المعانى ما لم يكن مستوراً باللفظ المنعقد مغرقا في الاكثار والتكلف فما أكثر من لا يحفل باستهلاك المعنى مع براعة اللفظ وغموضه على السامع بعد أن يتسق له القول وما زال المعنى محجوبا لم تكشف عنه العبارة فالمعنى بعد مقيم على استخفائه وصارت العبارة لغواً وظرفا خاليا وشر البلغاء من هيأ رسم المعنى قبل أن يهيئ المعنى عشقا لذلك اللفظ وشغفا بذلك الاسم حتى صار يجر اليه المعنى جراً ويلزقه به الزاقا حتى كان الله تعالى لم يخلق لذلك المعنى اسما غيره ومنعه الافصاح عنه الا به والآفة الكبرى أن يكون ردئ الطبع بطئ اللفظ كليل الجد شديد العجب ويكون مع ذلك حريصا على أن يعد فى البلغاء شديد الكلف بانتحال اسم الأدباء فاذا كان كذلك خفي عليه فرق ما بين اجابة الألفاظ واستكراهه لها وبالجملة ان لكل معنى شريف أو وضيع هزل أو جد أو حزم أوصناعة ضربا من اللفظ هو حقه وحظه ونصيبه الذى لا ينبغى أن يجاوزه أو يقصر دونه ومن قرأ كتب البلغاء وتصفح دواوين الحكماء ليستفيد المعانى فهو على سبيل صواب ومن نظر فيها ليستفيد الالفاظ فهو على سبيل الخطأ والخسران هاهنا في وزن الربح هناك لان من كانت غايته إنتزاع الالفاظ حمله الحرص عليها والاستهتار بها الى ان يستعملها قبل وقتها

ويضعها في غير مكانها ولذلك قال بعض الشعراء لصاحبه أنا أشعر منك. قال صاحبه ولم ذاك قال لانى أقول البيت وأخاه وأنت تقول البيت وابن عمه وانما هي رياضة وسباحة والرفيق مصلح والآخر مفسد ولا بد من هذين وطبيعة مناسبة وسماع الألفاظ ضارة ونافعة فالوجه النافع أن يدور في مسامعه ويغيب فى قلبه ويختم في صدره فاذا طال مكثها تناكحت ثم تلاقحت فكانت نتيجتها أكرم نتيجة وثمرتها أطيب ثمرة لانها حينئذ تخرج غير مسترقة ولا مختلسة ولا مغتصبة ولا دالة على فقر اذ لم يكن القصد الى شئ بعينه والاعتماد عليه دون غيره وبين الشئ اذا عشش في الصدر ثم باض ثم فرخ ثم نهض وبين أن يكون الخاطر مختاراً واللفظ اغتسافا واغتصابا فرق بين ومتى اتكل صاحب البلاغة على الهوينا والوكال وعلى السرقة والاحتيال لم ينل طائلا وشق عليه النزوع واستولى عليه الهوان واستهلكه سوء العادة والوجه الضار أن يحفظ ألفاظا بأعيانها من كتاب بعينه أو من لفظ رجل ثم يريد أن يعد لتلك الالفاظ قسمها من المعاني فهذا لا يكون بخيلا فقيراً وحائفا سروقا ولا يكون الا مستكرها لالفاظه متكلفا لمعانيه مضطرب التأليف منقطع النظام فاذا مر كلامه بنقاد الالفاظ وجهابذة المعانى استخفوا عقله وبهرجوا علمه ثم اعلم ان الاستكراه في كل شئ سمج وحيث ما وقع فهو مذموم وهو في الطرف أسمج وفى البلاغة أقبح وما أحسن حاله ما دامت الالفاظ مسموعة من فمه مسرودة في نفسه ولم تكن مخلدة فى كتبه وخير الكتب ما اذا أعدت النظر فيه زادك فى حسنه أوقف على حده

الرساله السابعة

في العشق والنساء

لمؤلفها العلامة الشهير والفهامة الكبير الاستاذ أبي عثمان عمرو بن محبوب المعروف بالجاحظ رحمه الله تعالى

بسم الله الرحمن الرحيم

إنا لما ذكرنا في كتابنا هذا الحب الذى هو أصل الهوى والهوى الذى يتفرع منه العشق والعشق الذى يهيم له الانسان على وجهه أو يموت كمداً على فراشه وأول ذلك ادخال الضيم على مروءته واستشعار الذلة لمن أطاف بعشيقته ولم نطنب مع ذلك فى ذكر ما يتشعب من أصل الحب من الرحمة والرقة وحب الأموال النفيسة والمراتب الرفيعة وحب الرعية للأئمة وحب المصطنع لصاحب الصنيعة مع اختلاف مواقع ذلك من النفوس ومع تفاوت طبقاته في العواقب احتجنا الى الاعتذار من ذكر العشق المعروف بالصبابة والمخالفة على قوة العزيمة ليجعل ذلك القدر جنة دون من حاول الطعن على هذا الكتاب وسخف الرأى الذى دعا الى تأليفه والاشارة بذكره اذ كانت الدنيا لاتنفك من حاسد باغ ومن قائل متكلف ومن سامع طاعن ومن منافس مقصر كما انها لا تنفك من ذى سلامة متسلم ومن عالم متعلم ومن عظيم الخطر حسن المحضر شديد المحاماة عن حقوق الادباء قليل التسرع الى اعراض العلماء وانما العشق اسم لما فضل عن المقدار الذى اسمه حب وليس كل حب يسمى عشقا وانما العشق اسم للفاضل عن ذلك المقدار كما ان السرف اسم لما زاد على

المقدار الذى يسمى جودا والبخل اسم لما ينقص عن المقدار الذى يسمى اقتصادا والجبن اسم لما قصر عن المقدار الذى يسمى شجاعة وهذا القول ظاهر على السنة الأدباء مستعمل فى بيان الحكماء وقد قال عروة بن الزبير والله إنى لاعشق الشرف كما تعشق المرأة الحسناء وذكر بعض الناس رجلا كان مدفعا محروما ومنحوس الحظ ممنوعا فقال ما رأيت أحدا عشق الرزق عشقه ولا أبغضه الرزق بغضه فذكر الاول عشق الشرف وليس الشرف بامرأة وذكر الآخر عشق الرزق والرزق اسم جامع لجميع الحاجات وقد يستعمل الناس الكناية وربما وضعوا الكلمة بدل الكلمة يريدون أن يظهروا المعنى بابين اللفظ إما تنويها واما تفصيلا كما سموا المعزول عن ولايته مصروفا والمنهزم عن عدوه منحازا نعم حتى سمي بعضهم البخيل مقتصدا ومصلحا وسمى عامل الخراج المتعدى بحق السلطان مستعصيا ولما رأينا الحب من أكبر أسباب جماع الخير ورأينا البغض من أكبر أسباب الشر اجتنبنا أن نذكر أبواب السبب الجالب للخير ليفرق بينه وبين أبواب السبب الجالب للشر حتى نذكر أصولهما وعللهما الداعية اليهما والموجبة لكونهما فتأملنا شأن الدنيا فوجدنا أكبر نعيمها وأكمل لذاتها ظفر المحب بحبيبه والعاشق بطلبيه ووجدنا شقوة الطالب المكدى وغمه فى وزن سعادة الطالب المنجح وسروره ووجدنا العشق كلما كان أرسخ وصاحبه به أكلف فان موقع لذة الظفر منه أرسخ وسروره بذلك أبهج فان زعم زاعم ان موقع لذة الظفر بالعدو المرصد أحسن من موقع لذة الظفر من العاشق الهائم

بعشيقته قلنا انا قد رأينا الكرام والحلماء وأهل السودد والعظماء ربما
جادوا بفضلهم من لذة شفاء الغيظ ويعدون ذلك زيادة فى نبل النفس
وبعد الهمة والقدر ويجودون بالنفيس من الصامت والناطق وبالثمين من
العروض وربما خرج من جميع ماله وأثر طيب الذكر على الغنى واليسر
ولم نر نفس العاشق تسخو بمعشوقه ولا يجود لشقيق نفسه ولا لوالد ولا لولد
بار ولا لذى نعمة سابغة يخاف سلبها وصرف احسانه عنه بسببها ولم نر
الرجال يهبون للرجال الا ما لا بال له فى جنب ما يهبون للنساء حتى كان
العطر والصبغ والخضاب والكحل والنتف والقص والتحذيف والحلق
وتجويد الثياب وتنظيفها والقيام عليها وتعهدها مالم يتكلفوه الا لهن ولم
يتقدموا فيه الا من أجلهن وحتى كان الحيطان الرفيعة والابواب الوثيقة
والستور الكثيفة والخصيان والظؤورة والحشوة والحواضن لم تتخذ الا
للصون لهن والاحتفاظ بما يجب من حفظ النعمة فيهن (فصل منه)
وباب آخر وهو أنا لم نجد أحداً ممن عشق والديه ولا ولده ولا من
عشق مراكبه ومنزله كما رأيناهم يموتون من عشق النساء الحرام قال
الله تعالى (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة
من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث) فقد دل تبارك
وتعالى على جملة أصناف ماخولهم من كرامته ومن عليهم من نعمته ولم نر
الناس وجدوا بشئ من هذه الاصناف وجدهم بالنساء ولقد قدم
ذكرهن فى هذه الآية على قدر تقدمهن فى قلوبهم فان قال قائل فقد
نجد الرجل الحليم والشيخ الركين يسمع الصوت المطرب من المغنى

المصيب فينقله ذلك الى طبع الصبيان والى أفعال المجانين فيشق جيبه وينقض حبوته ويفدّي غيره ويرقص كما يرقص الحدث الغرير والشاب السفيه ولم نجد أحدا فعل ذلك عند رؤية معشوقه قلنا إما واحدة فانه لم يكن ليدع التشاغل بشمها وبرشفها واحتضانها وتقبيل قدميها والمواضع التي وطئت عليها ويتشاغل بالرقص المباين لها والصراخ الشاغل عنها فأما حل الحبوة والشدحضرا عند رؤية الحبيبة فان هذا ما لا يحتاج الى ذكره لوجوده وكثرة استعمالهم له فكيف وان هو خلا بمعشوقه فظن ان لذة الغناء تشغل بمقدار العشر من لذته بل ربما لم يخطر له ذلك الغناء على بال وعلى ان ذلك الطرب مجتاز غير لابث وظاعن غير مقيم ولذة المتعاشقين راكدة للأبد مقيمة غير ظاعنة وعلى أن الغناء الحسن من الوجه والبدن الحسن أحسن والغناء الشهي من الوجه الشهي والبدن الشهي أشهى وكذلك الصوت الناعم الرخيم من الجارية الناعمة الرخيمة وكم بين ان تفدى اذا شاع فيك الطرب مملوكك وبين ان تفدى أمتك وكم بين ان تسمع الغناء من فم تشتهي ان تقبله وبين فم تشتهي ان تصرف وجهك عنه وعلى أن الرجال دخلاء على النساء فى الغناء كما رأينا رجالا ينوحون فصاروا دخلاء على النوائح وبعد فايما أحسن وأملح وأشهى وأغنج ان يغنيك فحل ملتف اللحية كث العارضين أو شيخ متخلع الاسنان مغضن الوجه ثم يغنيك اذا هو تغني بشعر ورقاء بن زهير

رأيت زهيراً تحت كلكل خالد   فأقبلت أسعى كالعجول أبادر

أم تغنيك جارية كأنها طاقة نرجس أو كأنها ياسمينة أو كأنها

خرطت من ياقوتة أو من فضة مجلوة بشعر عكاشة بن محصن

من كف جارية كان بنانها　　من فضة قد طرّقت عنابا

وكان يمناها اذا نطقت به　　ألقت على يده الشمال حبابا

(فصل) منه فأما الغناء المطرب فى الشعر الغزل فانما ذلك من حقوق النساء وإنما ينبغى ان تغني بأشعار الغزل والتشبيب والعشق والصبابة بالنساء اللواتى فيهن نطقت تلك الاشعار وبهن شبب الرجال ومن أجلهن تكلفوا القول فى التشبيب وبعد فكل شئ وطبقه وشكله ولفقه حتى تخرج الامور موزونة معتدلة ومتساوية مخلصة ولو أن رجلا من أدمث الناس وأشدهم تلخيصا لكلامه ومحاسنه لنفسه ثم جلس مع امرأة لايزن بمنطق ولا يعرف بحسن حديث ثم كان يعشقها لتناتج بينهما من الاحاديث ولتلاقح بينهما من المعانى والالفاظ ما كان لايجرى بين دغفل بن حنظلة وبين بشار بن الخمرة وانما هذا على قدر تمكن الغزل فى الرجل (فصل) منه والمرأة أيضاً أرفع حالا من الرجل فى أمور منها انها التى تخطب وتراد وتعشق وتطلب وهى التى تفدى وتحمى قال عنبسة ابن سعيد للحجاج بن يوسف يفدّى الامير أهله قال والله ان تعدونى الا شيطانا والله اربما رأيتنى أقبل رجل احداهن (فصل) منه وانما يملك المولى من عبده بدنه فأما قلبه فليس له عليه سلطان والسلطان نفسه وان ملك رقاب الامة فالناس يختلفون فى جهة الطاعة فمنهم من يطيع بالرغبة ومنهم من يطيع بالرهبة ومنهم من يطيع بالمحبة ومنهم من يطيع بالديانة وهذه الاصناف وان

كان أفضلها طاعة الديانة فان تلك المحبة مالم يمازجها هوى لم يقو على صاحبها قوة العشق وفي الأثر المستفيض والمثل السائر ان الهوى يعمى ويصم فالعشق يقتل (فصل منه) ومما يستدل به على تعظيم شأن النساء أن الرجل يستحلف بالله الذى لاشئ أعظم منه وبالمشى الى بيت الله وبصدقة ماله وعتق رقيقه فيسهل ذلك عليه ولا يأنف منه فان استحلف بطلاق امرأته تربد وجهه وطار الغضب فى دماغه ويمتنع ويعصى ويغضب ويأبى وان كان المحلف سلطانا مهيبا ولم يكن يحبها ولا يستكثر منها وكانت نفسها قبيحة المنظر دقيقة الحسب خفيفة الصداق قليلة النشب ليس لها من ذلك الا ما قد عظم الله تعالى من شأن الزوجات فى صدور الازواج

﴿ فصل منه فى ذكر العشق ﴾

ورجلان من الناس لايعشقان عشق الاعراب احدهما الفقير المدقع فان قلبه يشغل عن التوغل فيه وبلوغ اقصاه والملك الضخم الشأن لان فى الرياسة الكبرى وفى جواز الأمر ونفاذ النهي وفى ملك رقاب الأمم مايشغل شطر قوى العقل عن التوغل فى الحب والاحتراق فى العشق (فصل منه) كثيراً مايعترى العشاق والمحبين غير المحترقين كالرجل تكون له جارية وقد حلت من قلبه محلا وتمكنت منه تمكنا لايجتث أصل ذلك الحب الغضبة تعرض وكثرة التاذى بالخلاف يكون منها فيجد الفترة عنها لبعض هذه الحالات التى تعرض فيظن انه قد سلا أو يظن انه فى عزائه عنها على فقدها محتملا بيعها ان كانت أمة أو طلاقها ان كانت زوجة فلا ينشب ذلك الغضب ان يزول وذلك الاذى أن ينسى فتحرك له الدفائن ويثمر ذلك

الغرس فيتبعها قلبه فاما أن يسترجع الأمة من مبتاعها باضعاف ثمنها أو
يسترجع الزوجة بعد ان نكحت فان تصبر وأمكنه الصبر لم يزل معذبا
وان أطاع هواه واحتمل المكروه فهذا هو العقابيل والنكس فليحذر
الحازم الفترة يجدها فى حب حبيبه والغضبة التى تنسيه عواقب أمره (فصل
منه) قال ابراهيم بن السبيدي حدثني عبدالملك بن صالح قال له بينا عيسى
ابن موسى قد خلا بنفسه وهو قد كان استكثر من النساء حتى انقطع اذ
مرت به جارية كأنها جان وكأنها جدل عنان وكأنها جمارة وكأنها قضيب
فضة فتحركت نفسه وخاف ان تتجدد له قوله ثم طمع فى القوة لطول
الترك واجتماع الماء فلما صرعها وجلس منها ذلك المجلس خطر على باله عن
عجز كيف يكون حاله فلما فكر فتر فاقبل كالمخاطب لنفسه فقال انك
لتجلسيني هذا المجلس وتحمليني على هذا المركب ثم تخذليني هذا الخذلان
وتغشيني مثل هذا الذل ولولا حيرة الخجل لما استعمل ما يقتل وذلك
انه حين رآى ان أبلغ الحيل فى توهيمها ان العجز لم يكن من قبله أن يقول
لها تعرضين لى وأنت تفلة ثم لا تروجين باديك ولا تستهدفين لسيدك ولا
تعينين على نفسك حتى كأنك عند عبد يشبهك أو سوقة لا يقدر الاعلى
مثلك امالو كنت من بنات ملوك العجم لالفاك سيدك على أجود صنعة وعلى
أحسن طاعة اذ كل رجل ينبسط للمتمنع مع التفل (فصل منها) ولم أسمع
ولم أقرأ فى الاحاديث المولدة فى شأن العشاق فى القلوب والاكباد والاحشاء
والزفرات والحنين وفى التدليه والتوليه ومتى تسعد الدمعة ومتى يورب
العين الجمود (فصل منه) ونحن وان رأينا ان فضل الرجل على المرأة فى

جملة القول فى الرجال والنساء أكثر وأظهر فليس ينبغى لنا ان لانقصر فى
حقوق المرأة وليس ينبغى لمن عظم حقوق الآباء أن يصغر حقوق
الأمهات وكذلك الاخوة والاخوات والبنون والبنات وأنا وان كنت
أرى ان حق هذا أعظم فان هذه أرحم (فصل من احتجاجه للاماء) قال
بعض من احتج للعلة التى من أجلها صار أكثر الاماء أحظى عند الرجال
من أكبر المهيرات ان الرجل قبل أن يملك الامة قد تأمل كل شئ منها
وعرفه ماخلا حظوة الخلوة فاقدم على ابتياعها بعد وقوعها بالموافقة والحرة
انما يستشار فى جمالها النساء والنساء لا يبصرن من جمال النساء وحاجات
الرجال وموافقتهن قليلا ولا كثيراً والرجال بالنساء أبصر وانما تعرف
المرأة من المرأة ظاهر الصفة وأما الخصائص التى تقع بموافقة الرجال فانها
لا تعرف ذلك وقد تحسن المرأة ان تقول كان أنفها السيف وكان عينها
عين غزال وكان عنقها أبريق فضة وكان ساقها جمارة وكان شعرها العناقيد
وكان أطرافها المدارى وما أشبه ذلك وهناك أسباب أخر بها يكون الحب
والبغض (فصل منه) وقد علم الشاعر وعرف الواصف ان الجارية الفائقة
الحسن أحسن من الظبية وأحسن من البقرة وأحسن من كل شئ تشبه ولكنهم
اذا أرادوا القول شبهوها بأحسن مايجدون ويقول بعضهم كأنها الشمس
وكأنها القمر والشمس وان كانت بهية فانما هى شئ واحد وفى وجه الجارية
الحسناء وخلقها ضروب من الحسن الغريب والتركيب العجيب ومن يشك
ان عين المرأة الحسناء أحسن من عين البقرة وان جيدها أحسن من جيد
الظبية والأمر فيما بينهما متفاوت ولكنهم لو لم يفعلوا هذا وشبهه لم تظهر

بلاغتهم وفطنتهم

﴿ فصل منه ﴾ ورأيت أكثر الناس من أهل البصر بجواهر النساء الذين هم جهابذة هذا الأمر يقدمون المجدولة والمجدولة من النساء تكون فى منزلة بين السمينة والممشوقة ولا بد من جودة القدّ وحسن الخرط واعتدال المنكبين واستواء الظهر ولا بد من ان تكون كاسية العظام بين الممتلئة والقضيفة وانما يريدون بقولهم مجدولة جودة العصب وقلة الاسترخاء وان تكون سليمة من الزوائد والفضول ولذلك قالوا خمصانة وسيَفانة وكأنها جان وكأنها جدل عنان وكأنها قضيب خيزران والتثنى في مشيها أحسن ما فيها ولا يمكن ذلك الضخمة والسمينة وذات الفضول والزوائد على ان النحافة فى المجدولة أعم وهي بهذا المعنى أعرف ولم أر المجدولة [1] أعم وهي بهذا المعنى تحبب على أصحاب السمان الضخام وعلى أصحاب الممشوقات والقضاف كما تحبب هذه الاصناف على أصحاب المجدولات ووصفوا المجدولة بالكلام المنثور فقالوا أعلاها قضيب وأسفلها كثيب

﴿ تمت الرسالة السابعة في العشق والنساء ﴾

(ويليها الرسالة الثامنة فى الوكلاء)

---

(١) قوله ولم ار المجدولة أعم هذه الجملة كانها كتبت حاشية على الكتاب فأدخلها النساخ فى الاصل

الرسالة الثامنة

﴿ فى الوكلاء ﴾

لمؤلفها العلامة الشهير والفهامة الكبير الاستاذ أبى عثمان عمرو بن محبوب المعروف بالجاحظ رحمه الله تعالى

بسم الله الرحمن الرحيم

وفقك الله تعالى للطاعة وعصمك من الشبهة وأفلجك بالحجة وختم لك بالسعادة غبرت أصلحك الله تعالى أزمان وأنت عندى ممن لايمضى القول الا بعد التثبت ولا يخرج الكتاب الا بعد التصفح وكنت حريا بتهيئة الرأى الفطير جديراً ان تميل بنفسك عاقبة التفريط ولولا كثرة مرور أيام المطالبة عليك لما ثقل عليك التثبت ولولا قصر أيام التحصيل لما وثقت بأول خاطر ولولا سوء العادة لما كذبك رائد النظر واتهمت الرأى واعتزام العصيان يهوّرُ الاعمار فان العصيان اسوأ أثراً على نفسه من السكران ولولا ان نار الغضب تخبو قبل افاقة المعتوه وضبابَ السكر ينكشف قبل انكشاف غروب عقل المدله وان حكم الظاعن خلاف حكم المقيم وقضية المختار خلاف قضية الماكث لكانت حال العصيان أسوء مغبة وجهله أوبى : على ان الحكم له ألزم والناس له ألوم وما أكثر ما تقحم الغضب المقاحم التى لايبلغها جناية الجنون وفرط جهل المصروع

﴿ فصل منه ﴾ وان الغمر لايكون الا عديم الآلة منقطع المادّة يرى الغي رشداً والغلو قصداً فلو كنت اذ جنيت لم تقم على الجناية واذ عزمت على القول لم تخلده فى الكتب واذ خلدته لم تظهر التبجح به

والاستبصار فيه كان علاج ذلك أيسر وكانت أيام سقمك اقصر فأخزى الله التصميم الا مع الحزم والاعتزام الا بعد التثبت والعلم الا مع القريحة المحمودة والنظر الا مع استقصاء الروية وأخلق بمن كان فى صفتك وأحر بمن جرى عن دربتك ان لا يكون سبب تسرعه وعلة تشحنه الا من ضيق الصدر • وجميع الخير راجع الى سعة الصدر • فقد صح الآن ان سعة الصدر أصل وما سوى ذلك من أصناف الخير فرع وقد رأيتك حفظك الله تعالى خونت جميع الوكلاء وفجرتهم وشنعت على جميع الوراقين وظلمتهم وجمعت جميع المعلمين وهجوتهم وحفظت مساويهم وتناسيت محاسنهم واقتصرت على ذكر مثالب الأعلام والجلة حتى صوب نفسك عند السامع لكلامك ولقارئ كتابك انك ممن تنكر الحق جهلا أو تتركه معاندة له • وقد علم الناس ان من تركه جهلا به أصغر إثما ممن تركه عمداً • ولعمري ان العلم لطوع يديك والمتصرف مع خواطرك والمستملى من بديهتك كما يستملى من ثمرة فكرك والمحصل من رويتك ولكن الرأى لك ان لا تثق بما يرسمه لك العلم فى الخلا وتتوقاه فى الملا • اعلم انك متى تغررت بعلمك استرسلت اليه ومتى ائتمنت نفسك على نواجم خواطرك فقد أمكنت العدو من ربقة عنقك وبنية الطبائع وتركيب النفوس والذى جرت عليه العادة إهمال النفس فى الخلا واغفالها في الملا فتوقف عند العادة واتهم النفس عند الاسترسال والثقة • قال ابن هرمة

ان الحديث يعز القوم خلوته ... حتى يكون له عيّ واكثار

وبئس الشيء العجب وحسن الظن بالبديهة • واعلم ان هذه الحال التى

ارتضيتها لشأنك هى أمنية العدو ونهزة الخصم ومتى أبرزت كتابك على هذه الصورة وأفرغته هذا الافراغ ثم سبكته هذا السبك فليس لعدوك حاجة الى التكذب عليك وقول الزور فيك لانك قد مكنته من عرضك وحكمته فى نفسك . وبعد فمن يعجز عن عيب كتاب لم يحرَس بالتثبت ولم يحّصن بالتصفح ولم يُغَبَّ بالمعاودة والنظر ولم يقلب فيه الطرف من جهة الاشفاق والحذر فكيف يوفق الله تعالى الواثق بنفسه والمستبد برأيه والتارك لأدب ربه ولما وصى به نبيه صلى الله عليه وسلم حين قال لرجل خاصم عندَه رجلا فقال فى بعض كلامه حسبي الله فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم ابل الله من نفسك عذراً فاذا غلبك أمر فقل حسبي الله . وزعمت فى أول تشنيعك عليهم فقلت قال يعقوب بن عبيد لبعض ولده حين قال له في مرضه أى شئ تشتهى قال كبد وكيل وقد كان ترك التجارة من سوء معاملتهم وفحش خبائثهم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

﴿ تمت الرسالة الثامنة فى الوكلاء ﴾

(ويليها الرسالة التاسعة في استنجاز الوعد)

الرسالة التاسعة

في استنجاز الوعد

لمؤلفها العلامة الشهير والفهامة الكبير الاستاذ أبي عثمان عمرو بن محبوب المعروف بالجاحظ رحمه الله تعالى

بسم الله الرحمن الرحيم

قد شاع الخبر وسار المثل بقولهم اطلبوا الحاجات من حسان الوجوه فان كان الوجه انما وقع على الوجه الذي فيه الناظر والسامع والشامّ والذائق اذا كان حسناً جميلا وعتيقاً بهياً فوجهك الذي لا يحيد عن أحد كماله ولا يخفى جماله وان كان ذكر الوجه انما يقع على حسن وجه الطلب وجماله على جهة الرغبة وان ذلك على طريق المثل وعلى سبيل اللفظ المشتق من اللفظ والفرع المأخوذ من الأصل فوجه الطلب اليك أفضل الوجوه وأسناها وأصونها وأرضاها وهو المنهج الفسيح والمتجر الربيح وجماله ظاهر ونفعه حاضر وخيره غامر الا ان الله تعالى قرنه مع ذلك باليمن وسهله باليسر وحببه بالبشر الحسن ودعا اليه بلين الحجاب وأظهر في أسمائكم وأسماء آبائكم وفي كناكم وكنى إخوانكم من برهان الفأل الحسن ونفي الطيرة السيئة ما جمع لكم به صنوف الأمل وصرف اليكم وجوه المطالب فاجتمع فيكم تمام القوام وبراعة الجمال والبشر عند اللقاء ولين الخطاب والكنف للخلطاء وقلة البذخ بالمرتبة الرفيعة والزيادة في الانصاف عند النعمة الحادثة فجمل الناس وعدكم من أكرم الوعد وعقدكم من أوثق العقد وإطماعكم من أصح الانجاز وعلموا انكم تؤيسون

في مواضع اليأس وتطمعون فى مواضع الضمان وان الامور عندكم موزونة معدلة والاسباب مقدرة محصلة هذا مع الصولة والتصميم فى موضع التصميم والثقة أحزم والصفح اذا كان الصفح أكرم والرحمة لمن استرحم والعقاب لمن صمم. ثم المعرفة فرق ما بين اعتزام الغمر واعتزام المستبصر وفصل ما بين اعتزام الشجاع والبطل وبين إقدام الجاهل المتهور. وقد علم الناس بما شاهدوه منكم وعاينوه من تدبير وعرفوه من تصرف حالاتكم انى لم أتزيّد لكم ولم أتكلف فيكم ما ليس عندكم. وخير المديح ماوافق جمال الممدوح وأصدق الصفات ماشاكل مذهب الموصوف وشهد له أهل العيان الظاهر والخبر المتظاهر ومتى خالف هذه القضية وجانب الحقيقة ضارّ المادح ولم ينفع الممدوح. هذا الى الثبات على العهد وإحكام العقد مع الوفاء العجيب والرأي المصيب وتمام ذلك وكماله وسناء ذلك وبهائه لكثرة الشهود لكم واجماع الناس على ذلك فيكم. ومن قبل لنفسه مديحاً لا يعرف به كان كمادح نفسه ومن أثاب الكذابين على كذبهم كان شريكهم فى إثمهم وشقيقهم في سخفهم بل كان المحتقب لكبره المحتمل لوزره اذ كان المثيب عليه والداعي اليه. معاذ الله ان نقول الا معروفا غير مجهول ونصف الا صحيحاً غير مدخول أو نكون ممن يتودد بالملق ويتقحم على أهل الاقدار شرها الى مال أو حرصاً على تقريب وأبعد الله الحرص وأخزى الشره والطمع فان شك شاك أو توقف مرتاب فليعترض العامة وليتصفح ماعند الخاصة حتى يتبين الصبح. وقالوا فى تأديب الولاة وتقديم تدبير الكفاة اذا أبردتم البريد فاجعلوه حسن الوجه حسن الاسم فكيف اذا

قارن حسن الوجه وحسن الاسم كرم الضريبة وشرف العرق . وأعيان الأعراق الكريمة والاخلاق اذا استجمعت هذا الاستجماع واقترنت هذا الاقتران كان أتم للنعمة وأبدع للفضيلة وكانت الوسيلة اليها أسهل والمأخذ نحوها أقرب والأسباب امتن . فاذا انتظمت فى هذا السلك وجمعها هذا النظم كان الذى يبرد البريد أولى بها من البريد وكان مقوم البلاد أحق بها من حاشيته الكفاة اذ التأميل لايجمع وجه الصواب ولا يخص مخارج الأسباب ولا يظهر برهانه ويقوى سلطانه حتى يصيب المعدن . ولن يكون موضع الرغبة معدنا الا بعد اشتماله على ترادف خصال الشرف وبعد ان تتوافى اليه معانى الكرم بالاعراق الكريمة والعادات الحسنة عن حادث يشهد لقادم وطارف يدل على تالد فاذا كان الأمل يخبر بالحسب فالحسب ثاقب والمجد راسخ وان كان الشأن فى صناعة الكلام وفي القدم والرياسة وفي خلف يأثره عن سلف وآخر يلقاه عن أول كان قبلكم مالا يذهب عنه جاحد ولا يستطيع جحده معاند

﴿ فصل منها ﴾ وأسماؤكم وكنا كم بين فرج ونُجح وبين سلامة وفضل ووجوهكم وفق أسمائكم وأخلاقكم وفق اعراقكم لم يضرب التفاوت فيكم بنصيب . وبعد هذا فانى أستغفر الله تعالي من تفريطي فى حقوقكم واستوهبه طول رقدتى عما فرضه لكم ولا ضير إن كان هذا الذى قلنا على اخلاص وصحة عهد وعلى صدق سيرة وثبات عقد . ينبو السيف وهو حسام ويكبو الطرف وهو جواد وينسى الذكور ويغفل الفطن ونعوذ بالله تعالى من العمى بعد البصيرة والحيرة بعد لزوم الجادّة . كان أبو الفضل أعزه الله تعالى

على ما قد بلغك من التبرع بالوعد وسرعة الانجاز وتمام الضمان وعلى الله تمام النعمة والعافية وكان أيده الله تعالى في حاجتى كما وصف زيد الخيل نفسه حين يقول

وموعدتى حق كان قد فعلتها   متى ما أعد شيئاً فانى لغارم

وتقول العرب من أشبه أبه فما ظلم تقول لم يضع الشبه الا في موضعه لانه لا شاهد أصدق على غيب نسبه وخفى نجله من الشبه القائم الظاهر عليه وقد تقيلت أباك الله شبحك خلقه وخلقه وفعله وعزمه وعز الشهامة والنفس التامة ٠ ومرجع الافعال الى الطبائع ومدار الطبائع على جودة اليقين وقوة المنة وبهما تتم العزيمة وتنفذ البصيرة هذا مع ماقسم الله لك من المحبة ومنحك من المنعة وسلمك عنه من المذمة والله لولم يكن فيكم من خصال الحرمة وخلال النفوس الأبية الا انكم لاتدينون بالنفاق ولا تعبدون بالكذب ولا تستعملون المواربة فى موضع الاستقامة وحيث تجب الثقة ولا يكون حظ الاحرار بالمواعيد صرفاً ولا تتكلون على ملامة الطالب ولا عجز الراغب اذا استنفذت أيامه وعجزت نفقته وماتت أسبابه بل تعجلون لهم الراحة عند تعذر الامور اليكم بالاياس وتحققون اطماعهم عند امكان الامور لكم بالانجاح

﴿ فصل منها ﴾ وانك والله أيها الكريم المأمول والمستعطف المسؤول لا تزرع المحبة الا وتحصد الشكر ولا نكثر المودات الا اذا كثرت للناس الأموال ولا تشيع لك طيب الاحدوثة وجمال الحال فى العشيرة الا بتجرع مرار المكروه ولن تنهض بأعباء المكارم التى توجبها النعمة وتفرضها

المرتبة حتي تستشعر التفكر فى التخلص الى إغنائهم والقيام بحسن ظنهم
وحتى ترحمهم من طول الانتظار وترق عليهم من موت
الأمل واحياء القنوط وحتى تتغلغل في ذلك بالحيل
اللطيفة والعناية الشديدة الشريفة وحتى تتوخى
الساعات وتنتهز الفرص فى الحالات
وتتخير من الألفاظ أرقها
مسلكا وأحسنها قبولا
وأجودها وقوعا
والله تعالى
أعلم

﴿ تمت الرسالة التاسعة فى استنجاز الوعد ﴾

﴿ ويليها الرسالة العاشرة فى بيان مذاهب الشيعة ﴾

﴿ الرسالة العاشرة ﴾

﴿ فى بيان مذاهب الشيعة ﴾

لمؤلفها العلامة الشهير والمهامة الكبير الاستاذ أبي عثمان عمرو بن محبوب المعروف بالجاحظ رحمه الله تعالى

اعلم يرحمنا الله تعالى واياك ان شيعة على رضى الله تعالى عنه زيدى ورافضي وبقيتهم بدد لا نظام لهم وفى الاخبار عنهما غنى عمن سواهما . قالت علماء الزيدية وجدنا الفضل فى الفعل دون غيره ووجدنا الفعل كله فى أربعة أقسام أولها القدم فى الاسلام حين لا رغبة ولا رهبة الا من الله تعالى واليه ثم الزهد فى الدنيا فان أزهد الناس فى الناس أرغبهم في الآخرة وآمنهم على نفائس الأموال وعقائل النساء وإراقة الدماء ثم الفقه الذى به يعرف الناس مصالح دنياهم ومراشد دينهم ثم المشى بالسيف كفاحا فى الذب عن الاسلام وتأسيس الدين وقتل عدوه واحياء وليه فليس فوق بذل المهجة واستغراق القوة غاية يطلبها طالب أو يرتجيها راغب ولم نجد قولا خامسا فنذكره فلما رأينا هذه الخصال مجتمعة فى رجل دون الناس كلهم وجب علينا تفضيله عليهم وتقديمه دونهم وذلك أنا سألنا العلماء والفقهاء وأصحاب الاخبار وحمّال الآثار عن أول الناس اسلاما فقال فريق منهم عليّ وقال قوم زيد بن حارثة وقال قوم خباب ولم نجد قول كل واحد منهم من هذه الفرق قاطعا لعذر صاحبه ولا ناقلا له عن مذهبه وان كانت الرواية فى تقديم عليّ أشهر واللفظ به أكثر وكذلك اذا سألناهم عن الذابين عن الاسلام بمهجهم والماشين الى الأقران

بسيوفهم ،وجدناهم مختلفين فمن قائل يقول علي رضي الله تعالى عنه ومن قائل يقول ابن عفراء ومن قائل يقول محمد بن مسلمة ومن قائل يقول طلحة ومن قائل يقول البراء بن مالك على ان لعلى من قتل الأقران والفرسان ماليس لهم فلا أقل من أن يكون عليّ في طبقتهم وان سألناهم عن الفقهاء والعلماء رأيناهم يعدون عليا ممن كان افقههم وعمر وعبد الله بن مسعود وزيد بن ثابت وأبي بن كعب على ان عليّا كان أفقههم لانه كان يُسأل ولا يسأل ويفتي ولا يستفتي ويُحتاج اليه ولا يحتاج اليهم ولكن لاأقل من ان نجعله في طبقتهم وكأحدهم وان سألناهم عن أهل الزهادة وأصحاب التقشف والمعروفين برفض الدنيا وخلعها والزهد فيها قالوا على وأبو الدرداء ومعاذ بن جبل وأبو ذر وعمار وبلال وعثمان بن مظعون على ان عليا أزهدهم لانه شاركهم في خشونة الملبس وخشونة المأكل والرضا باليسير والتبلغ بالحقير وظلف النفس ومخالفة الشهوات وفارقهم بأن ملك بيوت الأموال ورقاب العرب والعجم فكان ينضح بيت المال في كل جمعة ويصلي فيه ركعتين ورقع سراويله وقطع ما فضل من ردائه عن أطراف أصابعه بالشفرة في أمور كثيرة مع أن زهده أفضل من زهدهم لانه أعلم منهم وعبادة العالم ليست كعبادة غيره كما أن زلته ليست كزلة غيره فلا أقل من أن نعده في طبقتهم ولا نجدهم ذكروا لأبي الدرداء وأبي ذر وبلال مثل الذي ذكروا له في باب الغناء والذب وبذل النفس ولم نجدهم ذكروا للزبير وابن عفراء وأبي دجانة والبراء بن مالك مثل الذي ذكروا له من التقدم في الاسلام والزهد والفقه ولم نجدهم ذكروا لأبي بكر

وزيد وخباب مثل الذى ذكروا له من بذل النفس والغَناء والذب بالسيف
ولا ذكروهم فى طبقة الفقهاء والزهاد فلما رأينا هذه الامور مجتمعة فيه
متفرقة فى غيره من أصحاب هذه المراتب وهذه الطبقات علمنا أنه أفضلهم
وان كان كل رجل منهم قد أخذ من كل خير بنصيب فانه لن يبلغ ذلك
مبلغ من قد اجتمع له جميع الخير وصنوفه

﴿ فصل منه ﴾ وضرب آخر من الناس همج هامج ورعاع منتشر لا نظام
لهم ولا اختيار عندهم اعراب أجلاف وأشباه الاعراب لا يفترقون لا تدفع
صولتهم اذا هاجوا ولا يؤمن هيجانهم اذا سكنوا ان أخصبوا طغوا فى
البلاد وان أجدبوا آثروا العناد ثم هم موكلون ببغض القادة وأهل الثراء
والنعمة يتمنون النكبة ويشمتون بالعثرة ويسرون بالحوبة ويترقبون الدائرة
وهم كما وُصفوا الطغام والسفلة : وقال علي رضى الله تعالى عنه في دعائه
نعوذ بالله من قوم اذا اجتمعوا لم يملكوا واذا افترقوا لم يعرفوا فهؤلاء
هؤلاء وضرب آخر قد فقهوا فى الدين وعرفوا سبب الامامة وأقنعهم
الحق وانقادوا له بطاعة الربوبية وطاعة المحنة وعرفوا المحبة وعرفوا المعدن
ولكنهم قليل في كثير ومختار كل زمان وان كثروا فهم أقل عدداً وان
كانوا أكثر فقها : فلما كان الناس عند علي وأبى بكر وعمر وأبي عبيدة
وأهل السابقة المهاجرين والانصار على الطبقات التى نزلنا والمنازل التى
رتبنا وبالمدينة منافقون يعضون عليهم الأنامل من الغيظ وفيها بطانة
لا يألونهم خبالا لا يخفى عليهم موضع الشدة وانتهاز الفرصة وهم فى ذلك
على تقية . وافق ذلك ارتداد من حول المدينة من العرب وتوعدهم بذلك

في شكاة النبي صلى الله عليه وسلم وصح به الخبر ثم الذى كان من اجتماع الأنصار حيث انحازوا من المهاجرين وصاروا أحزابا وقالوا منا أمير ومنكم أمير فأشفق علىؓ أن يظهر ارادة القيام بأمر الناس مخافة أن يتكلم متكلم أو يشغب شاغب ممن وصفنا حاله وبينا طريقته فيحدث بينهم فرقة والقلوب على ما وصفنا والمنافقون على ما ذكرنا وأهل الردة على ما أخبرنا ومذهب الأنصار على ماحكينا فدعاه النظر للدين الى الكف عن الاظهار والتجافي عن الامور وعلم أن فضل ما بينه وبين أبي بكر فى صلاحهم لو كانوا أقاموه لا يعادل التغرير بالدين ولا يفي بالخطار بالأنفس لان فى التهييج البائقة وفى فساد الدين فساد العاجلة والآجلة فاغتفر الخمول ضنا بالدين وآثر الآجلة على العاجلة فدل ذلك على رجاحة حلمه وقلة حرصه وسعة صدره وشدة زهده وفرط سماحه وإصالة رأيه ومتى سخت نفس امرئ عن هذا الخطب الجليل والامر الجزيل ينزل من الله تعالى بغاية منازل الدين وانما كانت غايتهم فى أمرهم أربح الحالين لهم وأعود المقصودين عليهم . واعلم ان هلكتهم لا تقوم بازاء صرف ما بين حاله وحال أبي بكر في مصلحتهم

﴿ فصل منه ﴾ وانما ذكرت لك مذهب من لا يجعل القرابة والحسب سببا الى الامامة دون من يجعل القرابة سببا من أسبابها وعللها لانى قد حكيته فى كتاب الرافضة وكان ثم أوقع وبه اليق وكرهت المعاد من الكلام والتكرار لان ذلك يغنى عن ذكره في هذا الكتاب وهو مسلك واحد وسبيل واحد وانما قصدت الى هذا المذهب دون مذهب

سائر الزيدية في دلائلهم وحججهم لانه أحسن شيء رأيته لهم وانما أحكى لك من كل نِحلة قول حذاقهم وذوى أحلامهم لان فيه دلالة على غيره وغنى عما سواه. وقالوا وقد يكون الرجل أفضل الناس ويلي عليه من هو دونه في الفضل حتى يكلفه الله تعالى طاعته وتقديمه اما للمصلحة واما للاشفاق من الفتنة كما ذكرنا وفسرنا واما للتغليظ في المحنة وتشديد البلوى والكلفة كما قال الله تعالى للملائكة اسجدوا لآدم والملائكة أفضل من آدم فقد كلفهم الله تعالى أغلظ المحن وأشد البلوي اذ ليس في الخضوع أشد من السجود على الساجد والملائكة أفضل من آدم لان جبريل ومكائيل واسرافيل عند الله تعالى من المقربين قبل خلق آدم بدهر طويل لما قدمت من العبادة واحتملت من ثقل الطاعة : وكما ملك الله تعالى طالوت على بني اسرائيل وفيهم يومئذ داود النبي صلى الله عليه وسلم وهو نبيهم الذى أخبر عنه كما في القرآن وقال لهم نبيهم (ان الله قد بعث لكم طالوت ملكا) ثم صنيع النبي صلى الله عليه وسلم حين ولى زيد ابن حارثة على جعفر الطيار يوم موتة وولى اسامة على أكثر المهاجرين وفيهم أبو بكر وعمر وسعد بن عمرو بن نفيل وسعد بن أبي وقاص ذوو أخطار واقدار من البدريين والمهاجرين والسابقين الاولين

﴿ فصل منه ﴾ ولو ترك الناس وقوى عقولهم وجماع طبائعهم وغلبة شهواتهم وكثرة جهلهم وشدة نزاعهم الى ما يرديهم ويطغيهم حتى يكونوا هم الذين يحتجزون من كلما أفسدهم بقدر قواهم وحتى يقفوا على حد الضار والنافع ويعرفوا فضل ما بين الداء والدواء والاغذية والسموم

كان قد كلفهم شططاً وأسلمهم الى عدوهم وشغلهم عن طاعته التي هي إحدى الامور عليهم وأنفعها لهم ومن أجلها عدّل التركيب وسوّى البنية وأخرجهم من حد الطفولة والجهل الى البلوغ والاعتدال والصحة وتمام الاداة والآلة ولذلك قال عز ذكره (وماخلقت الجن والانس الا ليعبدون) ولو ان للناس تركهم الله تعالى والتجربة وخلاّهم وسبر الامور وامتحان السموم واختبار الاغذية وهم على ماذكرنا في ضعف الحيلة وقلة المعرفة وغلبة الشهوة وتسلط الطبيعة مع كثرة الحاجة والجهل بالعاقبة لأتت عليهم السموم ولأفناهم الخطار ولأجهز عليهم الخبط ولتولدت الادواء وترادفت الأسقام حتي تصير منايا قاتلة وحتوفا متلفة اذ لم يكن عندهم الا أخذها والجهل بحدودها ومنتهى ما يجوز منها والزيادة فيها وقلة الاحتراس من توليدها فلما كان ذلك كذلك علمنا ان الله تعالى حيث خلق العالم وسكانه لم يخلقهم الا لصلاحهم ولا يجوز صلاحهم الا بتبقيتهم ولو لا الامر والنهي ما كان للتبقية وتعديل الفطرة معنى. ولما أن كان لا بد للعباد من ان يكونوا مأمورين منهيين بين عدو عاص ومطيع ولي علمنا ان الناس لا يستطيعون مدافعة طبائعهم ومخالفة أهوائهم الا بالزجر الشديد والتوعد بالعقاب الأليم في الآجل بعد التنكيل في العاجل اذ كان لا بد من أن يكون لكونهم مأمورين منهيين من العمل معجلا والجزاء الاكبر مؤجلا وكان شأنهم ايثار الادنى وتسويف الاقصى: واذا كانت عقول الناس لا تبلغ جميع مصالحهم في دنياهم فهم عن مصالح دينهم أعجز اذ كان علم الدين مستنبطا من علم الدنيا واذا كان العلم مباشرة أو سببا بالمباشرة وعلم الدين غامض

لا يتخلص الى معرفته الا بالطبيعة الفائقة والعناية الشديدة مع تلقين الائمة . ولأن الناس لو كانوا يبلغون بأنفسهم غاية مصالحهم فى دينهم ودنياهم كان إرسال الرسل قليل النفع يسير الفضل واذا كان الناس مع منفعتهم بالعاجل وحبهم للبقاء ورغبتهم فى النماء وحاجتهم الى الكفاية ومعرفتهم بما فيه من السلامة لا يبلغون بأنفسهم معرفة ذلك واصلاحه وعلم ذلك جلى ظاهر سببه بعضه ببعض كدرك الحواس ومالاقاها فهم عن التعديل والتحوير وتفصيل التأويل والكلام فى مجمل الاخبار وأصول الاديان أعجز وأجدر ان لا يبلغوا منه الغاية ولا ينالوا منه الحاجة لان علم الدنيا أمر ان اما شيء يلي الحواس واما شيء يلي علم الحواس وليس كذلك الدين . فلما كان ذلك كذلك علمنا أنه لا بد للناس من امام يعرفهم جميع مصالحهم ووجدنا الائمة ثلاثة رسول ونبي وامام فالرسول نبي امام والنبي نبي امام وليس برسول والامام ليس برسول ولا نبي وانما اختلفت اسماؤهم ومراتبهم لاختلاف المقومات والطبائع وعلى قدر ارتفاع بعضهم عن درجة بعض فى العزم والتركيب وبتغير الزمان بتغير الغرض وتبدل الشريعة فأفضل الناس الرسول ثم النبي ثم الامام فالرسول هو الذى يشرع الشريعة ويبتدئ الملة ويقيم الناس على جمل مراشدهم اذ كانت طبائعهم لا تحتمل فى ابتداء الأمر أكثر من الجمل ولولا أن فى طاقة الناس قبول التلقين وفهم الارشاد لكانوا هملا ولتركوا نشراً وحشرا ولسقط عنهم الامر والنهي ولكنهم قد يفضلون بين الامور اذا أوردت عليهم وكفوا مؤنة التجربة وعلاج الاستنباط ولن يبلغوا بذلك القدر قدر المستغني بنفسه المستبد برأيه

المكتفي بفطنته عن ارشاد الرسل وتلقين الأئمة وانما جاز أن يكون الرسول مرة عربيا ومرة عجميا وليس له بيت يخطره ولا شرف يشهر موضعه لأنه حين كان مبتدئ الملة ومخرج الشريعة كان ذلك أشهر من شرف الحسب المذكور وانبه من البيت المقدم ولانه يحتاج من الأعلام والآيات والاعاجيب الى الظاهر المعقول والواضح الذى لا يخيل أن يشتهر مثله في الآفاق ويستفيض في الاطراف حتى يصدع عقل الغبي ويضيع طبع العاقل وينقض عزم المعاند وينبه من طول الرقدة ويخضع الرقاب ويضرع الخدود حتى يتواضع له كل شرف ويخل له كل أنف فلا يحتاج حاله معه الى مال ولا قدره الى حسب وعلى قدر جهل الامة وغباء عقولها وسوء رغبتها وخبث عادتها وغلظ محنتها وشدة حيرتها تكون الآيات كفلق البحر والمشي على الماء واحياء الموتى وقصر الشمس عن جريها لان النبي الذى ليس برسول ولا مبتدئ ملة ولا منشئ شريعة انما هو للتأكيد والبشارة كبشارة النبي بالرسول الكائن على غابر الأيام وطول الدهر وتوكيد المبشر يحتاج من الاعلام الى دون مايحتاج اليه المبتدئ لأصل الملة والمظهر لغرض الشريعة الناقل للناس عن الضلال القديم والعادة السيئة والجهل الراسخ فلذلك اكتفي بشهرة اعلامه وشرائعه من شهرة بيته وشرف حسبه لانه لا ذكر الا وهو خامل عند ذكره ولا شرف الا وهو وضيع عند شرفه والله أعلم

﴿ تمت الرسالة العاشرة في بيان مذاهب الشيعة ﴾

(ويليها الرسالة الحادية عشرة في طبقات المغنيين)

الرسالة الحادية عشرة

في طبقات المغنيين

لمؤلفها العلامة الشهير والفهامة الكبير الاستاذ أبي عثمان عمرو بن محبوب المعروف بالجاحظ رحمه الله تعالى

بسم الله الرحمن الرحيم

ثم انا وجدنا الفلاسفة المتقدمين في الحكمة المحيطين بالامور معرفة ذكروا ان أصول الآداب التي منها يتفرع العلم لذوي الألباب أربعة فمنها النجوم وبروجها وحسابها التي يعرف بها الأوقات والازمنة وعليها مزاج الطبائع وايام السنة ومنها الهندسة وما اتصل بها من المساحة والوزن والتقدير وماأشبه ذلك ومنها الكيمياء والطب اللذان بهما صلاح المعاش وقوام الابدان وعلاج الاسقام ومايتشعب من ذلك ومنها اللحون ومعرفة اجزائها وقسمها ومقاطعها ومخارجها ووزنها حتى يستوى على الايقاع ويدخل في الوتر وغير ذلك مما اقتصرنا من ذكره على اسمائه وجمله اجتنابا للتطويل وتوخيا للاختصار وقصدنا للامر الذي اليه انتهينا واياه أردنا والله الموفق وهو المستعان ولم يزل أهل كل علم فيما خلا من الازمنة يركبون منهاجه ويسلكون طريقه ويعرفون غامضه ويسهلون سبيل المعرفة بدلائله خلا الغناء فانهم لم يكونوا عرفوا علله وأسبابه ووزنه وتصاريفه وكان علمهم به على الهاجس وعلى مايسمعون من الفارسية والهندية الى ان نظر الخليل البصرى في الشعر ووزنه ومخارج ألفاظه وميز ماقالت العرب منه وجمعه وألفه ووضع فيه الكتاب الذي سماه

العروض وذلك أنه عرض جميع ماروى من الشعر وما كان به عالما على
الاصول التى رسمها والعلل التي بينها فلم يجد أحداً من العرب خرج عنها
ولا قصر دونها فلما أحكم ذلك وبلغ منه مابلغ أخذ فى تفسير النغم واللحون
فاستدرك منه شيئاً ورسم له رسما احتذى عليه من خلفه واستتمه من
بعده وكان اسحاق بن ابراهيم الموصلى أول من حذا حذوه وأمتثل
هديه واجتمعت له في ذلك آلات لم يجتمع للخليل بن أحمد مثلها منها
معرفته بالغناء وكثرة استماعه اياه وعلمه بحسنه من قبيحه وصحيحه من
سقيمه ومنها حذقه بالعزف والايقاع وعلمه بوزنها وألف فى ذلك كتبا
معجبة وسهل له فيها ما كان مستصعبا على غيره فصنع الغناء بعلم فاضل
وحذق راجح ووزن صحيح وعلى أصل مستحكم له دلائل واضحة
وشواهد عادلة ولم نر احدا وجد سبيلا الي الطعن عليه والعيب له وصنع
كثير من أهل زمانه أغانى كثيرة بها جس طبعهم والاتباع لمن سبقهم
فبعض أصاب وجهل صوابه وبعض قصر في بعض واحسن فى بعض
ووجدنا لكل دهر دولة للمغنيين يحملون الغناء عنهم ويطارحون به فتيان
زمانهم وجوارى عصرهم وكان يكون في كل وقت من الاوقات قوم
يتنادمون يستحسنون الغناء ويميزون رديه من جيده وصوابه من خطائه
ويجمعون الى ذلك محاسن كثيرة فى آدابهم واخلاقهم ورواتهم وهيآتهم
فلم نجد هذه الطبقة ذكروا ووجدنا ذكر الغناء وأهله باقيا وخصصنا فى
أيامنا وزماننا بفتية أشراف وخلان نظاف انتظم لهم من آلات الفتوة
وأسباب المروة ما كان محجوبا عن غيرهم معدوما من سواهم فحملنى

الكلف بهم والمودة لهم والسرور بتخليد نخرهم وتشييد ذكرهم والحرص علي تقويم أود ذى الاود منهم حتي يلحق بأهل الكمال فى صناعته والفضل في معرفته على تمييز طبقة منهم وتسمية طبقة أهل كل طبقة بأوصافهم وآلاتهم وأدواتهم والمذاهب التى نسبوا اليها أنفسهم واحتملهم اخوانهم عليها وخلطنا جداً بهزل ومزجنا تعريفا بتعريض ولم نرد بأحد ممن سمينا سوءً ولا تعمدنا فاضحاً ولا تجاوزنا حداً ولو استعملنا غير الصدق لفضلنا قوما وحابينا آخرين ولم نفعل ذلك تجنباً للحيف وقصدا للانصاف وقد نعلم ان كثيراً منهم سيبالغ فى الذم ويحتفل فى الشتم ويذهب فى ذلك غير مذهبنا. وما أيسر ذلك فيما يجب من حقوق الفتيان وتفكيههم والله حسيب من ظلم عليه نتوكل وبه نستعين وهو رب العرش العظيم. ولم نقصد في وصف من وصفنا من الطبقات التي صنفنا منهم الا لمن أدركنا من أهل زماننا ممن حصل بمدينة السلام دون من خرج عنها ونزع الى الفتوة بعد التوبة والى أخلاق الحدثة بعد الحنكة وذلك في سنة خمس عشرة ومائتين فرحم الله أمرأً حسن فى ذلك أمرنا وحذا فيه حذونا ولم يعجل الى ذمنا ودعا بالمغفرة والرحمة لنا وقد تركنا فى كل باب من الابواب التى صنفنا فى كتابنا فرجا لزيادة ان زادت أولا حقة ان لحقت أو نابتة ان نبتت ومن عسى ان ينتقل به الحذق من مرتبته الى ماهو أعلى منها أو يعجز به القصور عماهو عليه منها الى ماهو دونها فينقل الى مكانه الذى اليه نقله ارتفاع درجته أو انحطاطها ومن لعلنا نصير الى ذكره ممن عزب عنا ذكره وانسينا اسمه ولم يحط علمنا به فنصيره فى موضعه

ونلحقه بأصحابه وليس لاحد ان يثبت شيئاً من هذه الاصناف الابعلمنا ولايستبد بأمر فيه دوننا ويورد ذلك علينا فنمتحنه ونعرفه بما عنده ونصير الى ترتيبه فى المرتبة التى يستحقها والطبقة التى يحتملها فلما استتب لنا الفراغ مما أردنا من ذلك خطر ببالنا كثرة العيابين من الجهال برب العالمين فلم نأمن أن يسرعوا بسفيه رأيهم وخفة أحلامهم الى نقض كتابنا وتبديله وتحريفه عن مواضعه وازالته عن أماكنه التى عليها رسمنا وان يقول كل امرئ منهم فى ذلك على حاله وبقدر هواه ورأيه وموافقته ومخالفته والميل فى ذلك الى بعض والذم لطبقة والحمد لاخرى فيهجنوا كتابنا ويلحقوا بنا ماليس من شأننا وأحببنا ان نأخذ في ذلك بالحزم وان نحتاط فيه لانفسنا ومن ضمه كتابنا ونبادر الى تفريق نسخة منها وتصييرها في أيدى الثقات والمستبصرين الذين كانوا فى هذا الشأن ثم ختموا ذلك بالعزلة والتوبة منه كصالح بن أبي صالح وكاحمد بن سلام وصالح مولى رشيدة ففعلنا ذلك وصيرناه أمانة فى أعناقهم ونسخة باقية فى أيديهم ووثقنا بهم أمناء ومستودعين وحفظة غير مضيعين ولامتهمين وعلمنا أنهم لايدعون صيانة ما استودعوا و حفظ ماعليه ائتمنوا فان شيب به شوب يخالفه وأضيف اليه مالا يلائمه رجعنا الى النسخة المنصوبة والاصول المخلفة عند ذوى الامانة والثقة واقتصرنا عليها واستعلينا بها على المبطلين ورفعنا به أدغال المدغلين وتحريف المحرفين وتزيد المتزيدين ان شاء الله ولاقوة الابالله العظيم

تمت الرسائل

الحمد لله الذي أنشأ الخلق من العدم ونثر عليهم من بحر احسانه فرائد النعم. والصلاة والسلام على قطب رحي الفصاحة. ونقطة دائرة الكرم والجود والسماحه. وعلى آله وأصحابه فرسان البيان. ومشيدي أركان الدين المبين باللسان والسنان. ما تمايلت اغصان الأشجار في الخمائل وتحركت الاقلام على الطروس فى انشاء الرسائل وسلم تسليما كثيراً (وبعد) فقد تم بعون الله وتأييده وتوفيقه وتسديده طبع رسائل امام الفصحاء وقدوة البلغاء أفضل كتاب عصره بلا منازع وخير مترسلي وقته بلا مدافع أبي عثمان عمرو بن محبوب المعروف بالجاحظ تغمده الله برحمته وأسكنه بحبوحة جنته وهي عبارة عن جملة رسائل من أمهات رسائله التي أنشأها وأعجز كل كاتب بليغ عن مضارعتــه فيها وكان بزوغ بدرها وتمام طبعها في مطبعة (السعادة) المشهورة بالاتقان والاجادة الكائنة بجوار محافظة مصر بنفقة مجـدد ربوع الفضـــل بعد اندراسها ومظهر آثار الآداب بعد انطماسها حضرة الفاضل الاديب واللوذعي اللبيب (الحاج محمد افندى ساسي المغربي التونسى) كان الله له ولسائر المسلمين عونا ومعينا وكان

الفراغ من طبعها فى شــهر شوال من شهور

ســـنة ١٣٢٤ هجريه على صاحبها

أفضـل صـلاة وأزكى تحيه

والحمـد لله أولا

وآخراً

فهرس الرسائل التي فى الكتاب

صحيفه

تم الفهرس

